

ساحر الكتب
رواية
هاسكي
مينا بشرى
دار الرسم بالكلمات

تحذير

هذه الرواية لمن هم فوق الـ18 عامًا نظرًا لأنها تحتوي على مشاهد قد تبدو عنيفة أو غير لائقة لصغار السن.

الفصل الأول

الموت

«الموت.. قد يأتي الموت فجأة ويبدو كالصاعقة على قلبك، لا يدمرك الموت عندما يزورك أنت لأنك لن تشعر بشيء حينها سوى أن الرؤية تنسرق منك ببطء، بل سيدمرك عندما يزور أحد أقاربك، فتصبح حالتك أصعب مما يتخيله العقل، بخاصة عندما يأتي الموت دون أن تضع في بالك أن ذلك محتمل أو وارد الحدوث، فتتعجب وتُصدم، ثم تفوق من صدمتك وتنزف دموعك وحدها، بعدها تنفجر بالصراخ، وفي تلك اللحظات التي تستمع فيها لصوت صراخك يخطر في بالك شيء واحد فقط وهو أن كل هذا ليس حقيقيًا، بالتأكيد لم يأتِ الموت بعد، ولكن سرعان ما يختفي هذا الظن عندما ترى جثمان الميت، فتجهش بالبكاء بينما تقترب ببطء من ذلك الجسد الساكن الذي يميل للون الأزرق في المشرحة، لن تعلم حينها لمَ البطء؟!، هل هذا خوف من الإيمان بخبر الوفاة؟! أم خوف من مظهر الميت نفسه.

لكنك تتجرأ في النهاية وتقترب، وتحاول أن تستمتع لصوت أنفاس قادمة من ناحية الجسد البارد ولكن النفس قد انقطع، فتقترب أكثر حتى تصل للجسد، لتلقي برأسك على صدره، على أمل أن تستمع لنبضات قلبه التي اعتدت أن تسمعها ولكن القلب قد توقف منذ فترة وأنت حتى هذه اللحظة لا تصدق، ولن تصدق إلا عندما يتم تسليم التراب أمانته.

في ذلك الحين ستلقي بعينك المدماة بنظرة الوداع على القبر

وتقول "هنا سيرقد فقيدي" لقد عاد إلى التراب، وقريبًا سيتحلل ويتحول إلى تراب. ثم تعود في آخر الليل إلى المنزل، وتنام نومًا عميقًا بسبب استنزاف طاقتك وعنائك في تلك الليلة التي يميل لونها للون الأسود، لتستيقظ في الصباح كما لو أن كل شيء حدث لم يكن حقيقيًا، وتبحث عن الميت وتنادي باسمه اعتقادًا منك على أن كل شيء هو مجرد زيارة ثقيلة من ضيف غير مرحبٍ به يدعى الكابوس. فتكتشف حينها أنه لم يطرق الكابوس على أبواب قلبك، بل اقتحم الموت كيانك، ودب اليأس في حياتك، وذبلت جميع الزهور في عينك وذهبت إلى حيث لا تدري، كالميت تمامًا».

هذا ما كتبته (ميرنا) وهي تبكي وتتذكر أمها (نادية) التي ماتت مقتولة غدرًا من قاتل يبدو عليه أنه مختل عقليًا، هذا القاتل لم تصل إليه الشرطة بعد، ولا يعلم ماهيته أحد حتى الآن، حيث تم تقييد هذه القضية ضد مجهول. لم تكن جريمة قتل أمها هي أول جريمة لهذا القاتل، فقام بقتل ثلاثة قبل والدة (ميرنا) بنفس الطريقة البشعة التي تدل على أنه غير متزن نفسيًا أو عقليًا، والثلاثة الذين قتلهم قبل (نادية) لا يشترك بينهم سوى شيء واحد فقط، وهو أن جميعهم نساء، فلا بد أن القاتل يكن الكثير من البغض والكراهية تجاه الإناث جميعًا، حتى إن واحدة منهم صغيرة لم يتعدَ عمرها الثاني عشر، لقد قتلها وقتل أمها وفعل بهم ما يفعله بضحاياه دومًا، وهو ذبحهم وإزالة عيونهم وتبديلها بعيون كلاب هاسكي، ومن ثم وضعهم في حقائب سوداء والإلقاء بهم في الشارع بينما يكون الجميع نائمًا بعد الفجر.

هذا المعتوه لم يكن رحيمًا أبدًا بضحاياه خصيصًا الطفلة، حيث أن الطفلة هي أكثر من عانى وأكثر من تشوه جسدها، وذلك لأنها هي الوحيدة دونًا عن باقي الضحايا التي تم ذبحها وتبديل عيونها بعيون كلب هاسكي، وزيادة على ذلك تم اختراق رأسها برصاصة من مسدس، أما عن الآخرين البالغين من الضحايا فتم ذبحهم وتبديل عيونهم بعيون كلاب هاسكي فقط دون إطلاق الرصاص في جماجمهم. وعلى الرغم من أن هذا القاتل لم يعد له ضحايا منذ شهرين أو أكثر بأيام قليلة وكأنه اختفى منذ أن قتل (نادية)، إلا أن ما زال الحديث الأول والأخير يدور حوله في الشوارع، فالجميع يخشى ظهوره مجددًا في أي وقت بخاصة النساء.

كتبت (ميرنا) كلماتها وهي تتذكر اليوم الأخير لأمها، حين كانت تحادثها في الهاتف قبل اختفائها، لقد كانت تخبر ابنتها بكل لطف ومحبة ألا تأكل لأنها عائدة إلى المنزل وحاملة معها وجبة من الدجاج المقلي التي تعشقه ابنتها، حينها أرادت أن تجعل ابنتها سعيدة، وذلك لأن تلك الفترة بالنسبة (لميرنا) كانت فترة عصيبة، فظهرت عليها علامات الاكتئاب حينها بسبب ترك خطيبها لها، وهذا أدى إلى الحزن الشديد وقلة الكلام والعزلة، وكعادة الأمهات عندما يرون أنفسهن قليلي الحيلة ولا يستطعن فعل شيء لتعديل الحالة المزاجية الحادة لأبنائهن، يحاولن فعل أي شيء بحسن نية وقلب صافٍ لا يتحكم به سوى الحب، فتكون أول فكرة تخطر في بال كل أم هي إسعاد المعدة لرسم البهجة على وجه فلذة كبدها.

وهذا ما فعلته (نادية) مع ابنتها، لقد حاولت مرارًا وتكرارًا أن

تجعلها تعود كما كانت وأن ترى بسمتها على وجهها مجددًا ولكنها غالبًا ما تلقت ردود فعل عنيفة من ابنتها، فجلبت لها ما تحب من الطعام واتصلت بها لتخبرها بهذا الخبر الذي اعتقدت أنه سيعيد الفرحة بداخل قلبها حتى ولو قليلًا، لكن (ميرنا) تقبلت الخبر بشكل غير لائق من ابنة لأمها، فلم تنطق بكلمة حتى عندما استمعت لحديث أمها وهي تخبرها بحنان ولطف "لقد جلبت لكِ الوجبة التي تحبينها"، فكان رد (ميرنا) هو أنها أغلقت هاتفها، وبعدها لم تعد (نادية) إلى المنزل.

تشعر (ميرنا) بالندم بسبب حدتها مع أمها في نهاية أيامها على الأرض، تتمنى أن يعود الزمان لتفعل ما كانت تريده وهو أن تبتسم في وجهها وتكذب عليها لتريح قلبها وتخبرها أنها بخير، وأن تلبي طلبها وتتحدث معها حينما كانت تشتاق لسماع صوتها، لربما لو فعلت هذا وقتها لما خرجت لتجلب لها وجبتها دون عودة.

لم يكن الشعور بالحزن والندم فقط ما يسيطر على (ميرنا)، بل الشعور بالغضب أيضًا، ليس ذلك الغضب الذي سيتلاشى مع الوقت، بل ذلك الغضب القاتل الجاحم الذي بإمكانه أن يصنع بركانًا بداخل المرء ليخرج ويحرق كل شيء وينتقم من كل شخص أمامه، فأصبحت (ميرنا) وحيدة دون مكان تلجأ إليه، فهي لا تعيش مع أبيها ولا تعلم أين هو منذ طفولتها، بل وأخبرتها أمها مسبقًا أنه اختفى فجأة عندما كانت طفلة عمرها عامين فقط، لتقوم بعدها (نادية) وحدها بتربيتها والاعتناء بها منذ الصغر حتى ماتت.

لقد فعلت (نادية) كل شيء، حيث أنها قامت بدور الأم والأب إلى

حدٍ سواء، وعلى الرغم من كل هذا إلا أن (ميرنا) لم تكن تلك الفتاة التي تشعر بالرضا والسعادة في حياتها، بل ألقت بالعتاب في كل ثانية على أمها، لأن (ميرنا) تشعر أنها دون البشر قليلًا، بل وتشعر أنها ليست مثل باقي البشر ولا تتمتع بالنعم والأشياء المادية الدنياوية التي يستمتع بها الجميع من حولها، ورغم أن أمها كانت تعمل ليلًا ونهارًا خياطة من أجل توفير كل ما هو ممكن لها، إلا أن (ميرنا) لم تجعلها تشعر يومًا بالامتنان ولم تنطق بكلمة جميلة لوالدتها ولو لمرة واحدة حتى وإن كانت عن طريق الخطأ.

وهذا بالتحديد ما يجعلها تشعر بالغضب، فلقد أخذها هذا القاتل الخسيس منها دون أن تخبرها أنها أعظم أم، قتلها دون أن تتلقى القدر الكافي من الأحضان منها، قتلها قبل أن تخبرها بأنها تحبها أكثر من الدنيا بأكملها. عانت (ميرنا) من الكوابيس طوال هذه الفترة منذ رحيل فقيدتها، فدائمًا ما تزورها أمها في أحلامها وتستنجد بها في مكان مظلم وهي تنزف من رقبتها المذبوحة، وتتساقط الدماء من عينيها اللتين لم يكونا عينيها، بل عيني كلب هاسكي، فتستيقظ من نومها حزينة من هذا المشهد المروع، لينقبض قلبها وتبدأ في البكاء والصراخ، ليرافقها تخيلات بداخل عقلها تهاجمها أشد هجومٍ وتحاول أن تُرسم لها كيف فعلها القاتل؟!، كيف اقتلع عينيها من جمجمتها؟!، وكيف اقتلع عيون الكلب أيضًا، وكيف ذبحها، هل قتلها في البداية قبل أن يقوم بتبديل العيون؟! أم فعل كل هذا وهي حية ترزق وتصرخ أمامه طالبة الرحمة، أو تصرخ لمن يسكن في السماوات لينهي حياتها بأسرع وقت حتى تفقد الشعور بذلك الشيء المقرف

المسمى بالألم؟!

لم تكن تعاني من الكوابيس فقط، بل أصبحت تعاني من أحلام اليقظة والهلوسة، حيث ترى أمها أمامها في كل مكان بداخل المنزل بمظاهر مرعبة أشد الرعب مثل المظاهر التي تراها بها في الكوابيس تمامًا. ونتيجة لكوابيسها، وأفكارها، وأحلام اليقظة والهلوسة التي تعاني منها يوميًا، أصبحت تخيلاتها بها بعضٌ من الشراسة، ولا يفارقان العنف والدموية رأسها، فعندما تتجول في الشوارع وتنظر إلى أي رجل أمامها تتخيله القاتل، ثم تتخيل نفسها وهي تقتلع عينيه من جمجمته وتضع مكانهما عيني كلب هاسكي، لتذبحه بعدها. لكن سرعان ما تشعر بالندم بسبب تلك التخيلات نتيجة لشعورها بأن الكلب الذي ستأخذ عينيه ليس له أي ذنب في هذه القصة، ربما ستكتفي باقتلاع عيون القاتل وذبحه فقط، وستترك الكلب وشأنه ليتمتع بنعمة البصر على أشياء لا تستحق حتى النظر إليها، كالإنسان مثلًا.

بالفعل كادت تفقد عقلها، حتى أنها أصبحت تؤمن إيمانًا لا تتفتت أجزاؤه أنها لن ترتاح ولن يهدأ قلبها إلا عندما تصل للقاتل بنفسها وتفعل معه مثلما فعل مع أمها، وهذا ما بدأت في فعله بالضبط، لقد أخذت تبحث عن القاتل في كل مكان، لكنها لا تمتلك الخبرة الكافية لتلعب دور المحققة وتمسك بقاتل حتى الشرطة لم تصل إليه بعد، بل وأصبح لغزًا محيرًا لهم، فبالتأكيد لم تصل إلى أي شيء، ولكنها ما زالت تحاول، وأنها تنوي أن تذهب اليوم إلى الشارع الذي يلقي فيه القاتل دائمًا ضحاياه بعد قتلهم لأنها تشعر أن القاتل دائمًا ما يتحرك

ويراقب مكان جريمته لكي يتأكد أنه لم يكتشفه أحدٌ كما يقال في الأفلام والمسلسلات.

تركت (ميرنا) الورقة والقلم، وتوقفت عن الكتابة، ثم ذهبت إلى الحمام لتنظيف وجهها من الدموع التي احتلت عينيها حتى خديها. وقفت أمام المِرْآةِ التي تعلو حوض غسيل الوجه بشبرين، ثم نظرت إلى وجهها الذي يظهر عليه علامات التعب والإرهاق رغم أنها لم تبذل أي مجهود يُذكر، حيث الهالات السوداء اقتحمت وظهرت حول عينيها الزرقاوين المغمورين بالدموع التي ظهرت كالأمواج وسط البحر الأزرق، والشقوق والتجاعيد على جفونها واضحين كما لو كانت تحمل من الهموم أطنانًا، والشعر الطويل أصبح مشتبكًا ببعضه البعض وهذا يدل على عدم اهتمامها بنفسها لفترة طويلة.

انتهت من غسيل وجهها، قبل أن تخرج مقصًا من جيبها، ثم راحت تقص شعرها المعقد بيد مرتعشة، بل وراحت ملامح الغضب تظهر على وجهها وهي تقص شعرها بدون حسبان وكأنها فاقدة عقلها، حتى أصبح بالكاد يصل إلى كتفها، فتأملت نفسها في المِرْآةِ وابتسمت أخيرًا، لكنها كانت ابتسامة مشبعة بالحزن بعدما انتهت مما تفعله.

فزينت ابتسامتها قطرات الدموع الساقطة من عينيها التي عادت لتمطر مرة أخرى، وذلك لأن قصة الشعر التي ترى بها نفسها أمام المِرْآةِ هي قصة شعر أمها، فلقد كان شعر (نادية) قصيرًا بني اللون وله بريق لامع يظهر عندما ينعكس عليه ضوء الشمس، وهي نفس القصة التي اعتادت (نادية) أن تزين بها رأس (ميرنا) حينما كانت

صغيرة، فشعر (ميرنا) بني اللون وله نفس البريق التي امتازت به الأم.

فما فعلته الفتاة هو عبارة عن حنين لأمها، لقد أرادت أن تبدو مثلها، فلهذه الدرجة تشتاق لها، حيث إنها تفعل أي شيء لتظل فقيدتها سجينة بداخل عقلها، تريد أن تراها في كل مكان بداخل المنزل في مخيلتها، فراحت تصنع في المنزل كل شيء كان يليق بها، وكل شيء كانت تحبه ويشبهها ويريحها، ولهذا السبب قامت بقص شعرها حتى تتذكرها في كل مرة تتأمل نفسها أمام المِرْآةِ. خرجت (ميرنا) من الحمام، ثم ذهبت إلى غرفة (نادية)، لتجدها جالسة على سريرها مثلما اعتادت الجلوس حينما كانت أنفاسها بداخل المنزل، فلا بد أن الخيالات والهلوسة قد بدأوا في الهجوم بشراسة.

كانت الأم جالسة على السرير مربعة الأقدام بعباءتها السوداء الطويلة، تقوم بتفصيل ثوب جميل أبيض اللون مثلما اعتادت أن تفعل دائمًا عندما كان الشعور بالملل يتملك منها، تنظر إلى الثوب والخيوط، وتدندن بكلمات أغنية (أمورتي الحلوة) للمطربة اللبنانية صباح بينما تهز رأسها يمينًا ويسارًا مع أنغام تلك الأغنية.

زادت معدلات نبض قلب (ميرنا)، وذلك لأن هذه هي الأغنية التي اعتادت (نادية) أن تغنيها لـ (ميرنا) في طفولتها عندما تكون حزينة، كما لو أن الأم تعلم تمامًا أن ابنتها بائسة وبحاجة لسماع هذه الأغنية في الوقت الحالي. لم تقترب (ميرنا) من السرير، بل جلست على الكرسي الخشبي المتواجد أمام السرير مباشرة، والذي يوجد أمامه طاولة صغيرة بها ريشة وألوان ولوحة مغطاة بقطعة من القماش ذو

اللون الأبيض.

بدأت (ميرنا) تتأمل غرفة أمها البسيطة التي تشبه غرفتها تمامًا، فنظرت إلى الصورة المعلقة على الحائط أعلى سرير أمها باشتياق، وهي صورة لـ(ميرنا) عندما كان عمرها عامين فقط بينما تحملها (نادية) ببهجة على كتفها، وفي الصورة تظهر (نادية) كما لو أنها توأم لـ(ميرنا) في الوقت الحالي، فـ(نادية) في شبابها لا تختلف كثيرًا عن (ميرنا) من حيث المظهر والجمال الأخاذ، حتى العيون الزرقاء وبريقها اللامع المميز قد ورثتهم الفتاة من أمها أيضًا.

لم يكن هنالك أي اختلاف بين غرفة (ميرنا) وغرفة (نادية)، فمنزل (ميرنا) عبارة عن شقة صغيرة في الطابق الثالث بها غرفتان صغيرتان وصالة ومطبخ وحمام، والغرفتان هما غرفة لها وغرفة لوالدتها (نادية) بالتأكيد، ولم يختلفوا أبدًا حتى في الحجم، فالدولاب والسرير والأثاث في غرفة (نادية) يشبهون ما يوجد في غرفتها بالضبط، حتى السجادة على الأرضية المصنوعة بيد (نادية) على الطريقة المغربية الملفتة للعين بلونيها الأزرق والأبيض موجودة في غرفة (ميرنا) وبنفس المكان تمامًا في منتصف الغرفة، بل والكومود الصغير بني اللون المتواجد بجانب السرير يوجد مثله في غرفة (ميرنا)، والتَسريحة بنية اللون المزخرفة بشكل شبكي المستندة على الحائط الموازي للسرير متواجد مثلها بالضبط في غرفة (ميرنا) وباللون والمكان ذاته. فلا يوجد أي اختلاف بين الغرفتين بالنسبة لـ(ميرنا) إلا أن غرفة (نادية) بها روح جميلة ودفء، بل ومريحة لها عن غرفتها الكئيبة.

تأملت (ميرنا) الدولاب الصغير المتواجد بجانب الكرسي الخشبي الذي تجلس عليه، وأخذت تشاهد وجهها في المِرآةِ الموجودة على باب الدولاب، قبل أن يُفتح باب الدولاب وحده نتيجة للهواء القادم من شرفة الغرفة المفتوحة والمتواجدة بجانب السرير، ليتعطر أنف (ميرنا) برائحة ملابس أمها والتي جميعها عبارة عن عباءات سوداء، لم تعلم (ميرنا) طوال حياتها لمَ ترتدي أمها الأسود دائمًا وهي على غير علم إذا كان والدها ميتًا أو حيًا؟!.

ذرفت دمعة من عينها وهي تنظر إلى الملابس، قبل أن تبتسم بابتسامة هادئة، ثم التفتت لخيال أمها الذي يجلس أمامها على السرير، لتقول للخيال بلطف ولهفة وعين بها شوق "انظري لي".

نظرت (نادية) لها وهي تمسك بالخيط والثوب كما هي، لكن عيونها لم تكن متواجدة، بل يوجد مكان عينيها عينان لكلب هاسكي ملفوف حولهم سائل أسود بطريقة دائرية كما لو أن هذا السائل عبارة عن كحل مثل ذلك الكحل الذي يسيل وقت البكاء. زادت كثافة الدموع المتساقطة من عين (ميرنا) قليلًا، ثم أمسكت قطعة القماش المتواجدة على اللوحة ووضعتها جانبًا، لتظهر حينها الرسمة المرسومة بواسطة فرشتها. حيث كانت الرسمة عبارة عن (نادية) وهي تجلس على السرير بنفس العباءة السوداء التي ترتديها، تقوم بتفصيل الثوب الأبيض بينما تنظر إلى الأمام مبتسمة بابتسامة عريضة وجميلة، لكنها في الرسمة بدون عينيها، لأن (ميرنا) تكره فكرة أن ترسم أمها بعيون الكلب الهاسكي مثلما تراها.

أمسكت (ميرنا) الريشة وراحت تحركها على الشعر باللون

البني لتزيد اللون حدة، وتجعله يلمع أكثر، ثم أخذت تبكي بحرقة كالأطفال الصغار، حتى تساقطت دموعها الغزيرة على يدها التي ترسم بها كسقوط الأمطار، وهذا لأنها تذكرت (نادية) حينما كانت تعلمها وتزرع بداخل قلبها حب الفن والرسم، فمسحت دموعها بيدها الملطخة بالألوان، ثم بدأت تُحرك ريشتها على الشفتين باللون الأحمر، لقد كانت تحرك الريشة ببطء وهدوء يشبه هدوء ابتسامتها التي عادت لوجهها وهي تبادل النظر بين الخيال والرسمة التي أمامها، ثم أخيرًا حركت ريشتها على العين باللون الأسود، ولم تُرسم العينين، بل وُجد مكان العينين فراغًا أسود تامًا، لتتوقف عن الرسم بعدها. أغلقت عينيها، ثم أخذت نفسًا عميقًا، لتفتح عينيها وتنظر إلى خيال أمها بنظرة بها حنان ولين، لتخبرها بصوت مختلط به السعادة ومُشبع بالألم: "لقد انتهيت".

ابتسمت الأم، قبل أن تترك الثوب والخيوط على السرير لتنهض، ثم راحت تقترب من ابنتها بحركة بطيئة تدل على كبر عمرها، وعندما وصلت لها تفاجأت بالرسمة وخرج منها صوت يدل على أنها تبكي دموعًا بسبب فرحتها أن ابنتها رسمتها، حتى أن عيني الكلب الهاسكي المتواجدين بدلًا من عينيها بدأتا في النزيف بالقليل من الدموع.

فرحت (ميرنا) بابتهاج قلب أمها، وفرحت حين استمعت لصوتها الذي بدا كفرحة الأم في حفل زفاف ابنتها عندما لا تستطيع أن تعبر عمّا تشعر بالضبط؟! هل تفرح لفرح ابنتها أم تحزن لأنها ستتركها وتذهب مع شخص آخر؟!، لكنها شعرت بالخوف قليلًا بسبب تلك

الدموع التي تتساقط من عينين مخيفتين. وضعت الأم يدها على كتف ابنتها وقالت بابتسامة عريضة ولهجة ملموس بها المحبة والسرور: "هذه أول مرة ترسميني بها يا ميرنا".

قالتها، ثم تألم قلب (ميرنا) ندمًا على أنها لم تفعلها من قبل، لكنها حاولت أن تتماسك وتتظاهر بالجمود، فنهضت عن الكرسي لتتأمل الأم بنظرة بها شغف، قبل أن تسألها بلهفة بها بشاشة "أتعجبك اللوحة؟". هذا ما قالته (ميرنا) لوالدتها، لكنها بداخل قلبها أرادت أن تقول أنها نادمة على أنها رسمت الكثير من معالم الجمال في تلك الحياة البائسة ولم ترسم أجمل شيء في العالم من قبل ولم تفكر في ذلك حتى، تشعر بالندم لأنها تعلم تمامًا أن التي أمامها الآن ليست أمها بل مجرد خيال يصنعه عقلها لها حتى لا تجن، وأن تلك الفرحة المرسومة بوجه وصوت أمها كاذبة ولم تشعر بها في الحقيقة لأنها ميتة، وللأسف لن تشعر بها أبدًا على كل حال، ولكن على الرغم من هذا تمنت بكامل فؤادها أن تكون أمها سعيدة حقًا، وأنها ترى الرسمة بالفعل في الوقت الحالي.

أجابتها (نادية) بنفس نبرة الصوت: "هذا أجمل شيء حدث لي في حياتي". وبعدما قالتها تنهدت واتسعت ابتسامتها عن آخرها، قبل أن تشير بإصبعها إلى الرسمة تجاه العينين سائلة ابنتها في حيرة: "ولكن.. أين عيناي؟!".

صمتت (ميرنا) عندما سمعت السؤال، وحاولت تجنب التواصل البصري فأدارت وجهها بعيدًا لليسار، ثم بدأت تعض على شفتيها بغيظ قائلة: "يومًا ما سأرسمها، أعدك بذلك!!".

قالتها، ثم التفتت تجاه (نادية)، لتجد أنها قد اختفت من أمامها ولم تعد متواجدة، لتنحني بوجهها إلى الأرض في حسرة وكسرة، قبل أن تذهب تجاه السرير وتلقي بجسدها عليه لتنام القليل حتى يبزغ الليل وتذهب في طريقها باحثة عن قاتل أمها في الشارع الذي قام بإلقاء جثتها وجميع الجثث به.

الفصل الثاني

مأوى القتلة

استيقظت (ميرنا) من نومها في تمام الساعة الحادية عشر مساءً، وها هي تتجول ليلًا في الشارع الطويل المُظلم الفارغ من البشر الذي وجدوا به جسد أمها ملقى على الأرض، لم تكن تتمنى أن تزور هذا المكان، لكنها تعزم على أن تصل لشيء ما، ولكن ما هو الشيء الذي من الممكن أن تصل إليه في هذا الشارع؟!، هي لا تعلم، بل تتمنى أن تمسك بطرف خيط يدلّها الطريق للقبض على القاتل في نهاية المطاف.

في كل مكان تخطو به تهيّأ لها جثة أمها ملقاة على الأرض، فتحاول أن تغلق عينيها وتذهب بعيدًا عن الجسد حتى لا يلاحظ أحدٌ تصرفاتها ويتهمها بالجنون، وكلما تتخطى الجسد تراه أمامها مجددًا كما لو أنه ظلّها الذي يرافقها في كل خطوة. ففي المرة الأولى التي رأت بها الجسد وهو ملقى على الأرض كان يحدق بها بعيني كلب هاسكي جاحظتين، والمرة الثانية رأته بنفس العينين ولكنه كان مذبوحًا وبلا روح، أما عن المرة الثالثة فلقد رأت أمها ملقاة على الأرض ولم يختلف مظهرها كثيرًا عما رأته في المرتين السابقتين، ولكن الاختلاف فقط في كثافة الدماء من حولها، فظهرت كما لو أنها حديثة الذبح، حيث أن الدماء تتساقط من رقبتها بغزارة، بينما يرتجف جسدها بعنف كالمنازل التي تهتز نتيجة للزلازل والهزات الأرضية، أما عن عيني كلب الهاسكي المزروعتين مكان عينيها فكانتا

تتحركان أينما ذهبت (ميرنا) كما لو أنهما تراقبانها وتتربصان بها.

أغلقت (ميرنا) عينيها وأكملت طريقها إلى اللا مكان، وظلت تتحرك وهي مُغلقة العين حتى صُدمت بشيء ففتحتهما لتبصر، لتعلم أنها صُدمت برجل عجوز، ولكن خلف الرجل وجدت أمها واقفة بنفس المظهر المخيف، بعيني كلب هاسكي ورقبة مذبوحة، تنظر إلى ابنتها بحدة وكأنها تريد أن تخبرها بشيء. حاولت (ميرنا) ألا تنظر إليها، فوجهت أنظارها تجاه الرجل الذي قالت له بخجل وارتباك: "أنا آسفة".

لم يهتم الرجل بأسفها وأكمل طريقه، أما عن (نادية) فهي تبالي بكل شيء، حيث أن نظاراتها بعيني كلب الهاسكي بدت حادة وعنيفة لابنتها، وكأن هذا الشيء الذي تود إخبارها به هو الرحيل من هذا المكان على الفور، فتريد إخافتها لترحل وتعود إلى المنزل سالمة آمنة دون أن يصيبها أي مكروه. هذا ما خمنته (ميرنا) بالضبط، خمنت أن (نادية) تريد منها الهروب لأن القاتل هنا، وأنها محقة بشأن أن القاتل ربما يتجول حول مسرح جريمته مثلما اعتقدت، وأن من المُحتمل أن تكون والدتها تطاردها لأنها تخاف عليها، ولأجل ذلك تريدها أن تغادر الشارع حتى لا تقع ضحية من ضحايا هذا السفاح.

حدقت (ميرنا) بأمها وأخبرتها بحدة وصوت يبادلان نظرة (نادية) الحادة قائلة "لن أتراجع ولن أهاب". فتحولت نظرة عيون كلب الهاسكي في جمجمة (نادية) إلى نظرة غاضبة، قبل أن تتلاشى من أمام ابنتها وتختفي كما يختفي الدخان. أكملت (ميرنا) طريقها بعدما اختفت أمها، وبدأت بالتجول في الشارع مجددًا، حتى رأت

أمامها لافتة لحانة، حيث يجتمع السكارى ومدمنو الكحول، ابتسمت وهي تتأمل الحانة، لأن من معتقدها الشخصي لا بد أن يكون هذا هو المكان المفضل الذي يزوره القاتل، فبالتأكيد القاتل لن يزور سوبر ماركت مثلًا أو متجر، وخاصة أن الشارع يبدو ساكنًا تمامًا ولا يوجد به الكثير من المتاجر أو أي شيء يدل على أن هنالك حياة في ذلك المكان، فلا يوجد أمامها سوى تلك الحانة، وهو المكان الوحيد الذي رأته مفتوحًا منذ بدأت في استكشاف الشارع.

لذلك ضمت يديها الاثنتين في حركة تدل على قلقها لتحاول أن تتحكم في أصابعها التي راحت ترتعش بشدة، ثم أخذت نفسًا عميقًا لتحاول الهدوء قليلًا من التوتر الذي راح يتحول لعرق يسيل على وجهها بغزارة، قبل أن تتحرك باتجاه الحانة بحركات بطيئة وأقدام مرتجفة قليلًا مع جفون مرتعشة وأنفاس لاهثة. لقد كان جسدها يتحدث نيابةً عنها ويقول أنها تشعر بالرهبة من فكرة الدخول لهذا المكان، لكن قلبها ظل يكابر ويحاول أن يقنعها ألا تخشى شيئًا سوى الفشل.

دخلت (ميرنا) الحانة، وكان أول ما شعرت به عند الدخول هو أنها في مكان ليس بمكانها ولا يشبهها، فالأضواء الساطعة ذات اللونين الأحمر والأزرق التي تنعكس على كل طاولة لم تُرح عينيها، ونظراتها للناس أوحت بالتعجب والاستحقار، لقد رأت ذلك الرجل الذي يمسك بيده كأسًا من الخمر وفي اليد الأخرى يمسك بسيجارة، يجلس على طاولة أمام صديقه ويخبره بكل حزن وغضب: "سأقتلع عينيها مثلما يفعل القاتل بضحاياه من النساء حتى لا يتمعن في عينيها أحد

غيري، ولن أضع مكان عينيها عيني كلب هاسكي، بل سأتبول في ذلك الجوف". ثم صدم بيده على الطاولة التي أمامه وقال بنبرة بها غيظ: "أتمنى أن أراها". ليمسك بعدها بقميص صديقه الجالس أمامه قائلًا: "هل تعلم أين مريم؟!".

غضبت (ميرنا) من الكلمات التي أطلقها هذا الرجل، خاصة أنه أشار بكلامه إلى قاتل أمها ويتحدث عنه كما لو أنه رمز أو بطل، لكنها حاولت أن تتمالك وتتماسك ولا تظهر غضبها، ليس لأنها تمتلك الكثير من الحكمة أو لأنها تعلم أنه من الخطر أن تظهر غضبها عليه أو تظهر غضبها في مكان مثل هذا، بل لأنها شعرت بالخوف، وبالرغم من شعورها بالخوف إلا أنها تخيلت نفسها وهي تهجم عليه بسرعة كسرعة الفهد وهو يهجم على فريسته لتقتلع عينيه من جمجمته مثلما يريد أن يفعل مع تلك الفتاة التي يبحث عنها المدعوة بـ(مريم). استمرت في البحث، حتى مرت بجانب رجل بدت عليه القوة البدنية، فلديه الكثير من العضلات التي تجذب النساء دومًا، ولقد كان مظهره كما لو أنه حارس شخصي، برأسه الصلعاء اللامعة تلك التي ينعكس عليها الأضواء، ونظارته الشمسية التي يرتديها حتى بداخل الحانة في الليل، وصوت ضحكاته الذي أزعج (ميرنا)، فكان يجلس مع أصدقائه ويضحك بشدة ويقهقه بنبرة بها الكثير من الخشونة، وضحكته بدت كضحكة انتصار أو ما شابه، بينما يلقي بنظراته على امرأة تقف بعيدًا بجانب الكثير من النساء حولها ويقول لأصدقائه: "لقد قضيت معها ليلة كألف ليلة وليلة يوم أمس، استمع جميع سكان المبنى لصوت صراخها، صرخت حتى كدت أن أشعر

بالشفقة عليها، لقد كنت فوقها لساعتين متواصلتين يا رجل، هل تتخيل ما شعرت به المسكينة وقتها!". ضحك صديقه قائلًا بسخرية: "لا أريد أن أتخيل".

ظلت (ميرنا) تائهة بداخل الحانة، تشعر أنها تبحث عن اللا شيء وسط اللا شيء، وفي وسط بحثها مرت بجانب المرأة التي كان يتحدث عنها ذلك الرجل الذي يمتلك الكثير من العضلات، والتي بدت حقًا أنها لم تحب الليلة التي قضتها معه في البارحة، فنظراتها له وهي تعض على شفتيها بغيظ، ونفخها لدخان سيجارتها مع أخذ الأنفاس السريعة المعبأة بدخان التبغ، مع تلك العيون المبحلقة الحادة، ومع حاجب من الحاجبين مرتفع لأعلى في غرور أو تقليل من شأن هذا الرجل الذي تحدق به، فلقد أوحى كل هذا بأنها لم تكن سعيدة في البارحة، وذلك ما شعرت به (ميرنا) قبل أن تتخيل بعقلها ما حدث بينهما وتضحك بداخل نفسها، لكن تخيلها لم يكن في محله، حيث بدأت المرأة بالتحدث لصديقتها التي تقف بجانبها وتقول "هل تعلمين؟!، المظاهر خادعة دومًا كما قالت ليلى قبل موتها، فعندما رأيته اعتقدت أنني سأكون في مأزق معه على السرير ولكن ما حدث هو العكس تمامًا، لم يُكمل هذا اللعين دقيقتين حتى تعرق وجهه وأصابه الإرهاق، فعاد لارتداء ملابسه مرة أخرى، بعدها أعطاني المال وقال لي اذهبي". ضحكت، ثم التفتت لصديقتها وقالت بسخرية: "أعتقد أن هذا المال حرامًا، أليس كذلك؟! لم أبذل أي جهد ولم تسقط أي نقطة عرق مني للحصول عليه".

تعجبت (ميرنا) من كلام المرأة، خاصةً أن كلام الرجل معاكس

تمامًا لما تتفوه به من حديث، فبالتأكيد هناك أحدٌ منهما يكذب، ولكن من الكاذب ومن منهما الصادق؟! هل من قال أن الجماع استمر لساعتين، أم من قالت أن السرير لم يهتز لمدة دقيقتين حتى! بدا الأمر غريبًا بالنسبة لها، لكنها ضحكت عندما استمعت للكلمات وفي رأسها تساءل واحد فقط وهو: "لماذا الجميع يكذب حول الجنس؟!". لم تبالِ وأكملت طريقها، حتى رأت النادل يشير لها بإصبعه ويخبرها بالاقتراب منه، لقد كان يقف أمام طاولة طويلة جدًا بها الكثير من أنواع الخمور والكحوليات، اقتربت منه (ميرنا) في قلق، لكنه استقبلها بابتسامة هادئة قائلًا لها: "أراكِ تبحثين حولكِ، على مَن تبحثين؟!".

ربما شعرت (ميرنا) بالتوتر قليلًا، لكن مظهر النادل لم يكن ذلك المظهر الذي يجعل مَن أمامه يشعر بالارتياب، فلقد بدا هادئًا على عكس الجميع في الحانة، مبتسمًا دائمًا ومبتهجًا، حتى مظهره الخارجي جيد بعض الشيء، حيث يمتلك عينين خضراوين وحاجبين كثيفين بنيا اللون أعلى عينيه، يبدو عليه أنه لربما يكون في عمره الخامس والثلاثين أو شيئًا من هذا القبيل، شعره ليس بكثيف حيث يظهر الكثير من الفراغات في رأسه، جسده ليس ممتلئًا وليس نحيفًا أيضًا بل جسده طبيعي كأجساد معظم البشر في هذا العالم، لبق في حديثه وصوته ليس بمرتفع، وهذا ظهر عندما قام بالمناداة على (ميرنا)، وليس (ميرنا) فقط، بل وضح ذلك في تعامله مع جميع مَن في الحانة، فجميعهم يحترمونه ويتحدثون إليه، وينادونه بـ (يوسف). هذا ما جعل (ميرنا) تطمئن قليلًا، فأسرعت

بالتحدث معه قائلة: "أنا أبحث عن قاتل".

تلك هي الجملة التي قالتها الفتاة التي ظهر على وجهها السذاجة المُشبعة بالحماس، وقد لاحظ (يوسف) حماستها الساذجة تلك، فأجابها بهدوء وابتسامة بينما ينظر إلى الكأس الذي ينظفه: "إذن عليكِ الذهاب إلى شارلوك هولمز، أنتِ في المكان الخاطئ يا عزيزتي!!". ترك الكأس، ثم نظر لها بنظرة ثاقبة، قبل أن يقول لها بنبرة تشبه نبرة الحكماء: "انظري حولكِ، الكثير من الذين يأتون إلى هنا يأتون لأنهم إما قتلة بالفعل، أو على وشك قتل الغير أو أنفسهم، كأس الخمر هو مأوى القاتل والمقتول، مأوى المُعذِب والمُعذَب".

شعرت (ميرنا) بالاستعجاب وهي تنظر لـ(يوسف) بينما يتحدث بهذه الطريقة، حيث أنها أغلقت جزءًا من عينيها وكأنها تحاول أن تفهم ما يقول، حتى أنها اعتقدت أنه مجنون ولا يفهم هو أصلًا ما يتفوه به، أو لربما يكون قد شرب الكثير من الكحول وهذا ما جعله يتفوه بكلمات غريبة جعلته يبدو كالفيلسوف الأحمق. لكن فترة تعجبها لم تطل، حيث عمت الفوضى المكان منذ أن نهض ذلك الرجل الذي يبحث عن الفتاة المسماة بـ(مريم)، ورأته قادمًا تجاهها بسرعة رهيبة وحركة غير متزنة جعلته يتعثر بمعظم الطاولات من حوله وهو ينادي على (يوسف) بصوت ينفجر غضبًا ويقول: "أين مريم يا يوسف؟!، أين سأجد مريم في هذا العالم؟!". أعاد(يوسف) أنظاره إلى كأس الخمر الذي ما زال ينظفه، ثم ضحك وقال بنفس النبرة الهادئة التي تشبه نبرة الحكماء: "إذا كنت تبحث عن العذراء مريم فلن تأتي لمكان مثل هذا أبدًا، وإذا كنت تبحث عن مريم المجدلية

فلقد تابت وعادت إلى الله منذ أن رأت السيد المسيح، عن أي مريم تبحث يا صديقي؟!".

لقد ظهر على وجه (يوسف) علامات السخرية، فبدا وهو يتحدث كما لو أنه لا يعلم من (مريم) التي يتحدث عنها الرجل، وهذا ما جعل الرجل يجن جنونه ويرد على (يوسف) بحدة قائلًا: "لا تسخر مني!!، أنت تعلم من أقصد بالضبط". رفع (يوسف) أنظاره تجاه الرجل، ثم وضع الكأس على الطاولة وحرك إصبعه السبابة يمينًا ويسارًا، قبل أن يقول بنفس اللهجة الواثقة الهادئة: "لا أعلم من هي، أريد أن أسمعها منك". ابتلع الرجل لعابه، وصمت لوهلة، ثم تحدث (يوسف) نيابة عنه وأكمل كلامه قائلًا: "ماذا؟. ألا تتذكر من هي مريم؟!". اصفر وجه الرجل، ثم نظر إلى (يوسف) بكُرهٍ عظيم، ليقول بصوت خافت:"العاهرة".

وضع (يوسف) يده على أذنه بإشارة منه على أنه لم يستمع جيدًا، قبل أن يخبره بكذب: "لا أسمعك". زاد اصفرار وجه الرجل وقال بلسان متلعثم: "العاهرة يا يوسف، مريم العاهرة". بدا على وجه الرجل الخجل وكأنه يشعر بالخزي من نفسه وهو ينطق بتلك الكلمات، وكأنه يشعر بالعار لبحثه عن عاهرة، وهو يعلم أن هذا ما أراده (يوسف)، حيث أنه أراد الرجل أن ينطق بنفسه وبلسانه لقبها ليتذكر تمامًا عمَّن يبحث.

تحدث (يوسف) بسخرية وقال: "لم تكن تريد قولها لأنك تعشقها، إنه تأثير العشق، تريد أن تنسى ماهيتها، لقد قلت أنك تبحث عن مريم لكنك خجلت أن تقول العاهرة". صمت (يوسف)، ثم أخذ نفسًا

عميقًا، قبل أن يكمل حديثه: "لا أعلم أين هي". قال جملته، ثم أعاد أنظاره إلى الكأس مرة أخرى، فغضب الرجل وأزاح الكأس من يد (يوسف) بقوة فسقط وتحطم، ثم أشار لـ(يوسف) بإصبع السبابة كما لو أنه يلقي اللوم على متهم، قبل أن يخبره بغضب وهو عاقد حاجبيه "لقد رأيتها آخر مرة معك".

رغم أن علامات الغضب باتت واضحة على وجه (يوسف)، إلا أنه حافظ على هدوئه ولسانه الذي لا ينطق بعيبة، حيث أنه نظر إليه بنظرة حادة لكن أسلوبه في الكلام ليس بتلك الحدة على الإطلاق، بل ما زال يحافظ على ذلك البرود في كلامه وتلك اللباقة التي تبدو كما لو أن سكينة العالم بأكمله مزروعة بقلبه، فلم يصدر أي ردة فعل غير أنه حدق بالرجل وقال له:

- أرجوك، اغرب عن وجهي!!

- أين مريم يا يوسف؟!

قالها الرجل وهو ثائر ينفجر غضبًا، قبل أن يقترب من (يوسف) ويمسك بقميصه، حتى خرج (يوسف) عن هدوئه قليلًا عندما لاحظ أنه قد طفح الكيل، فأزاح يد الرجل عن قميصه، ثم أمسك بوجهه وقال بنظرات غاضبة تبادل نظرات الرجل ولكن صوته ما زال هادئًا: "هل أبدو لك رجلًا يواعد العاهرات؟!، بالتأكيد لا، إذا كنت تريد البحث عن مريم فلا تبحث عنها عندي، أنا لا أعلم أين هي، إذا كنت تريد أن تعلم أين هي فعليك أن تبحث عنها على كل سرير في تلك البلدة اللعينة، أو تبحث عنها مع كل رجل تراه بعينيك، هل تفهم ما

أقوله؟!، والآن اغرب عن وجهي".

أفلت الرجل وجهه من يد (يوسف)، ثم خرج من الحانة، أما عن (ميرنا) فظلت صامتة متفاجئة مما حدث، تنظر إلى (يوسف) الذي راح يتأمل خوفها بعيني الرأفة والحنان والود، في إشارة لها ألا تخف من شيء، قبل أن يمسك بيدها ويربت عليها ويقول: "لقد أخبرتك أنكِ في المكان الخاطئ". صمت، ثم ضحك سخريةً مما حدث وهو يضع يده على رأسه كأنه يريد أن يتذكر شيئًا ما، قبل أن يعيد أنظاره لـ(ميرنا) ويخبرها: "لقد قلتِ لي أنكِ تبحثين عن.. عن..." ظل يكرر كلمة (عن) كما لو أنه يسترجع بذاكرته لدقائق مضت عندما أخبرته أنها تبحث عن قاتل، فقطعت الفتاة حبل أفكاره وقالت بحماس "قاتل!!". رد (يوسف) على حماستها بابتسامة قائلًا: "أعلم، ولكن عن أي قاتل تبحثين؟!". ابتلعت لعابها في خجل، وذلك لعلمها أنه استطاع خداعها كما خدع الرجل المجنون بـ(بمريم) عندما سأله "عن أي مريم تبحث؟". لكنها أجابته وهي تنظر إلى الأرض في حزن: "القاتل الذي يقتلع عيون ضحاياه ويضع مكانها عيون كلاب هاسكي". قالتها، بعدها سقطت دمعة من عينيها وراحت ملامح التعاسة تظهر على وجهها، ليتأملها (يوسف) بنظرة بها القليل من الشفقة، ولكن سرعان ما تحولت نظرته المشفقة إلى ابتسامة ماكرة وهو يجيبها: "معظم من هنا إما قتلة أو على وشك قتل الغير أو أنفسهم، هل تتذكرين تلك الجملة؟!".

لم تجبه (ميرنا)، بل شعرت أنه قد فهم قليلًا أنها تسعى للانتقام فصمتت، حتى أخرج (يوسف) علبة سجائره من جيبه، ليخرج

سيجارة ويشعلها، قبل أن يهديها لـ(ميرنا) التي لم تجرب التدخين يومًا، لكنها وافقت وأخذت السيجارة كما لو أن بينها وبين النيكوتين ماضٍ لا يعلمه سوى الدخان الذي يتطاير نتيجة لاشتعال التبغ.

ظلت تحدق بالسيجارة المشتعلة بين أصابعها خوفًا من اتخاذ القرار، تفكر في عواقب تلك الخطوة الجريئة التي على وشك أن تخطوها، لكنها تتمتع بالجرأة الكافية التي جعلتها تستنشق أول نفس معبًا بالدخان، قبل أن تصاب بالسعال ويصبح مظهرها مُخجلًا ومُضحكًا أمام (يوسف) والجميع في الحانة. لقد علم (يوسف) من حركات عينيها المتوترة المترددة أنها لم تضع سيجارة في فمها من قبل، لذلك مع ضحكاته أخذ منها السيجارة وبدأ في التدخين هو، قبل أن يسألها وهو يدفع الدخان من فمه بقوة تجاه وجهها:

- لماذا؟!

- لأنه قتل أمي!

قالتها (ميرنا) بوجه مُحمر ومُختنق نتيجة للدخان المعبأ بداخل صدرها، أما عن (يوسف) فزادت ضحكته لأنه لم يكن يقصد لماذا تسعى وراء القاتل، بل يقصد أن يسألها ليفهم لماذا أخذت السيجارة وهي لم تدخن من قبل؟!، رغم أنه يعلم الإجابة التي لن تقولها، يعلم أنها أخذت السيجارة منه حتى تشعره أنهم مثل بعض وأنها تنتمي لمكان مثل هذا، أرادت أن تشعره أنها تستحق عناء الحديث معها حتى لا يمل منها، أرادت أن تقرب الود بينها وبين (يوسف) ولو قليلًا لأنه الوحيد الذي بدا عليه أنه لم يفقد عقله بعد بداخل الحانة. لقد

أرادت أن تكتسبه في صفها ويتعاملان كالأصدقاء، لربما يعلم شيئًا ما ويخبرها عما تبحث عنه، ولهذا السبب أخذت نفسًا من السيجارة، فلكسب الود بينهما يجب أن يتبادلا الاستنشاق من سيجارة واحدة، لكنها لم تجبه هذه الإجابة عندما أخبرها بمقصده الحقيقي، بل اكتفت بجملة "لقد أردت التجربة". قالتها، ثم بدأت في تحريك عينيها يمينًا ويسارًا في كل مكان بعيدًا عن (يوسف)، وهذا إن دل على شيء فهو لا يدل سوى على كذبها، فاللسان يكذب دائمًا أما العين تخشى وتخاف الكذب، وفي حال إذا كان الشخص كاذبًا فعينه تخشى أن تنظر إلى العين المكذوب عليها مباشرة، ففي حالة الكذب يتلاشى التواصل البصري بين العيون.

نفخ (يوسف) دخان سيجارته في وجهها مجددًا حتى تعيد النظر إليه، ثم تأملها وصمت قليلًا، حتى تكلمت هي سائلة بتعجب:

- ماذا!

- أرى بداخل روحك الشجاعة، في عينيكِ السذاجة والغباء، وعندما يجتمع الاثنان سويًا تكون النتيجة دائمًا مأساوية، فيمَ تفكرين؟!. هل تعتقدين أن إذا كان القاتل هنا ستصلين إليه؟!، بالطبع لا، بل ستتبدل عيناكِ بعيني كلب هاسكي يا.. ما اسمك؟!

- ميرنا.. اسمي ميرنا.

قالت له اسمها وهي لا تعلم بما تشعر، هل تشعر بالفخر تجاه نفسها لأنه وصفها بالشجاعة، أم تشعر بالخزي لأن تلك الشجاعة ظهرت بأعين بلهاء ساذجة، ولكن ظهر في عينيها شيء آخر وهو

الترجي، تنظر له وكأنها تترجاه أن يساعدها لتصل إلى القاتل حتى يرتاح قلبها، وقد لاحظ (يوسف) هذا الترجي بالفعل، ليخرج ورقة وقلمًا ويبدأ في كتابة شيء ما، وعندما انتهى من الكتابة أعطاها الورقة، لتقرأها (ميرنا) وترى أنها عنوان لمكان ما ورقم هاتف، ولكنها لاحظت شيئًا مريبًا وغريبًا وهو يعطيها الورقة، وذلك الشيء هو أنه يرتدي رابطة شعر على شكل فراشة في أصبعه كالخاتم، لم تبالِ كثيرًا بل ظلت تتأمل الورقة، وعندما انتهت من القراءة نظرت إلى (يوسف) الذي لم تفارق عينه ملامح (ميرنا) وهي تقرأ، قبل أن يقول لها: "إنه وقت العمل، لا مجال للحديث هنا، سأنتظركِ في منزلي في تمام الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، والآن عليكِ العودة إلى منزلك". ابتسمت له وأومأت برأسها، لكنها أرادت أن تكسب الود بينهما أكثر حتى بعدما أمرها أن ترحل وتعود إلى منزلها، فضحكت وقالت بمزاح: "لماذا ترتدي رابطة شعر في إصبعك؟! هل هي تخص العاهرة مريم؟!".

نظر (يوسف) إلى أصبعه، قبل أن يلتفت لها ويقول بهدوء: "تلك الرابطة أرتديها منذ الطفولة، ولقد وعدت نفسي أنني لن أهديها إلا لأجمل أنثى تراها عيني" حينها خلع (يوسف) رابطة الشعر من إصبعه وأهداها لـ(ميرنا) قائلًا: "إنها لا تخص مريم، بل تخصكِ أنتِ". ابتسم في وجهها، ثم قال لها: " الآن عليكِ العودة إلى منزلك". ابتلعت (ميرنا) لعابها خجلًا بعدما أهداها رابطة الشعر، واحمر وجهها لأنه للمرة الثانية يخبرها أن تعود إلى منزلها، ولكنها أرادت أن تظهر عكس ذلك، فابتسمت وأومأت برأسها إشارة منها على الموافقة، قبل

أن تخرج من الحانة. وعندما خرجت من الحانة وجدت تلك المرأة التي كانت تتحدث مع صديقتها بالداخل عن الرجل ذي العضلات وأنه لم يمارس معها الجنس سوى دقيقتين، لقد كانت المرأة تشير لـ(ميرنا) بإصبعها لتقترب منها، فاقتربت (ميرنا) منها، لتبدأ المرأة تلتف حولها وتحدق بعينيها بتأمل شديد، ثم قالت لـ (ميرنا) بلهجة بها حيرة: "أنتِ كنتِ مع يوسف بالداخل أليس كذلك؟!، لكن كيف؟!".

تعجبت (ميرنا) من كلامها فسألتها: "كيف ماذا؟!". لتجيبها المرأة مسرعة "كيف كان ينظر إلى عينيكِ، ألم يخف منهما؟!". صمتت المرأة، ثم أكملت حديثها قائلة بسخرية: "لا يهم، اللعنة عليكِ أنتِ ويوسف". قالتها، ثم نفخت دخان سيجارتها في وجه (ميرنا) ورحلت، لتستاء (ميرنا) مما حدث سائلة نفسها: "ماذا تقصد؟! هل مظهر عيوني مخيف؟! هل كانت تلك المرأة تهينني؟! ولماذا الجميع هنا ينفخ دخان سجائره في وجهي!!".

وبينما تتساءل استمعت لصوت بجوارها يقول بحسرة وتعاسة: "أحببت عاهرة". التفتت ميرنا للصوت، فوجدت ذلك الشخص المجنون بالعاهرة (مريم) يجلس على الأرض وحالته لم تتغير، فما زال يشعر بالأسى والألم، لكنها لم تبالِ، بل ذهبت في طريقها عائدة إلى منزلها حتى تترك هذا المكان العبثي، ثم راحت تفكر وتسأل نفسها وهي في طريقها للعودة: "هل أثق بيوسف وأذهب لمنزله مثلما قال لي أم لا أذهب؟!".

الفصل الثالث

الثلاثي داون

تقف (ميرنا) أمام منزل (يوسف) في تمام الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، وهو منزل مكون من طابق واحد في منطقة لا تعج بالكثير من السكان، فبين كل منزل والآخر مسافة قد تصل إلى خمسين مترًا أو أكثر. لقد فكرت (ميرنا) كثيرًا من أجل اتخاذ هذا القرار، فالقرار هو القرار الأصعب الذي واجهته الفتاة في حياتها، فما كان يجب أن تفعل؟! هل تذهب إلى منزل رجل لا تعلم أي شيء عنه سوى اسمه، هل تثق به؟!، لقد بدا أمامها أنه ليس بقاتل مثلًا أو متحرش وذلك ما أشعرها بالطمأنينة ولو قليلًا، ولكن (ميرنا) تعلم تمامًا أن ليس كل ما يلمع ذهبًا، فالنار تلمع إذا وجدت بين الظلام، وإذا كان المرء سجينًا للظلام لفترة كافية لجعله ينسى معنى النور، سيرقد تجاه النار التي يلمع بريقها من بعيد اعتقادًا منه أن ذلك النور الصادر عن النيران هو النجدة الوحيدة، وعندما يقترب بالقدر الكافي من النار سيموت حرقًا، فهل عندما تطرق على باب المنزل ستتعلق النيران بملابسها وتحترق؟! أم سيكون هذا نورًا حقيقيًا؟!

اقتربت يد (ميرنا) من الباب ببطء، فلا بد أنها قد اتخذت القرار، وأنها على وشك أن تصبح ضيفة لـ(يوسف) في منزله، كانت يدها ترتعش، وكلما اقتربت من الباب كلما زادت رعشة يدها أكثر وكأنها على وشك أن تلمس عمود كهرباء، ولكن عندما اقتربت يدها من الباب بدرجة كبيرة وأصبح الفارق بين أصابعها والخشب بعض

السنتيمترات عادت للخلف، فلا بد أنها قد تراجعت عن قرارها في آخر لحظة. لم تتراجع الكثير، بل تراجعت عدة خطوات قليلة للخلف، قبل أن تنظر للباب بنظرة يائسة متشككة، لتدور بعدها بمئة وثمانين درجة، ثم تبدأ في التحرك بعيدًا لتعود من حيث أتت. لم تتعدَ خطوات قليلة في طريقها للعودة حتى سمعت صوت الباب خلفها يُفتح ببطء، فوقفت مكانها في خوف وارتجف جسدها بالكامل، ودب الرعب في أوصالها وراحت أنفاسها تتسارع عن المعدل الطبيعي، ثم بدأ العرق يتساقط من جبينها، بل وزاد الأمر رعبًا لها عندما استمعت لصوت (يوسف) خلفها وهو يقول: "إلى أين أنتِ ذاهبة يا ميرنا".

في تلك اللحظة اتسعت عيناها عن آخرهما بندم وصدمة، ربما لأنها علمت أنها في مأزق الآن ولا مجال للعودة، فهي أتت إلى هذا المكان ويجب أن تواجه شيئًا آخر وجديدًا في رحلة البحث عن قاتل أمها بداخل منزل (يوسف). التفتت له، قبل أن تلقي عليه التحية بوجه مصفر خوفًا وتقول: "أهلًا يا يوسف، لا شيء، لقد كنت فقط أستكشف المكان". ابتسم يوسف ابتسامة هادئة وأجابها: "كاذبة".

ابتلعت (ميرنا) لعابها خجلًا، قبل أن تبحث عن حُجة ثانية لتلقيها عليه، فظلت تتلعثم بالكلام حتى وجدت الحُجة وقالت: "لقد كنت ذاهبة لشراء هدية لك". اتسعت ابتسامة (يوسف)، قبل أن يلقي عليها بسؤال لم تكن (ميرنا) مستعدة لأجله قائلًا: "هدية؟! مثل ماذا؟!". عادت (ميرنا) إلى توترها وقلقها، فظلت تفكر، لكنها لم تحرك عينيها يمينًا أو يسارًا بل ظلت تنظر إلى (يوسف) في عينه حتى لا

يشك أنها كاذبة، وعندما أتت لها الفكرة قالت بحماس وهي رافعة أصبعها السبابة ومبتسمة "علبة سجائر!!". اتسعت ابتسامة (يوسف) أكثر حينها، قبل أن يقول لها: "كاذبة".

ملّت (ميرنا) من الكذب، فنطقت بالحقيقة أخيرًا، حيث قالت وهي تنظر إلى الأرض بيأس: "لقد خفت، كنت عائدة إلى المنزل". أجابها (يوسف) بنفس النبرة الهادئة والابتسامة قائلًا: "لمَ الخوف؟!، لا تقلقي، أنا لست القاتل الذي تبحثين عنه". ابتسمت (ميرنا) ابتسامة بها سخرية من كلمات (يوسف) قبل أن تتحدث بنبرة واثقة بها القليل من الغضب وتقول: "إذا كنت القاتل لن أتحدث معك، بل سأقتلع عينيك على الفور".

ضحك (يوسف) من كلماتها، قبل أن يعطي لها ظهره ويقول بنفس النبرة الهادئة تلك: "لا تخافي من مواجهة قاتل، ومنذ دقائق قليلة كنتِ خائفة من أن تطرقي على باب منزلي!، هل تعلمين ماذا يعني ذلك؟". قال جملته، ثم دخل منزله، أما عن (ميرنا) فصارت تتحدث من الخارج بصوت مرتفع حتى يسمعها، فقالت: "ماذا يعني؟". لم يجبها، فكررت سؤالها بصوت أعلى: "ماذا يعني يا يوسف؟". استمعت لصوت ضحكاته من الداخل، قبل أن ينطق بما تريد أن تسمع ويقول بصوت رغم ارتفاعه إلا أنه ما زال محافظًا على هدوئه "هذا يعني أنكِ كاذبة يا عزيزتي". ثارت (ميرنا) غضبًا بخارج المنزل بسبب ألاعيب (يوسف)، بل وشعرت أنه يفعل كل هذا فقط ليقلل من شأنها، فدخلت خلفه المنزل لتبحث عنه، وعندما دخلت لم تجده، بل وجدت أنها في صالة منزل واسعة للغاية لون حوائطها هو اللون

الأسود فقط، وتلك الصالة لم يكن يتواجد بها سوى أريكة طويلة على الجانب الأيمن ومصنوعة من الجلد ذا اللون الأسود أيضًا، ومن حولها العديد من الكراسي بنفس اللون الأسود وبنفس الجلد.

لم يكن هذا كل شيء، فلقد كان معلقًا على الحائط أمام تلك الأريكة تلفازٌ كبير، وعلى جانبي التلفاز هنالك العديد من اللوحات التي قد تبدو أنها مرسومة بواسطة رسام بارع ومُبدع في عمله، فلقد علمت (ميرنا) أن (يوسف) فنانًا ويحب الرسم مثلها، وذلك بفضل الكرسي الخشبي في منتصف الصالة والذي يوجد أمامه طاولة صغيرة بها ريشة والعديد من الألوان ولوحة بيضاء لم يرسم عليها أي شيء حتى الآن، وهذا ما تفعله (ميرنا) بالضبط في منزلها. أما عن اللوحات المعلقة حول التلفاز فهي غريبة بعض الشيء، فمن رسم تلك اللوحات ليس بشخص عادي بل شخص بشع ودموي، ففي الرسمة الأولى يوجد بها شخص ملقى على طاولة حديدية ومُقيد بالعديد من السلاسل من أقدامه وأذرعه، وحوله ثلاثة من مصابي متلازمة داون، منهم من يمسك بسكين، ومنهم من يمسك بساطور، وثالثهم يحمل منشارًا، بينما خلفهم رجل أصلع الرأس ولا يوجد أي شعرة في وجهه، يرتدي جلبابًا طويلًا لونه أصفر، وتميل بشرته للون الأصفر كذلك، نحيفًا جدًا لدرجة أن عظامه بارزة من خلال جلده، وأما الشيء المميز به فهو فمه المُخيط، كما لو كان من رسم هذه اللوحة أراد أن يوحي بها أنه أبكم لا يتحدث، وقد بدا على وجهه الغضب العارم القاتل وكأنه على وشك أن يرتكب جريمة، فملامحه مريبة وذلك على عكس المرأة المتواجدة في اللوحة بجواره. فهنالك

في الرسمة امرأة بجانب الرجل مُخيط الفم وهي التي ترتدي عباءة بيضاء مشققة، ويوجد من خلال تلك الشقوق في عباءتها العديد من الجروح الحديثة منها والقديمة، كانت مُقيدة بسلاسل وجالسة على الأرض، بينما توجد لاصقة على فمها حتى لا يمكنها التحدث، وقد ظهر على وجهها أشد علامات الفزع والرعب. وإذا أتى الحديث عن الثلاثة المصابين بمتلازمة داون في الصورة، فلقد كانوا يقطعون من جسد ذلك الرجل الملقى أمامهم على الطاولة، حتى سالت الدماء على الطاولة وبدأت في أن تتساقط على الأرض التي تتمتع بلون بلاط أبيض لامع بإمكانه أن يعكس صورة الوجه إذا نظر أحد إليه، فلقد وضح على من رسم تلك اللوحة أنه عبقري، لأنه استطاع أن يبرز ملامح الهلع والذعر والألم والعذاب على وجه الضحية بأروع وأبشع طريقة ممكنة.

أما عن الرسمة الثانية، فُوجد بها الثلاثة المصابون بمتلازمة داون وهم سعداء، وخلفهم نفس الرجل الأصلع مُخيط الفم والمرأة ذي العباءة البيضاء بمظاهرهم وتعبيراتهم ذاتها التي كانت في الرسمة الأولى، ولقد كانوا الثلاثة المصابين بمتلازمة داون يقفون أمام إناء عملاق مصنوع من الفخار موضوعًا على نار مشتعلة بالفحم، وأحدهم يمسك في يده رأس ذلك الإنسان الذي قُطع إربابًا في الصورة السابقة.

أما عن الرسمة الثالثة فهي عبارة عن هؤلاء الثلاثة المصابون بمتلازمة داون وهم يقفون بجانب بعضهم البعض ويبتسمون كما لو أن قلوبهم تملأها البهجة والسرور، وقد ظهر عليهم أنهم لربما يكونوا

شبابًا يافعين، ربما في عمر السابعة عشر أو ما شابه، واثنين منهم هن فتيات وأحدهم فتى، لكن لا يوجد فارق على أية حال، ففي كل اللوحات جميعهم يرتدون نفس الملابس تقريبًا باختلاف الألوان، حيث أنهم يرتدون فساتين قصيرة كفستان الدمية (باربي)، فالفتاة الطويلة منهم ترتدي الفستان الأبيض، والقصيرة ترتدي فستانًا وردي اللون، أما عن الولد ففستانه يمتاز باللون الأسود.

كل تلك الرسومات لم تسبب الرهبة لـ(ميرنا) مثلما فعلت الرسمة الرابعة والأخيرة، رغم أنها لم تكن مرعبة مثل باقي الرسومات، بل كانت مجرد لوحة لكلب هاسكي، ولا يظهر سوى وجه الكلب في اللوحة كما لو أنه يلتقط صورة على طريقة السيلفي مثلما يفعل البشر، بينما عيناه الزرقاوان يلمعان بشدة كما تلمع النجوم في سماء الليل، وكانت تلك اللوحة متواجدة أعلى التلفاز بالضبط على عكس باقي رسومات (يوسف) المتواجدة حول التلفاز يمينًا ويسارًا.

ظلت (ميرنا) تتأمل تلك اللوحات في دهشة ورهبة وخوف على حدٍ سواء، فلقد أصبح الأمر مريبًا ومروعًا بالنسبة لها، والشيء الأكثر رعبًا هو أنها لا تعلم أين (يوسف)، لذلك تربصت الممر الطويل المتواجد في آخر الصالة بعينين حذرتين، هذا الممر لا يوجد به سوى بابين مغلقين والذي على الأرجح أن يكون (يوسف) بداخل باب منهما، أحد تلك الأبواب على الجانب الأيمن من الممر في منتصفه، والباب الآخر في آخر الممر أمام مرمى بصر (ميرنا) مباشرة.

بدأت (ميرنا) في النداء بصوت ليس بمرتفع وليس بمنخفض، بل صوت حذر وقالت "يوسف، أين أنت؟!" لم يجب، لكنها استمعت

إلى صوت مياه تتساقط من صنبور ما بداخل ذلك الباب المتواجد على الجانب الأيمن في منتصف الممر، فعلمت أنه باب الحمام وأن (يوسف) كان يقضي حاجته وسيخرج الآن لمقابلتها، فخافت وارتعدت فرائصها وراحت تأخذ أنفاسًا متسارعة، قبل أن تجد الباب يفُتح، ليخرج (يوسف) منه وعلى وجهه نظرة بها أسف قائلًا لـ(ميرنا) وهو يقترب منها: "آسف، لقد تأخرت عليكِ".

أخذت (ميرنا) بعض الخطوات البطيئة للخلف خوفًا من (يوسف)، حتى لاحظ (يوسف) رهبتها منه، فثبت مكانه بجانب الكرسي المتواجد أمام الطاولة الموضوع عليها اللوحة البيضاء والريشة والألوان، ثم قال: "لا تقلقي، لن أقترب أكثر، اجلسي من فضلك!". قالها بصوته الهادئ كعادته، وبوجه لا ينظر إلى عينيها مباشرة بل راح يتفحص جسدها بالكامل من الأسفل للأعلى ليلاحظ ارتيابها، ومن ثم يلاحظ تلك الرعشة في جسدها وهي تتلاشى تدريجيًا فيتأكد أنها لم تعد خائفة، لكن الرعشة ظلت متواجدة حتى وهي تقترب ناحية الأريكة لتجلس مثلما طلب منها (يوسف)، وعندما جلست ضمت فخذيها إلى بعضهما البعض، ووضعت حقيبتها عليهما، وذلك إن دل على شيء فهو يدل على أنها لا تشعر بالأمان في هذا المكان أو مع هذا الإنسان.

جلس (يوسف) على الكرسي أمام اللوحة وأمسك بريشته، ثم طلب منها أن تنظر له، لكنها ليست بعينين ثابتتين، فاستمرت عيناها تتحرك في كل زاوية في الصالة، تنظر إلى (يوسف) وعندما ينظر لها تلتفت بعيدًا لتنظر إلى اللوحات وتتأملها مجددًا، ومن ثم تعيد النظر

إلى (يوسف) الذي بات يلاحظ توترها وقلقها بشكل أوضح، لتجده مستمرًا في النظر إليها فتحرك أنظارها بعيدًا مسرعة في خوف، حتى ملّ (يوسف) مما تفعل وقال بلهجة بها لغة أمر: "انظري لي".

أغلقت عينيها التي كانت متجهة إلى التلفاز، ثم تنفست ببطء وانتظام لتقلل من حدة توترها، لتفتح عينيها وتوجههم إلى (يوسف) الذي رأته يرسم على اللوحة البيضاء أمامه، لتسأله بلسان متلعثم ومتشكك: "هل أنت من رسم هذه اللوحات؟!". ليجيبها (يوسف) وهو يرسم دون أن ينظر لها: "نعم، أنا من رسمهم، لا تتحركي، أريدك ثابتة". ابتسمت (ميرنا) لتقنع نفسها أنها ليست قلقة، ثم سألته: "هل ترسمني؟!".

أجابها (يوسف) بنفس الطريقة: "نعم!!". اتسعت ابتسامتها أكثر، قبل أن تلقي عليه سؤالًا آخر وهو: "ما الغرض من الرسومات على الحائط، ماذا تقصد بها؟". أخذ (يوسف) نفسًا عميقًا، فصمت قليلًا وكأنه يفكر في إجابة، قبل أن يحرك رأسه إلى الخلف قليلًا حيث أصبحت عينه تنظر إلى السقف، ثم قال: "التطهير".

تعجبت (ميرنا) مما قاله، فهي لم تفهم ماذا قصد بالتطهير، فاعتقدت أنه يتلاعب بالكلمات معها مجددًا ويريدها أن تسأله عدة تساؤلات ليسخر منها ويتهمها بالغباء والسذاجة، لذلك صمتت لعدة دقائق، قبل أن تلقي عليه بسؤال آخر بلسان متلعثم ووجه مرتعب: "لماذا رسمت كلب هاسكي؟!". أجابها (يوسف) بسخرية لأنه علم ماذا تقصد عندما حددت نوع أو فصيلة الكلب فقال: "كان من الممكن أن تقولي لماذا رسمت كلبًا دون أن تتفوهي بكلمة هاسكي، لكن سأخبركِ

السبب، ذلك الكلب كان صديقي ونوعه هاسكي كما في الصورة، وقد أنقذ حياتي في يوم كنت فيه على وشك الموت، لذلك رسمته وعلقت صورته، لا تقلقي أنا لست القاتل". بدأت تشعر بالارتياح والأمان قليلًا بعدما ألقى عليها بكلماته، خاصة أنها جالسة معه منذ دقائق ولم يحدث شيء سوى حوار بينهما، لأجل ذلك أرادت أن يستمر الحديث، فضحكت وهي تقول بسخرية: "للوهلة الأولى التي رأيت بها الصور اعتقدت أنك من آكلي لحوم البشر!!".

ضحك (يوسف) من كلماتها، قبل أن يجيبها بلسان ساخر ووجه يحاول به تمثيل دور الخطورة والشراسة، وجه يحاول أن يمثل به دور أنه مجرم ما: "لم تخطئي، أنا من آكلي لحوم بشر". زادت سخرية (ميرنا) التي علمت أنه يمزح فسألته وهي تضحك على مظهر وجهه: "وهل تستمتع بأكل لحوم البشر؟!". أجابها بهدوء ووجهه جاد للغاية: "لا، بل أستمتع بأكل خطاياهم". احمر وجه (ميرنا)، وذلك لأنها بحاجة للضحك بشدة لكنها حاولت أن تحبس ضحكاتها، قبل أن تبدأ في التصفيق لـ(يوسف) على أدائه في التمثيل، وبينما تصفق انفجرت ضحكًا حتى كادت أن تختنق، فرد (يوسف) على ضحكها بانفجاره ضحكًا هو أيضًا، قبل أن تنهض (ميرنا) من مكانها وتقترب من (يوسف) لتصافحه وكأنهم أصدقاء منذ الطفولة، لكن عندما صافحته لاحظت أنه كان جالسًا طوال هذه الفترة ليرسم عينيها الزرقاوين الجميلتين، وهذه أول مرة يحدث لها شيء من هذا القبيل، أن يرسمها أحدًا، بل ويرسم عيونها ويخرجها بنفس تفاصيلها وبهذا الجمال، فلقد اعتقدت في البداية أنه قال لها أنه يرسمها على

سبيل المزاح فقط، وهذا ما جعل شفتيها تتسعان بابتسامة ملائكية جميلة ظهرت على وجهها رغمًا عنها، مع دمعتين سقطتا من عينيها، كالدموع الساقطة من العينين في الرسمة تمامًا، ولكنها رغم فرحتها خطر في بالها سؤال واحد، فسألته دون خجل: "لما رسمت عيني تبكي؟!" أجابها وهو يتأمل فرحتها: "لأن هذا ما رأيته". ثم أمسك بيدها وربت عليها، قبل أن يعطيها اللوحة ويقول لها: "إنها هدية، تذكري، لقد أهديتكِ مرتين". بابتسامة شكر مزينة بالقليل من الخجل أخبرته "شكرًا لك" قبل العودة إلى مكانها لتجلس على الأريكة، ليقود (يوسف) الحديث ويسألها:

- هل كانت عيون أمك زرقاء مثلك؟!

- نعم!

قالتها بلهجة حزينة ودموع على وشك أن تتساقط، فعقلها رسم صورة أمها بمجرد أن سألها السؤال، وتذكرت تلك النظرات الحنونة التي كانت تتمتع بها يوميًا من عينين لونهما أزرق، لكنها بينما تتذكر أمها سألته:

- لماذا تسأل؟!

- لا شيء.

هذا كان رده عليها، قبل أن يصمت قليلًا ويعيد رأسه للخلف، ثم قال فجأة: "ما هو أول شيء فكرتِ به للوصول إلى القاتل؟". تنهدت (ميرنا) وأغلقت عينيها، ثم أجابته بحسرة:

- لا أعلم، أنا فقط أبحث.

- تبحثين عن من؟!

- القاتل الذي يقتل النساء!!

هذا ما قالته وهي تنظر لـ(يوسف) باستعجاب، لكنها تعلم تمامًا أنه يريد أن يقول شيئًا مهمًا، لذلك أرادها أن تقول ما يعلمه تمامًا حتى يكمل حديثه، وبالفعل أصابت التوقع، حيث نهض من مكانه وبدأ يتحرك في جميع أرجاء الصالة كما لو أنه مدرس يشرح لطالبته ويقول: "أخبريني، كيف ستصلين له؟!". قالها، ثم وضع إصبعه على ذقنه منتظرًا منها إجابة لكنها لم تجبه، بل ظلت تفكر، قبل أن يشير لها بإصبعه السبابة ويقود الحديث مرة أخرى قائلًا: "إذا أردتِ أن تصلي له عليكِ معرفة كيف يفكر، كيف يعمل عقله، ولماذا يقتلهم؟!".

عقدت (ميرنا) حاجبيها بغيظ، ثم قالت بصوت مرتفع: "إنه يكره النساء". أجابها (يوسف) بهدوئه: "إذن فعلينًا مراقبة جميع النساء حتى نستطيع الوصول إليه".

شعرت (ميرنا) أنه يريد أن يُحبطها، أو أنه يريد إخبارها بطريقة غير مباشرة أن لا مجال للوصول إلى القاتل، وقد لاحظ (يوسف) نظرات الإحباط في عينيها بالفعل، ليكمل حديثه ويقول: "لقد نظرتِ للأمر بطريقة سطحية يا ميرنا، تعتقدين أن الأمر يتمحور بالكامل حول كرهه للنساء لكني لا أعتقد هذا، قد يفكر القاتل بطريقة غير مماثلة لكِ على الإطلاق، سأعطيكِ مثالًا، ربما يكون يقتلهم لأنهم يرتدون حمالات صدر بمقاس معين يكرهه". قالها، ثم ضحك

بعدها وهو يشاهد ملامح (ميرنا) التي شعرت بالخجل من تعبيراته الجنسية الواضحة، قبل أن يتوقف عن الضحك ويقول: " أنا آسف، ولكن لن ينتبه المرء لقوة التعبير إلا إذا كان خادش للحياء، أردت إخبارك أن سبب قتله لهم قد لا يخطر على بالك أبدًا مهما حدث، وهذه هي أول مهمة للبحث عنه، إذا أردتِ معرفة القاتل فيجب عليكِ البحث وراء المقتولين".

ربما كلامه يحمل الكثير من المنطقية بالنسبة لها، إلا أنها ظهر على وجهها أشد علامات التشتت، علامات تدل على أنها لا تعلم كيف؟!، لتقول له بترجٍ: "وهل ستساعدني؟!". عادت ابتسامته الهادئة مرة أخرى، فنظر لها بعين ثاقبة وقال: "سأجلب لكِ القاتل بنفسي دون بذل أي مجهود منكِ، ولكن هنالك شرط وحيد، وهو أن تأتي لي غدًا لنتناول العشاء سويًا في تمام الساعة الثالثة بعد منتصف الليل". أومأت برأسها موافقة، قبل أن تتذكر موضوع أكل لحوم البشر، فتُرسم الضحكة على وجهها قائلة له بسخرية: "أسنأكل لحمًا بشريًا؟!".

اقترب منها، ثم همس في أذنها قائلًا: "نعم.. ولن أجلب لكِ القاتل إلا عندما تأكلين معي وجبتين من اللحم البشري في يومين مختلفين، حينها سأحررك من عناء البحث وسأبحث أنا بنفسي، بل سأجعله يقف أمامك لتمارسي على جسده كل ما تريدين من فنون الانتقام، وربما يكون وجبتك اللذيذة الثالثة، يمكنكِ تقطيعه إربابًا ولن أبالي، والآن عليكِ العودة إلى منزلك، لأني بحاجة إلى النوم". رفعت حاجبيها خجلًا بسبب اعتقادها أنه يطردها من منزله بطريقة

مهذبة مثلما فعل في الحانة، فحملت حقيبتها وودعته بابتسامة، ثم خرجت من المنزل عائدة إلى منزلها. وعندما عادت إلى منزلها، دخلت غرفتها وألقت بجسدها على السرير ليخطفها النوم إلى عالم الأحلام.

الفصل الرابع

قاتل الماما

«رأيت.. رأيت طفلة بدون عينيها، وبرأسها ثقب كبير من الخلف وكأنه أثر لرصاصة اخترقت جمجمتها، تقف في منتصف غرفة مُظلمة فارغة لا يوجد بها سوى باب مفتوحًا عن آخره، وسلاسل ملطخة بالدماء، وبعض من أداوت التشريح ملقاة على الأرض. ربما تكون هذه الغرفة خاصة بدكتور أو شيء من هذا القبيل، أو ربما خاصة بمُعذِب يتلذذ بعذاب الآخرين! كانت الطفلة ترتدي عباءة بيضاء طويلة، شعرها أسود وطويل يصل إلى نصف ظهرها، استمعت لصوتها وهي تصرخ وتنادي على أمها التي ظهرت فجأة في نفس الغرفة، بل وترتدي نفس الملابس مثل ابنتها وعينيها غير متواجدتين، لكنها ليست مصابة برصاصة في رأسها كما هو حال الطفلة. راحت الأم تتحرك وتتبع صوت ابتنها، واضعة يدها أمامها بطريقة مستقيمة وكأنها تريد أن تتحسس كل شيء حتى لا تُصدم بشيء كما يفعل المكفوفون، أعلم مَن هذه الطفلة، وأعلم أمها كذلك، فهم أشهر ضحايا السفاح الذي قتل أمي، لقد رأيت صورهما في الجرائد من قبل. لم يكن في المكان صوت سوى صراخهما، زيادة على ذلك صوت عواء لكلبين قادمًا من خارج الباب، كلب منهم يبدو من نبرته أنه مجرد جرو صغير، أما عواء الكلب الآخر مروع ومُهيب.

تحركت تجاه الطفلة في محاولة مني أن أرشدها الطريق لتصل إلى أمها، فأمسكتها من يدها التي بدت وكأنها يد لطفلة ميتة، فيدها

تميل للون الأزرق وباردة كما لو كانت موضوعة في ثلاجة للحفاظ عليها من التعفن، لكني لم أبالِ وسحبتها من يدها تجاه أمها التي تعاني بحثًا عنها، وقبل أن أصل للأم أمسكت الطفلة بثيابي بقوة ليست مثل قوة الأطفال إطلاقًا، نظرت لها بجفن مرتعش، لأرى وجهها قد تحول لونه كلون يدها بالضبط، حيث اللون الذي يميل إلى اللون الأزرق، بل وأصبح لديها عيون، ولكن عيون كلب هاسكي، ثم قالت لي وكأنها تشتكي مما حدث لها: "أخذ عيني!!".

أزحت يدها بصدمة وعدت إلى الخلف مسرعة، لأصطدم بوالدتها التي ما زالت تعاني بحثًا عنها وتقول بنبرة خائفة: "أين ابنتي؟!". فالتفت لها ورأيتها بنفس المظهر الذي رأيت به ابنتها، لقد أصبحت بعيني كلب هاسكي جاحظتين، وجسدها بالكامل لونه يميل إلى اللون الأزرق، وزيادة على ذلك فإن عيني كلب الهاسكي الموضوعتين بدلًا من عينيها تنزفان الدماء، ولكن ليست كأي دماء، بل دماء لونها أسود.

أمسكتني المرأة من ثيابي، ونظرت في عيني مباشرة قائلة بلهجة يظهر عليها الحزن: "لقد أخذ عيني، عليكِ الهروب قبل أن تتبدل عيناكِ بعيون كلب هاسكي، فما زال لديه الكثير من الكلاب". ارتعش جسدي وفزع قلبي فعدت إلى الخلف، لأجد أن أصوات عواء الكلبين أصبحت قريبة للغاية، بل وبات عوائهما كما لو أنهما يستعدان للهجوم، بخاصة الكلب الذي يبدو من عوائه أنه كلب كبير، ليس كعواء الكلب المرافق إليه الذي لم أقلق منه على الإطلاق بسبب أن صوته ليس بذلك الصوت المخيف.

هدأوا أخيرًا، وحين اكتسح الهدوء المكان رأيت نورًا قادمًا من خلال الباب، ثم ظهر ظلٌ من خلال هذا النور لرجل يبدو طويلًا للغاية، وأمام ظل الرجل ظلين آخرين لكلبين، كلب منهم بدا من ظله أنه ضخم، عكس الكلب الآخر الذي بدا أن حجمه ليس بذلك الحجم الكبير. شعرت بهم يقتربون، فاستمعت لأصوات خطوات الكلاب السريعة العشوائية التي تصير أعلى وأوضح بالتدريج كلما اقتربوا، زيادة على ذلك فهنالك صوت آخر خارج من حذاء الرجل خلفهم، وهذا الصوت قوي كفاية ليظهر وسط عواء الكلاب الذي عاد مجددًا.

تسارعت نبضات قلبي، فالتفتُ لوهلة للطفلة وأمها اللتين كانتا منحنيتين على الأرض بينما تضم الأم ابنتها التي راحت ملامح البهجة والسعادة تظهر عليها كلما ارتفعت أصوات الكلاب كما لو أن عوائهم لا يخيفها بل يفرحها. تضاعف تعجبي مما أشاهد، فأعدت أنظاري إلى الباب، لأجد كلبي هاسكي واقفين بجواره، لقد ظهروا أخيرًا أمامي، حيث أن أحدهم كان جروًا صغيرًا بلا عينيه، رأسه تجاهي وكأنه ينظر لي، والآخر كبير بلا عينيه كذلك، ورأسه تجاهي أيضًا ولكنه ظهر غاضبًا بأسنانه الحادة التي يضغط عليها بقوة كما لو أنه يريد أن يأكلني، ولقد كانت الدماء تسيل من مكان عيونهم غير المتواجدة بغزارة، حتى بدأت أسمع قطرات دمائهم الساقطة على الأرض كسقوط الأمطار حين تهطل السماء بمائها.

أما عن المصائب فلا تأتي فرادى، فلم يكن الكلبان فقط هما من في المشهد، فرأيت خلفهما طيفًا أو شبحًا كالدخان الأسود، لديه عينان حمراوان يخرج منهما نور أحمر مُشعًا كالنار، طويلًا للغاية

حيث يصل طوله إلى مترين تقريبًا، يرتدي بذلة سوداء وحذاء أسود، فاردًا يديه الاثنتين الطويلتين أمامه لكي يعرض لي ما يمسك، حيث يمسك في يده اليمنى عينين زرقاوين، وفي يده اليسرى عينين زرقاوين كذلك، وبالرغم من أن هذا الطيف له قدمان إلا أنه كان طائرًا، فأقدامه لم تكن متلامسة مع الأرض. حاولت أن أقترب من الطيف لكن خوفي من الكلاب منعني، فانتظرت حتى يتحركوا بعيدًا لأذهب إليه، وهذا ما حدث، فبدأت الكلاب تتحرك نحوي ببطء شديد للغاية حتى وصلوا لي، وقتها بدأت أتحرك بحركة دائرية حولهم حتى لا يهجموا، فظلت رؤوسهم تتبعني أينما ذهبت، قبل أن تنادي الطفلة خلفي على كلب منهم قائلة بنبرة مبتهجة "تعالى". اقترب منها الكلب وبدأ يلعب معها، فنظرت لي الطفلة بعيون كلب الهاسكي الموضوعة بدلًا من عينيها قائلة بابتسامة عريضة "إنه صديقي، عيناه مكان عيني". قبل أن يقترب الكلب الكبير كذلك ناحية الأم، لتبدأ الأم في مداعبته، ثم التفتت لي قائلة بتحذير وأمر "اهربي بعينيكِ".

أنصت لكلامها، فالتفت للباب، فتفاجأت أن الطيف لم يعد له وجود، فأخذت أتحرك لأعبر من خلال الباب للخروج من تلك الغرفة بخطوات حذرة شديدة البطء، وحين خرجت من الغرفة صُدمت، لأنني وجدت نفسي في مكان مقرف وبشع وما هو إلا سجن يستخدمه مختل علقيًا. فكان المكان عبارة عن ممر ضيق وطويل، معلقة الشموع في أعلاه لتنيره بنور النار، وفي آخر الممر يوجد باب من الحديد الصلب، وعلى يميني ثلاثة أقفاص مسجون بها

كلاب هاسكي بدون عيونهم، منهم قفص فارغ وهو القفص الثاني وأكبرهم حجمًا، فعلمت أنه قفص الكلبين اللذين رأيتهما، واللذين يمكثان ويلعبان مع الطفلة وأمها. أما عن ما وُجد على يساري فكان ثلاثة أقفاص أخرى موازية لأقفاص الكلاب، بها الكثير من الفتحات المربعة كبيرة الحجم كأقفاص السجون بالضبط، وتلك الأقفاص بها نساء جالسات أو نائمات على أَسِرّة، واللائي هن ضحايا السفاح الذي قتل أمي، كما كان يوجد قفصًا فارغًا منهم وهو القفص الثاني أيضًا، وهو أكبرهم حجمًا، والذي بالتأكيد قفص الأم وابنتها اللتين رأيتهما بداخل الغرفة.

تحركت ناحية القفص الأول، لأرى المرأة الأولى من ضحايا السفاح وهي مكبلة بالسلاسل من رقبتها، جالسة القرفصاء على السرير، واضعة رأسها بين ركبتيها، تبكي بحرقة شديدة، حيث كانت أكتافها تتحرك بعنف وترتجف، جسدها عارٍ ولا ترتدي غير قميص نوم شفاف لونه أبيض، ولون بشرتها أزرق كما هو حال الفتاة ووالدتها تمامًا. تأملتها لعدة ثوانٍ، حتى رفعت رأسها، فوجدت عينيها فارغتين، قبل أن تقول لي بنبرة بها تحذير شديد اللهجة "اهربي".

نبح الكلب في القفص الموازي لقفصها خلفي، فارتعدت أوصالي وأدرت له وجهي، فتحول نباحه إلى صوت حزين كما لو أنه يبكي ولكن بدون عيون، حيث أوحى لي صوته أنه كالطفل الذي يشتكي من شيء شنيع حدث له. لم يستمر الحال على ما هو عليه، فبعد القليل من الوقت عاد نباحه القوي مجددًا كما لو أنه خاف من شيء أو يحذرني من شيء، لأتفاجأ بعدها بثوانٍ أن يد المرأة الزرقاء

الباردة أمسكت ثيابي بشدة وسحبتني ناحية القفص، فالتفتُ لها مسرعة، لأجد أن عينيها الفارغتين تحولتا إلى عيني كلب هاسكي، ثم قالت لي بلهجة بها تعاسة: "هذه ليست عيني، لقد كنت أمتلك عينين مثل عينيكِ".

تركتني بعدما قالت تلك الجملة، ثم عادت إلى سريرها، لتجلس القرفصاء مرة أخرى، قبل أن تضع رأسها بين ركبتيها لتبكي مثلما كانت قبل أن تراني.

رغم أن الرُعب احتل كياني بسبب ما حدث، إلا أنني مررت بجانب القفص الثاني الذي رأيت به سريرين أحدهما صغير والآخر كبير، والسلاسل مفكوكة وملقاة على الأرض المزينة بنقاط الدماء في كل مكان. تجاهلته وبدأت أتحرك تجاه القفص الثالث بخطوات محسوبة وحذرة، فوجدتُ أمي أمامي، نائمة في السرير على جانبها الأيمن، مكبلة بالسلاسل من رقبتها أيضًا، ترتدي العباءة السوداء التي اعتادت أن ترتديها، لون بشرتها أزرق كلون بشرة الأموات، وكلون بشرة باقي البشر في هذا المكان، تنظر لي بعيون كلب الهاسكي الموضوعة بدلًا من عينيها، وتحركهما أينما تحركت بتربص شديد، بينما الكلب المسروقة منه عيناه المسجون في القفص الموازي لقفصها كان هادئًا للغاية ويحاول النوم، لكنه لم يستطع نتيجة للألم الذي يعانيه، فصوت أنينه قطع نياط قلبي، تمامًا كما فعل بي مشهد رؤيتي لقليلة الحيلة أمي. ثبث مكاني أتأملها، فأخذت أبكي بحرقة، قبل أن تخبرني وهي نائمة بلهجة الأم الخائفة على ابنتها: "اهربي يا ميرنا". زاد بكائي وقلت لها: " لا أستطيع، سأحيا مُعذبة دومًا إن لم

أنتقم لكِ".

نهضت من السرير واقتربت مني، ثم أخرجت يدها من خلال فتحة من فتحات القفص لتمسك بكتفي، ولقد كانت يدها لا تختلف كثيرًا عن أيدي الذين قبلها من حيث البرودة واللون الأزرق الشاحب، لكن بالرغم من هذا أحببت لمسة يدها، وأحببت أنها ربتت على كتفي قائلة بلهجة بها حب وتحذير في الوقت ذاته: "أنتِ في طريق لا عودة منه، لا أريد أن أخسركِ، لا أريد أن أراكِ متواجدة بداخل هذا القفص، اهربي يا ميرنا أرجوكِ". أفلتت يدها عن كتفي، لتضعها على خدي وتمسح دموعي، ثم أخذت تبكي من عيني كلب الهاسكي المزروعتين مكان عينيها قائلة بنفس اللهجة: "ألن تنفذي كلام الماما؟!". زاد بكائي، وكنتُ على وشك أن أُرضيها وأوافق، قبل أن يُفتح الباب الحديدي المتواجد في نهاية الممر، لأسمع حينها صوتًا خارجًا منه أعلمه جيدًا، وهو صوت يوسف، حيث كان يتحدث بنبرته الهادئة قائلًا: "ميرنا".

أدرت وجهي للباب الذي بدا كالمغناطيس بالنسبة لي، فكانت أقدامي على وشك الركض نحوه، قبل أن تمسك أمي بثيابي بقوة رهيبة، فأعدت أنظاري لها، لأجدها تحدق بي بعيون غاضبة، حيث إن عيني كلب الهاسكي أصبحتا جاحظتين، بل ولهجتها صارت بها لغة أمر واضحة حينما قالت لي: "لا تذهبي له!!". حاولت أن أفلت منها، خاصة عندما استمعت لصوت يوسف مجددًا وهو يقول لي بنبرته الواثقة: "ميرنا... لقد أعدتُ الطعام".

بدأت أمي في البكاء مجددًا، وراحت الدموع تتساقط من عيون

كلب الهاسكي الموضوعة مكان عينيها، ثم قالت بنغمة حزينة: "هل تريدين أن تتركي أمك؟، لا تتركيني يا ميرنا". انهرت في البكاء وقلت لها: "أنتِ من تركتني". لتجيبني بصمت تام وعيون متأملة وجهي في حسرة وتعاسة، ليرتجف بدني بعدها حزنًا على حسرتها، فوضعت رأسي على القفص الحديدي بقلب متوجع أهلكه ألم الفراق، فزاد بكائي أكثر وصار كبكاء الأطفال الرُضع، لتضع هي رأسها أيضًا على القفص بحيث تكون موازية لرأسي وكأنها تواسيني، ولكن بين رأسي ورأسها الحديد، كما لو أن الحديد هو الفاصل بين الدنيا والآخرة.

لم يستمر الأمر على ما هو عليه، لأن يوسف عاد يتكلم، حيث قال بنبرته المعتادة الهادئة والباردة: "تعالي يا ميرنا، لقد أمسكت بقاتل الماما". اتسعت عيني عن آخرها حين استمعت لما قال، ليرتعش صدري في سرور وحماس، ثم حاولت أن أترك أمي التي راحت تمسكني بقوة بينما تقول بترجٍ: "لا تذهبي". لكنني قاومت للذهاب، وكأن صوت يوسف سحرني، أو كأنه أغراني بما أريده حقًا وأشاؤه وهو الإمساك بالقاتل، فلا يوجد حل وسط، فوجب عليَّ أن أتخذ القرار، إما أن أترك الماما وأذهب لقاتلها، أو أظل معها وأتأملها وهي بداخل هذا القفص اللعين.

لم أفكر كثيرًا، فبالتأكيد وقع اختياري على الانتقام ممن فعل ذلك بأمي، وهذا ما جعلني أحاول جاهدة أن أتحرر من قبضة يدها، حيث أنني أمسكت بيدها الميتة الباردة بقوة في محاولة مني أن أزيحها، لكن اليد كانت أقوى من أن تكون يد أمي العجوز الضعيفة، فظلت متشبثة بي بقوة في محاولة منها أن تمنعني عن الحركة، بل وراحت

تصرخ في وجهي وتقول: "لا تتركيني". قاومت تشبثها بأقوى ما عندي حتى استطعت الإفلات منها، ثم تحركت ببطء ناحية الباب وأنا أنظر لها في حزن وكسرة، بينما هي تنظر لي بملامح بها عدم الرضا، وكأنها غاضبة مني، قبل أن تخبرني بيأس: "أحذركِ يا ابنتي، إنه طريق دون عودة، لا تخسري نفسك، أرجوكِ فكري في الأمر قبل أن تمري من خلال هذا الباب". حزنت أمي، فعادت إلى سريرها لتنام على جانبها الأيمن مجددًا، ثم راحت تحدق بي متربصة بعينين مخيفتين غاضبتين موضوعتين بدلًا من عينيها على أمل ألا أعبر من خلال الباب، لأجيبها على كلامها بحرقة لا مثيل لها قائلة: "أنا آسفة". لأستمع بعدها لصوت يوسف مجددًا وهو يقول: "لقد أمسكت بقاتل الماما يا ميرنا، هل تريدين أن تقتلعي عينيه؟!". أجبت يوسف بداخل نفسي قائلة بلهفة وعين بها لمعة: "نعم.. أريد أن أقتلع عينيه".

فودعت أمي في تلك اللحظة قائلة بهمٍّ يكفي العالم بأكمله: "أنا آسفة يا أمي، يجب أن أذهب". قبل أن يصفر وجهي نتيجة لما حدث بعدما نطقت بهذه الجملة. فقد أغلقت عينيها، ثم توقفت عن التنفس وأصبح جسدها ساكنًا تمامًا دون حركة، لتبدأ تلك المرأة المسجونة بداخل القفص الأول في العويل والصراخ وكأنها حزينة على ما أصاب أمي من سكون، لقد كان عويلها مرهقًا للأعصاب، حيث أن عويلها قد جعل الكلبين المسجونين في القفصين الموازيين لقفصها وقفص أمي ينبحان بقوة حتى كدت أفقد عقلي نتيجة للضوضاء، فوضعت يدي على أذني، ثم ألقيت بنظرة الوداع على أمي، لأتحرك بعدها نحو الباب الحديدي وأعبر من خلاله.

وحين عبرت الباب.. وجدت نفسي في ظلام تام، ظننت لوهلة أن العمى قد أصابني، قبل أن تأتي أنوار ضئيلة للغاية فجأة، وهي عبارة عن أنوار خارجة من حواف اللوحات الوحشية الشيطانية للثلاثة المصابيين بمتلازمة داون المعلقة على الحائط حول التلفاز في صالة منزل يوسف، إنها اللوحات نفسها التي رأيتها من قبل، وهذا ما جعلني في حالة ذهول تام، فسألت نفسي: "كيف أنا في منزل يوسف؟!". قبل أن تزيد دهشتي حين ظهرت لوحة الكلب الهاسكي المعلقة أعلى التلفاز، وقد أصدرت نورًا أزرق كالشعاع من خلال عيون الكلب الزرقاء، مما جعلني أصاب بالرهبة نتيجة للعبث المحاطة به، فأخذت أتنفس بسرعة خوفًا من أن يحدث شيئًا آخر، وكأن قلبي كان يشعر بما هو قادم، فلقد زاد العبث أضعافًا.

فرأيت بعدها ضوءًا عظيمًا جبارًا ومتوهجًا ظهر فجأة من جانب الممر الموجود في آخر الصالة، والذي يوجد في آخره باب وفي منتصفه على اليمين باب آخر والذي بالأحرى هو باب الحمام، وهو الباب نفسه الصادر منه هذا الضوء، فلقد كان الضوء كما لو أنه خارج نتيجة لنيران مشتعلة وكأن هنالك حريقًا بداخل الحمام، فالضوء من قوته أنار صالة المنزل بأكملها. اقتربت قليلًا من الممر لأعلم ماذا يحدث، لتقع عيني على مشهد مكوّن من ظل على الحائط أمام باب الحمام مباشرةً، وكان مشهد الظل هذا عبارة عن رجل يجلس بداخل الحمام، يقضي حاجته بينما يحمل في يده سيجارة مشتعلة يخرج منها دخان، وفي اليد الأُخرى يحمل سكينًا، وملقى أسفله على الأرض رجل آخر.

استمر المشهد على ما هو عليه قليلًا، حيث كان ثابتًا ولا يوجد شيء يتحرك سوى الدخان المتطاير من السيجارة، قبل أن يبدأ المشهد يتحرك أمامي، لأشاهد من خلال الظل على الحائط ما يحدث بداخل الحمام بالضبط. فما حدث هو أن الرجل الذي يقضي حاجته قام بوضع السيجارة في فمه، ثم أمسك بالرجل الملقى تحت أقدامه من رأسه بقوة، ليضع السكين على رقبته، قبل أن يذبحه ويفصل رأسه عن جسده، ليمسك الرأس بعدها ويبدأ في اقتلاع العيون بواسطة السكين. ارتجف جسدي، فحاولت أن أخرج من منزل يوسف لأعود من حيث جئت، لكني وجدت الباب الذي دخلت منه قد اختفى ولم يعد له وجود، فأغلقت عيني بذعر، وعلمت أنه يجب عليّ المواجهة، فالتفتُ مجددًا ناحية الممر في انتظار من سيخرج من الحمام، لأستمع إلى صوت صنبور المياه يفُتح، ومن ثمَّ خرج يوسف من الحمام مبتسمًا لي بملامحه الهادئة الباردة وملابسه المتسخة بالدماء، يحمل في يده اليسرى عينين لونهما أحمر يخرجان نورًا مشعًا كالنيران وينزفان بغزارة، ليقول لي بلهجته الهادئة كما ملامح وجهه: "أين تريدين الذهاب؟! هل تريدين الهروب؟!". صفق باستخدام يده اليمنى ومعصمه الأيسر ثم ابتسم، قبل أن يضع العينين على كرسي من الكراسي في الصالة، ثم أشعل سيجارة أخرى واقترب مني، لينفخ دخان سيجارته في وجهي قائلًا: "أمك كانت محققة، لا مجال للعودة يا ميرنا". ضحك لثانيتين وتوقف فجأة عن الضحك، ثم وضع يده الممتلئة بالدماء على خدي، بعدها تحرك بعيدًا عني متجهًا إلى ذلك الكرسي الذي وضع العينين الحمراوين عليه، ليمسك بهما مجددًا، قبل أن يجلس على الكرسي واضعًا أقدامه قدمًا

فوق الأخرى في شموخ، ليتحدث قائلًا: "هل تعلمين؟! أول شيء أقوم بأكله دائمًا هي العيون".

صمت، وظل ينظر إلى العينين وهو ممسكًا بهم، رافعًا يده لأعلى لكي يتأملهم بتمعن كما لو أنه يتفحص قطعتين من الألماس، ثم التفت لي بعين ثاقبة قائلًا "هل تريدين أن تأكلي عينًا من عيون قاتل الماما؟!". قالها، ثم حدق بعيني غاضبًا، ليكمل حديثه بلهجة بها أمر: "افتحي فمك"، ليقوم بعدها عن كرسيه، قبل أن يتحرك ببطء قادمًا تجاهي، لأستيقظ من نومي مفزوعة بعدها».

***

كل ما ذُكر ما هو إلا ما قالته ميرنا، لقد كانت تحكي عن كابوسها الغريب الذي زارها في منامها، الكابوس الذي لم تفهم منه شيئًا ولكنها اعتبرته إشارة على أن يوسف هو من سيصل إلى قاتل أمها، لقد تنازلت الفتاة عن كل شيء سيئ رأته في منامها، تغاضت عن تحذير أمها لها بداخل الحلم، ولم تفكر إلا في شيء واحد وهو أن يوسف قام بقتل القاتل في نهاية المطاف، والذي ظهر في الحلم كالطيف أو الدخان، وهذا بسبب أن ميرنا لا تعلم من هو القاتل في الحقيقة، فرأته كالطيف مجهول الهوية بداخل كابوسها. أما عن الشخص الذي روت ميرنا له الحلم فهو نفسها، فالفتاة تروي حلمها لانعكاسها في مرآة الحمام، فلا بد أنها تعاني نفسيًا حتى وصل بها الحال للاعتقاد أن انعكاس صورتها سيستمع لها.

وها هي الآن تجلس في غرفتها، منتظرة أن يأتي الفجر بتوهج

عظيم، حتى تذهب إلى يوسف ليساعدها في القبض على (قاتل الماما).

الفصل الخامس

الألم

تقف ميرنا أمام منزل يوسف في الموعد المتفق عليه، مُكتفة الأيدي بسبب البرودة الشديدة للطقس، تنفخ البخار من فمها، قبل أن تسحب يدها من اليد الأخرى وتقترب بها تجاه الباب لتطرق عليه بطرقتين، وعندما فعلت ذلك انتظرت دقيقتين ولم تجد ردًا، فحاولت مجددًا، لتستمع إلى أصوات للعديد من الخطوات القادمة خلف الباب لفتحه، ليست خطوات لشخص واحد بل أكثر من شخص، وعندما فُتح الباب تفاجأت ميرنا أنه لا وجود لأحد، لذلك دخلت المنزل ببطء وبخطوات حذرة، ثم أخذت تنادي على يوسف بصوت مرتفع على أمل أن يظهر، فلم تجد ردًا، ارتعدت فرائصها، بل أصابها الشك لوهلة وتساءلت: "من الذي قام بفتح الباب؟!".

قبل أن تعلم إجابة سؤالها، لأن من قام بفتح الباب مختبئ خلفها، وهم ثلاثة أشخاص مصابين بمتلازمة داون، وهم الذين قاموا بالتسلل من خلفها، قبل أن يضعوا أيديهم عليها بقوة ويصرخون بصرخات دامية، لترتجف ميرنا هلعًا من قوة المفاجأة، وتلتفت مسرعة لتجدهم هم الأشخاص الذين كانوا مرسومين في تلك اللوحات المعلقة على الحائط حول التلفاز في أول مرة أتت بها إلى هذا المنزل لمقابلة يوسف، إنهم نفس الأشخاص تمامًا وبنفس الملابس، فلا بد أن هؤلاء لم يكونوا من وحي خيال يوسف!

ارتعش جسدها بالكامل وعادت للخلف ناحية اللوحة الموضوعة

على الطاولة في منتصف الصالة وهي تسألهم بلهجة مرتعبة ومتلعثمة: "أين يوسف؟!". ليجيبها الولد الذي يرتدي فستانًا أسود يشبه فستان الدمية باربي: "طعااااام". ظلت ميرنا تتحرك للخلف بخطوات بطيئة وتسأل الثلاثي داون مرارًا وتكرارًا "أين يوسف؟!"، قبل أن تصل إلى الأريكة، وتصطدم أقدامها بها من الخلف، لتسقط عليها جالسة، فجلسوا بجوارها، لتقوم بعدها الفتاة التي ترتدي الفستان الوردي الشبيه بفستان الدمية باربي بإمساك شعر ميرنا بقوة وشمه، أما عن الأخرى الطويلة التي ترتدي الفستان الأبيض فبدأت بتحسس جسد ميرنا بالكامل، وإذا أتى الحديث عن ميرنا فراحت تحدق بهم بخوف وأنفاس لاهثة وعين مفتوحة عن آخرها لقوة فزعها وذعرها، فكانت محتارة أين تنظر، لذلك أغلقت عينيها وراحت تنادي على يوسف بصراخ جعل من الثلاثي داون يقلقون منها ويعودون للخلف، حتى سمعت صوت يوسف وهو ينادي على الثلاثي ويقول بهدوئه المعتاد: "يا أولاد، الطعام جاهز". بدأ الثلاثي يحتفلون بطريقة غريبة أمام ميرنا، حيث قاموا بالتصفيق والقفز في أماكنهم بطرق عشوائية، قبل أن يركضوا نحو النداء، فذهبوا باتجاه الممر الطويل مارين من خلال الباب المتواجد في آخر الممر.

راحت ميرنا تلتقط أنفاسها بصعوبة، وكأن سيارة وقفت على صدرها ثم ذهبت، قبل أن تفتح عينيها وتبدأ في التنفس ببطء وانتظام، ثم فتحت حقيبتها وأخرجت منديلًا لمسح العرق عن جبينها وكأنها كانت في أقسى صيف مر عليها رغم أن البرودة قاسية في المكان. هدأت أخيرًا، ثم بدأت تتمعن وتتأمل حولها، حتى

لاحظت شيئًا غريبًا، وهو أن اللوحات التي كانت معلقة على الحائط الخاصة بالثلاثي داون غير متواجدة، ولا يتواجد سوى لوحة واحدة من اللوحات السابقة وهي اللوحة المرسوم عليها الكلب الهاسكي أعلى التلفاز بالضبط. وبالنسبة لباقي اللوحات فقد اختفت، ويتواجد مكانهم لوحة واحدة فقط عريضة، وهي عبارة عن لوحة للثلاثي داون ويوسف وميرنا وهم جالسون على طاولة كبيرة يتناولون اللحم بالشوكة والسكين، وفي منتصف الطاولة بالضبط هنالك طبق عريض وكبير موضوع عليه شيء ليس ظاهرًا بسبب قطعة من القماش الأبيض تخفيه، أما عما يوجد خلفهم فيجلس رجل كهل على كرسي متحرك، ويظهر على وجهه أشد علامات البؤس، لم ترَ ميرنا ذلك العجوز في لوحات يوسف من قبل، لكنها لم تبالِ وابتسمت ابتسامة خفيفة لأنه رسمها للمرة الثانية.

جلست بأريحية وأسندت ظهرها إلى مسند الأريكة ونظرت أمامها، ولكنها وجدت شيئين آخرين، وهما كشكول وقلم متواجدين على الكرسي بجانب الأريكة، في البداية حاولت ألا تقرأ ما بداخل أوراق الكشكول لأن هذا ليس من شأنها، وأنها تعلم تمامًا أن ذلك يعتبر تعديًا على خصوصية يوسف، ولكن الفضول جعل يدها تتحرك تلقائيًا وتمتد تجاه الكشكول لتعلم ما يوجد به، خاصة أن يوسف بالنسبة لها هو أكثر شخص غامض رأته في حياتها، وهذا ما حدث بالضبط، فأمسكت بالكشكول وبدأت تقرأ المكتوب بداخله:

«تريح قلبي فكرة الموت، فكرة أن هنالك طريقة دائمًا للخلاص من هذا العذاب الأرضي الذي يقتلني كل يوم، كلما اقتربت من الانتحار

شعرت أن قلبي ينتعش، وكأن الموت هو بداية لحياة جديدة بعيدًا عن هذا الجسد البائس، بعيدًا عن الظلام الذي احتل قلبي وجعلني أرى الأشياء بوضوح. فلقد علمت أن من اعتاد الحياة في النور لا يرى إلا في النور، ومن اعتاد الحياة في الظلام يرى كل شيء بوضوح، ويرى الحقيقة كاملة، فمن اعتاد الحياة في الظلام هو ذلك الشخص الذي تلمع عينه وسط الظلام ليوُصف بالشرير، أو الشيطان. ولقد اعتدت وجودي في الحياة بداخل أعماق الظلام، لذلك تلمع عيني عندما يراني أحدهم، ليُحكَم عليّ مباشرة قبل النطق بكلمة حتى على أنني هذا الشخص الشرير، لم أهتم، فالحياة التي يحيونها أو التي أحياها مُملة وليست جميلة ولا تستحق عناء التبرير، والبشر أنفسهم لا يستحقون التبرير لأنهم أدنى من ذلك.

لقد علمت أن الحياة ترفضني منذ زمن بعيد، حتى كل شيء جميل له بريق في الدنيا أصبح يعاقبني على قبح رؤيتي، والنور أصبح عبئًا ليذكرني بحياتي في الظلام. أصبحت أرى كل شيء مقرفًا ومُخيفًا، فعندما أنظر إلى البحر لا أتأمل جماله، بل أتأمل غدره، لا أتأمل أمواجه الصاخبة، بل أنظر إلى نفسي وأنا أغرق في منتصفه، وأرى القروش من حولي تستعد لوجبة ستصيبهم بالتسمم. وعندما أنظر إلى وجه الجميلة التي أعشقها أرى نفسي غارقًا في عينيها اللتين يشبهان البحر على كل حال، ثم أجد نفس القروش تأتي لي مجددًا بينما أكون غارقًا بداخل تلك العيون، لتقطع من جسدي قبل أن تنهي عليّ، وذلك عقابًا لهروبي منهم في المرة الأولى، فلا أرى نفسي في عينيها سوى ميتًا، لا أرى سوى أنها تريد قتلي كما قتلتها. وكل هذا

أدى أنني صرت أخاف البحار، فما كان عليّ سوى الهروب لمكان آخر، ربما سأذهب وأقف أمام شلال ليهدأ عقلي ولو قليلًا حين تشاهد عيني المشهد، لكني حتى عندما أنظر إلى شلال لا أنبهر مما تشاهد عيني المريضة، ولا أرى أنه شيء من روعة الطبيعة، بل أرى المياه الساقطة منه كالدماء، تمامًا مثل الدماء التي ستسقط من رأسي حين أضغط على زناد المسدس الذي أمسكه بيدي!

وبينما أضع المسدس في رأسي ينهش بداخل عقلي سؤال، وهذا السؤال هو أين تذهب الروح بعد الموت؟، هل ستعلق الروح في عالم الأحلام؟ حيث سنستطيع أخيرًا فعل كل شيء تمنيناه عندما كان يعيق طريقنا قوانين الدنيا وضعف أجسادنا كبشر، أم سننتظر يوم الحساب كما قيل في الأديان السماوية، لنُحاسب على ما فعلناه أو ما كان بإمكاننا أن نفعله ولم نفعله؟ هل بعد موتي ستنتقل روحي إلى جسد آخر في مكان آخر وربما لكائن آخر كما قيل في بعض الأديان؟!، أخشى ذلك لأني أعلم حظي، وأعلم أن إذا كان هذا حقيقيًا فستنتقل روحي إلى دجاجة، حيث سأحيا القليل استعدادًا للذبح.

هل بعد موتي سأتعذب في النار؟ أسأل نفسي كيف لروحي أن تتعذب؟!، والجسد هو من يشعر بالألم ويقتل أرواحنا شيئًا فشيئًا، وإذا كانت الروح تتعذب فهل هذا العذاب مؤلم حقًا؟!، أم عذاب نفسي آخر؟! أم عذاب أجسادنا على الأرض هو ما سيجعل أرواحنا غير مُعذبة بعد الموت؟! أنا لا أعلم.. لكني أعتقد من حين لآخر أننا أموات بالفعل، والحياة على الأرض هي عقاب الآخرة.

لكن إذا كان هذا صحيحًا، وإذا كنا أمواتًا بالفعل ونُعاقب في

الجحيم الحقيقي المسمى بالأرض، فهل هنالك حياة أخرى بعد موتي إذا انتحرت؟! أم الموت هو النهاية، وأنه كما يعتقد الكثير بكونه مجرد موت، ولن أشعر بشيء بعدها، كالنوم الدائم!

يا إلهي.. لقد بدأت أشعر بالقلق قليلًا، سأترك المسدس وأذهب لصنع فنجانٍ من القهوة لأستطيع التفكير، ثم أعود لأضع المسدس أمام رأسي مرة أُخرى وأفكر مجددًا، لا أدري متى سأفعلها، ربما اليوم، ربما غدًا، أو ربما سيأتي ملك الموت متسللًا ليقضي عليّ وأنا نائم دون أن أشعر بشيء، لا أعلم... ولكن الحقيقة الوحيدة التي أعلمها جيدًا هي أنني سأموت على كل حال، حتمًا سأموت».

هذا ما قرأته ميرنا، قبل أن تستمع صوت الباب في آخر الممر وهو يُفتح، فتركت الكشكول مكانه مسرعة، ثم وضعت يديها الاثنتين بين فخذيها وضمت فخذيها عليهما بقوة، ليظهر يوسف أخيرًا قائلًا بهدوئه: "كيف حالكِ؟". شعرت بتوتر ونظرت ليوسف، وبعدها نظرت للكشكول، ومن ثم نظرت ليوسف مجددًا وأخبرته بتلعثم: "أنا.. أنا بخير". لتبتسم في وجهه بعدها. ضحك يوسف وقال لها بنفس النبرة الهادئة: "قرأتها؟!". نظرت أمامها بعيدًا عن يوسف وقالت وهي تبتلع لعابها: "لا.. لم أقرأها". زاد ضحك يوسف، فسخر منها قائلًا: "إذا لم تقرئها لكانت إجابتك هي: عمَّ تتحدث؟!".

أغلقت عينيها قليلًا لأنها شعرت أنها غبية كالعادة، ثم عضت على شفتيها بقوة وقالت بينما تنظر إلى الأرض بوجه تحاول أن تمثل به دور الندم والاعتذار "نعم.. قرأتها". صمت يوسف، وجلس بجوارها على الأريكة، قبل أن يعم السكون المكان، حتى قالت ميرنا:

"أنا آسفة، لم أقصد". ثم أخذت نفسًا عميقًا وأكملت حديثها "إنه الفضول". ضحكت، قبل أن تتكلم مجددًا بلهجة ساخرة هذه المرة: "أنا سعيدة لأنني وجدت شخصًا يرى أن العالم ليس مكانه". صمتت، وظهرت علامات الحزن على عينيها، لتتحدث مجددًا قائلة: "مثلي".

زادت علامات التعاسة على وجهها، قبل أن تقول وهي تنظر للوحة المعلقة على الحائط: "للاكتئاب وجهين، وجه يصنع منك مُبدعًا ووجه يُبدع في رسم نهايتك". لتضحك بعدها وتقول ساخرة: "أحاول أن أتكلم مثلك كالفيلسوفة الحمقاء". زاد ضحكها وقالت: "هل تعلم أن هوايتي الرسم مثلك؟!".

حرك يوسف وجهه تجاهها مبتسمًا، ثم أخرج علبة سجائره من جيبه وأشعل واحدة، في تلك اللحظة طلبت ميرنا منه سيجارة فأهداها واحدة وأشعلها لها، فبدأت الفتاة في التدخين، لكنها لم تكن تدخن بالطريقة الصحيحة، فقط تقوم بسحب الدخان وإخراجه من فمها، ولم يمر الدخان من خلال رئتيها أبدًا. تكلمت مجددًا سائلة بتعجب: "لم أكن أعلم أن هؤلاء الثلاثة المصابين بمتلازمة داون في اللوحة حقيقيون، اعتقدت أن كل شيء من وحي خيالك!!".

أجابها وهو ينفث الدخان من فمه وينظر أمامه بعيدًا عنها "كل شيء أرسمه حقيقي". سألته بفضول وحيرة: "هل يقربون لك؟!". نظر لها يوسف وأجابها بابتسامة خبيثة: "أبنائي"، تعجبت ميرنا، خاصة أنهم ليسوا بأطفال مثلًا بل من أجسادهم ظهر عليهم البلوغ، ويوسف ليس بكهل حتى يكون له أبناء بهذا العمر، لذلك ضحكت وعلمت أنه يلعب بعقلها فقالت: "كفى مزاحًا!".

لم يفعل شيئًا، بل اتسعت ابتسامته أكثر، وانتظر منها أن تسأله سؤالًا آخر، وبالفعل هذا ما حدث وسألته:

- بما تؤمن؟!

- أومن بالألم، لقد كانت حياتي اللعينة بأكملها عبارة عن ألم، لذلك اتخذت الألم كعقيدة أومن بها، أولِم من يؤلمني، وأولِم من يؤلم غيري، وأولِم من لم يكن لديهم أي ذنب، ومن أولمه يكون ذلك لمصلحته، فالألم هو السبيل الوحيد للإنقاذ.

قالها وهو يستند بظهره على الأريكة وعينيه لأعلى، وهذه أول مرة يظهر على يوسف التأثر فعلًا بما يقول، حيث أن عينه كادت تذرف دمعة لكنها تماسكت وحدها، ونبرته لم تكن تلك النبرة التي تُظهر الكبرياء والثقة، بل بات صوته يُعبر عن الألم والتعاسة. ولكن ميرنا اعتقدت أنه يمزح أو يتلاعب ويمثل كعادته، فضحكت بسخرية قائلة:

- تؤلمهم لتنقذهم؟!

- نعم.. لم أكن أعلم السبب وراء المعاناة والألم في حياتي، ولكن الجميع كان يخبرني أنه ذنب ارتكبته، وأن كل شيء يحدث لي ما هو إلا تطهير لروحي، فتأملت لوهلة ورأيت أن هنالك الكثير ممن ارتكبوا أفعالًا شنيعة، كمن قتل النفس أو من تسبب في قتل نفس بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، لكنهم لم يجربوا الألم بعد ليطهروا أرواحهم، فلهذا السبب أصبح دوري إنقاذهم وتطهير أرواحهم باستخدام الألم، ولكن قبل هذا التطهير يجب أن أشم رائحة الشعور بالذنب بداخل

كيانهم، يجب أن أسمع منهم أن ذنبهم يأكلهم من الداخل، سأجلب لكِ قاتل أمك لأني أريد أن أنقذه وأطهر روحه من ذنوبه، أعتقد أنه يستحق التطهير، إنه يستحق الألم.

ذرفت دمعة من عينه، قبل أن ينظر إلى ميرنا وبدأ يخبرها بشيء غريب، حيث بات العنف ظاهرًا على وجهه رغم صوته الهادئ إلى حدٍ ما، فقال لها:

- هل تعلمين؟! أنا أشعر بكِ، وأشعر بالألم الذي تعانيه الآن، سأخبركِ بشيء، لقد تم إطعام لحم أمي لكلب أمام عيني حين كنت في الثامنة من عمري، لقد عشت حياتي بأكملها بدون أم أو أب، ما زالت عيون الشخص الذي قطع من لحم أمي وأطعمها للكلب تطاردني في أحلامي بمشهد لا يصدقه عقل، لقد كانت عيونه زرقاء مثل عينيكِ، ولذلك منذ صغري وأنا أرى أن العيون الزرقاء يسكن بداخلها الشيطان، ولذلك أيضًا منذ صغري وأنا أخشى النظر إلى العيون الزرقاء، أخاف منها وأتجنبها أينما كانت، وأخشى من يمتلكها، فلقد أصبحت كالفوبيا بالنسبة لي.

ربما لم تلاحظ الفتاة ما قاله يوسف حول عدم استطاعته للنظر إلى العيون الزرقاء على الرغم من أن عينيها زرقاوان، وأنه منذ رآها وهو يتأملهما وينظر بهما مباشرة دون رهبة أو خوف، ربما لم تلاحظ تلك الكلمات وهذا التناقض بشخصيته بسبب أن عقلها تشتت وبدأت علامات القلق تظهر على وجهها بالفعل حينما أخبرها بشأن قصة الشخص الذي جعل الكلب يأكل من لحم أمه، بل وبدأت في الشك أن كلامه ليس مجرد مزاح رغم أنها لا تصدق هذه القصة من الأساس،

لكنها سألته سؤالًا آخر وهي مستاءة مما تسمعه، وذلك السؤال ليس له علاقة بما قاله عن قصة أمه، بل له علاقة بما تريده وبما أتت لأجله إلى هذا المنزل، حيث أغضبها يوسف حين تكلم عن أنه ينقذ القتلة والمذنبين من ذنوبهم، وأنه يريد إنقاذ قاتل أمها، فقالت بغيظ شديد ولغة استنكار:

- كيف تنقذهم من ذنبهم؟!

صمتت قليلًا، وبدأ صوتها يتحول إلى نبرة بها غمة مسموعة وقالت:

- وكيف ستنقذ قاتل أمي من ذنبه بقتل أمي؟!

تطاولت ميرنا وتخطت الحدود، حتى ضربته بقبضة يدها على كتفه رغم خوفها منه، ولكن عدم السيطرة على غضبها جعلها منفعلة، وبعدما فعلت ذلك قالت له ببكاء:

- أنا معك الآن لقتله، وليس لإنقاذه.

- أحيانًا يكون سبيل النجاة الوحيد للغارق هو...

قالها يوسف بهدوئه ثم صمت، وبعدها نظر لها بابتسامة خبيثة وأشار بإصبعه السبابة إلى بطنه، ثم أكمل حديثه قائلًا:

- بطن الحوت.

- بطن الحوت!!

- نعم.. هل تعلمين كيف أنقذهم وأطهر أرواحهم؟! أقطع من

لحومهم وهم أحياء ويصرخون أمامي لكي أجعلهم يجربون أقسى ألم، فتتسرب منهم ذنوبهم وخطاياهم اللذان يأكلان أرواحهم للخارج مع دمائهم ولحومهم المتقطعة، وأستمر في تقطيع أجسادهم حتى يموتون، وحينما يموتون أخيرًا تخرج أرواحهم نقية بقوة الألم من أجسادهم، هذا هو التطهير، فأنا أطهر أرواحهم بقوة الألم والعذاب بكل أنواعه حتى الموت.

صمت مُبهم من ميرنا، حتى تذكرت أنه قال على نفسه مسبقًا أنه من آكلي لحوم البشر وأن هذا ما أشار إليه عندما قال جملة (بطن الحوت) وباقي كلامه غير المفهوم بالنسبة لها، فضحكت أخيرًا واطمئن قلبها لأنها علمت أنه لم يفعل شيئًا في كل حديثه سوى المزاح والتلاعب بها، لتصمت قليلًا، ثم تبدأ في تغيير الموضوع قائلة: "غريبة حياتك!، فمن أكل لحم أمك كلبًا، ولقد أخبرتني مسبقًا أن يومًا ما أنقذ حياتك الكلب المعلقة صورته أعلى التلفاز، إنها سخرية القدر!".

على الرغم من أنها لا تصدق شيئًا من قصة أن هنالك كلبًا أكل أمه، بل وعلمت أنه في تلك المحادثة بأكملها لم يفعل شيئًا سوى الكذب والتلاعب بعقلها كالعادة حيث يريد إخافتها منه ولا شيء آخر، إلا أنها أرادت للمرة الأولى أن تلعب هي بعقله، فقالت تلك الجملة فقط لإقناعه أنها تصدق تلك القصص العجيبة، قبل أن تستمع لصوت الفتى من الثلاثة المصابين بمتلازمة داون وهو ينادي على يوسف ويقول بنبرة مرتفعة: "طعاااام". ابتسم يوسف، ووضع قدمًا فوق الأخرى، ثم أمسك بالسيجارة ووضعها على حذائه، ليضغط بيده

على السيجارة لتطفأ في حذائه، قبل أن يلقي بها بعيدًا على الأرض، لينظر إلى ميرنا ويخبرها: "هيا لنأكل". ثم تركها وذهب، تعجبت ميرنا قليلًا، قبل أن تفعل ما فعله يوسف بالضبط وتطفئ السيجارة بنفس الطريقة، لتتحرك خلفه، فتجد نفسها ذاهبة إلى تلك الغرفة في آخر الممر.

مرت بجوار الباب المتواجد في منتصف الممر على اليمين، فعلمت أن تخمينها كان صحيحًا، وأنه لا شيء سوى الحمام. وصلوا لباب الغرفة في آخر الممر، ثم فتحها يوسف وطلب منها الدخول، لتدخل ميرنا وتجد أنها في غرفة النوم، وتلك الغرفة بها سريران موجودان في آخرها على اليمين بجانب بعضهم البعض وبينهما كومود أسود كباقي الأثاث في المنزل، وتَسريحة سوداء اللون بها مرآة كبيرة بجانب السريرين، وأمامهم في أقسى اليسار يوجد دولاب أسود اللون وحجمه كبير للغاية. قلقت ميرنا، فلاحظ يوسف قلقها، ليتحدث بسخرية ويقول: "حان الوقت لخلع ملابسك". ابتلعت لعابها ذعرًا من كلامه، ونظرت له بعينين متسعين، ثم راح جفنها يرتعش، لتخبره بنبرة خافتة: "ماذا؟!".

ضحك يوسف ضحكة خفيفة، قبل أن يقول لها بهدوء بينما ينظر إلى عينيها بنظرة ثاقبة: "أليس هذا ما أتى في بالك عندما دخلتِ الغرفة؟! أليس هذا هو سبب علامات القلق في وجهك عندما أصبحنا سويًا هنا". زاد ضحكه الساخر بينما يتأمل وجهها المرعوب، ثم راح يقترب منها، قبل أن يضع يده على خدها بلطف قائلًا: "لا تقلقي، أنتِ هنا لأنني أحضرت لكِ مفاجأة، سنتناول الطعام سويًا في الأسفل".

تركها، وذهب باتجاه الدولاب، ثم قام بفتحه، لتفزع ميرنا وتزداد علامات التعجب على وجهها بشكل ملحوظ عندما رأت أنه ليس دولابًا، بل مجرد باب خشبي يخفي خلفه بابًا آخر من الحديد.

فتح يوسف الباب الحديدي، لتعلم ميرنا أنه لا يوجد خلفه سوى سلالم تؤدي إلى قبو المنزل، فنظرت لتلك السلالم النازلة لأسفل بقلب منقبض، قبل أن يقول يوسف بينما يشاهد ردة فعلها: "خلطة طعامي سرية لا أريد أن يعلمها أحد مثل خلطة كنتاكي، لذلك أخفيها عن العالم بأكمله". ليقترب منها ببطء ويمسك يدها بلطف قائلًا: "هيا بنا، المطبخ بالأسفل، والطعام في انتظارنا بالأسفل أيضًا".

الفصل السادس

البئر

تنزل ميرنا السلالم بأقدام بالكاد تحملها، واضعة يدها على قلبها الذي صارت نبضاته تتسارع، بينما ينزل يوسف أمامها ببطء شديد وبهدوئه المعتاد، ماسكًا بيده هاتفه لينير به السلالم بواسطة الكشاف، حتى وصل إلى آخر السلالم، فأصبح لا يوجد أمامهم سوى باب حديدي يشبه أقفاص السجن، مد يده ليفتحه، ثم مر من خلاله، لتمر خلفه ميرنا التي اكتشفت أنها في ظلام حالك، ولا يوجد أي مصدر ضوء في المكان بعدما أطفأ يوسف كشافه، لكن سرعان ما أنار يوسف الأضواء، ثم ابتسم وقال ببهجة "مفاجأة".

ابتسمت ميرنا عندما ظهرت ملامح تلك الغرفة السرية، حيث أنها وجدت أمامها طاولة طويلة للغاية بها الكثير من الأطباق التي تحتوي على لحم، وبجانب كل طبق كوبًا كبيرًا من الماء، وملتف حول الطاولة خمسة كراسٍ، وفي منتصف الطاولة هنالك طبق كبير جدًا يوجد به شيء مخفي ومغطى بقطعة من القماش الأبيض كما في اللوحة التي رأتها ميرنا في الصالة بالضبط، حتى الرجل الكهل المرسوم في اللوحة متواجد أيضًا، فهو يجلس على كرسيه المتحرك بعيدًا في ركن بداخل الغرفة بينما يتبادل الأنظار مع ميرنا ويوسف، لكنه لا يتحدث على الإطلاق ولا يحرك أي جزء من جسده سوى رأسه وعينيه فقط. أما عن الثلاثي داون الذين أشار يوسف إلى أنهم أبنائه فهم جالسون على الكراسي حول الطاولة استعدادًا لتناول

الطعام مع ضيفتهم ميرنا.

ربما يكون كل هذا أدهش ميرنا، ولكن هنالك شيء آخر أثار دهشتها، وهذا الشيء هو باب متواجد في آخر الغرفة، محصنًا وقويًا، مصنوعًا من الحديد لكنه لا يظهر أي شيء خلفه، حيث أنه لا يوجد أي فتحة به ليعلم المرء ما يوجد بداخل هذا المكان الذي يحميه الباب. سألت ميرنا يوسف بفضول "ما هذا الباب؟!". ليخبرها قائلًا: " المطبخ". قبل أن ينظر إلى أحد الثلاثي داون وهو الذكر منهم ويخبره بلغة بها أمر: "اذهب، سننتظرك، لن نأكل حتى تأتي". أومأ برأسه إجابة على أمر يوسف، ثم خرج من القبو، ولم تتعدَ الدقائق حتى عاد مجددًا إلى القبو وجلس على كرسيه، لينظر يوسف إلى ميرنا ويخبرها بهدوء "اجلسي". لتجلس ميرنا على الكرسي الذي يوجد أمام باب مدخل القبو تمامًا، حيث أدارت ظهرها للباب الحديدي الذي يشبه أقفاص السجن، وصار وجهها ينظر إلى باب المطبخ الحديدي المُحصن، أما عن يوسف فجلس على الكرسي أمامها مباشرةً، وهو ذلك الكرسي الذي خلفه باب المطبخ مثلما قال.

ضحك يوسف، ثم قال بابتسامة هادئة: "لنأكل". بدأت ميرنا والثلاثي داون يمسكون الشوك والسكاكين ويأكلون اللحم الذي أمامهم في كل طبق خاص بهم، ولكن ميرنا تعجبت من طعم اللحم الذي كان غريبًا بعض الشيء ومع ذلك شهي ولذيذ، حيث يبدو وكأنه مطبوخ بعناية من طباخ ماهر في عمله، فسألت يوسف وهي تأكل: "ما هذا اللحم؟!". صمت يوسف، وظل ينظر لها وهي تأكل، حتى تذكرت ميرنا مزاح يوسف الدائم عن كونه من آكلي لحوم

البشر فضحكت بينما الأكل في فمها وقالت: "آسفة، لقد نسيت، لحم بشري أليس كذلك؟!". ضحك يوسف وقال: "نعم!!". حاولت ميرنا أن تكتم ضحكها ولا تنظر ليوسف، لذلك نظرت إلى طبقها واستمرت في الأكل، قبل أن تشعر بالتعجب قليلًا، وذلك بسبب نظرات الكهل المشلول الذي يجلس بعيدًا عنهم، فسألت يوسف بلسان حائر "من هذا؟". ليجيبها يوسف ببروده وهدوئه المعتاد: "إنه ابني".

احمر وجه ميرنا، ثم بدأت تضحك بفم ممتلئ بالطعام حتى كادت تختنق، وذلك بسبب تعجبها الذي تضاعف بعدما سمعت تلك الجملة من يوسف، فربما تصدق أن الثلاثي داون أبنائه، ولكن كيف لها أن تصدق أن ذلك الكهل ابنه أيضًا! بادلها يوسف الضحك، قبل أن تنظر له ميرنا وتبدأ في الحديث بسخرية وتقول: "أشعر بالقلق، لا أريد أن أكتشف في نهاية المطاف أنني ابنتك". ضحك من حديثها، قبل أن يقول لها بنبرة واثقة بينما يتأمل عينيها بنظرة يحاول بها تمثيل الحب: "ما زلت أتذكر عندما كنت أحملكِ بيدي وأنتِ طفلة صغيرة، لقد كنت أنظر لعينيكِ الزرقاوين مثلما أنظر لهما الآن". تقبلت ميرنا مزاحه بالضحك كالعادة، قبل أن تنظر إلى طبقها لتكمل أكلها.

عم الصمت المكان وأصبح لا يوجد أي صوت سوى صوت مضغ الطعام، حتى خرجت ميرنا عن صمتها وبدأت تتحدث عن أي شيء، حيث قالت ليوسف بتعجب:

- أنت زرتني في الحلم..

- كيف كنت، هل بنفس الوسامة؟!

قالها باستهزاء، وكأنه لا يبالي بسماع حلمها، لكنها أجابته قائلة:

- كانت أمي في الحلم أيضًا، لقد حذرتني منك، قالت لي أنني ذاهبة في طريق لا عودة له.

- ربما لم تكن تحذركِ مني!

هذا ما قاله يوسف بعدما لفت انتباهه الحلم الذي ترويه ميرنا، ولكن ميرنا أخبرته بيقين تام:

- لقد حذرتني منك أنت، في ذلك الحين كنت أنت من تنادي عليَّ من أجل القدوم نحوك فقالت لي لا تذهبي له!

ضحك يوسف، ثم أمسك بكوب الماء الذي أمامه وشرب القليل، قبل أن يقول لميرنا:

- ربما كانت تحذركِ من الحقيقة!

صمت، ثم أخذ نفسًا عميقًا وقال:

- إنه مجرد حلم، أكملي طعامك، هل الطعام جيد؟!

- نعم!!، مذاق اللحم البشري جيد للغاية!!.

قالتها بسخرية، قبل أن يخبرها يوسف بنظرته الثاقبة وصوته الهادئ:

- هل تريدين أن تعلمي قصة الشخص الذي تأكلينه الآن.

- نعم.. لمَ لا؟!

زادت سخريتها وهي تخبره بأنها تريد سماع القصة، وهذا عكس ما ظهر على يوسف تمامًا الذي بات على وجهه أنه يتحدث بجدية، قبل أن يرفع لها حاجبًا من حاجبيه ويخبرها بينما يتأمل عينيها: "حسنًا سأخبركِ قصته". ثم بدأ يروي لها القصة.

***

«كنت في الحانة، أصب له الكأس مرة تلو الأخرى، ظهر على وجهه اللامبالاة بكل شيء كما لو أنه فقد الشعور بمذاق الحياة، علمت أنه ربما يتألم حيال شيء ما، فنظرت له بعناية شديدة منتظرًا منه أي تعبير آخر غير تلك الملامح الجافة ولكن لا جديد يُذكر، فلقد ظل على ما هو عليه، حتى عندما قام شجار عنيف بداخل الحانة، وقام أحدهم بقطع إصبع السبابة لصديقه في منتصف الحانة أمام أنظار الجميع الذين راحوا يصرخون وأصابتهم حالة من الفزع والجنون والهلع ولم يصدقوا ما حدث، إلا أنا وهو، فهو كان يراقب الحدث بملامحه الجافة من المشاعر، أما أنا فنظرت إلى الحدث بابتسامة عريضة واسعة أظهرت أسناني، قبل أن يتم السيطرة على الفوضى بداخل المكان.

حينها حدق بي وقاطع ابتسامتي بسؤال غريب قائلًا: "أي نوع من الهدوء والسلام النفسي هذا الذي تملكه؟! هل هو استسلام للواقع الظالم، أم استسلام لكونك أنت الظالم؟!".

تأملت سؤاله في سكون تام، ولم أنظر له بل ظللت أنظر إلى زجاجة الخمر في يدي، ثم لاحظ هو ردة فعلي ليكمل حديثه: "لا

عليك، أنا أتفوه بكلام لا قيمة له". قاطعت حديثه دون النظر إليه، حيث ظللت أنظر إلى زجاجة الخمر وقلت بنبرة هادئة: "أعتقد أنك تعلم تمامًا أي نوع من الهدوء هذا". ثم رُسمت على وجهي ابتسامة وقلت له دون أن تواجه عيني عينه: "أنت مثلي تمامًا، لقد كشفتني".

بلهجة متعجرفة أخبرني ألا أتعدى الحدود في الحديث معه ولكن بطريقة غير مباشرة حيث قال: "أنت تصب لي الخمر وأنا أشربه وأعطيك المال مقابل هذا، أنا لست مثلك يا رجل، لا تتفوه بكلام لا قيمة له مثل العاهرات". لا أستطيع إنكار إعجابي برده، لذلك نظرت له نظرة هادئة بطرف عيني بينما أحرك يدي على زجاجة الخمر ببطء، ثم قلت بابتسامة: "أعتقد أنني أمتلك الإجابة على سؤالك، فالهدوء والسلام النفسي الذي أمتلكه أتى بسبب أنني ظالم الظالمين، وظالم الظالم عادل". لم يجبني، لذلك توقفت عن الحديث لوهلة، ثم أخذت نفسًا عميقًا، بعدها أمسكت بكأس فارغ على الطاولة وملأته عن آخره، لأقترب منه ببطء وأضع الكأس أمامه قائلًا بلهجة واثقة: "هذا الكأس على حسابي، وكل ما شربته على حسابي، أعتقد أننا الآن مثل بعضنا البعض، هل ما زلت عاهرة تتفوه بالكلام في نظرك؟!".

وضع يده على الكأس وظل يحدق به، ليقرر أن يبدأ بالشرب منه ضاحكًا بينما يقول لي بسخرية: "أعلم أنك لن تصمت، ماذا تريد؟!". في تلك اللحظة جلست أمامه ونظرت في عينه مباشرة، ثم أخبرته بقصة صغيرة حيث قلت له بتأمل عميق: "أريد أن أخبرك بقصة حيال شخص ما، هناك شخص مسجون في بئر عميق مُظلم مرعب

لفترة كبيرة، وذلك الشخص مبتور القدمين، ولا يوجد سبيل لنجاته سوى حبلين طويلين، حبل منهما بجواره مباشرة وذلك الحبل يُدعى الموت، والحبل الآخر قادم من أعلى ويُدعى بحبل الحياة ولكنه مرتفع لدرجة ألا يستطيع ذلك الشخص المعاق أن يطوله، فهو لن يستطيع أبدًا الوقوف على قدميه المبتورتين ليقفز ويمسك بحبل الحياة، هل يمكنك أن تخبرني ماذا عليه أن يفعل؟!، هل سيظل سجينًا في هذا البئر للأبد على أمل أن يحدث شيئًا أسطوريًا يجعله يتعلق بحبل الحياة؟! أم سيمسك بحبل الموت ليتم خلاصه من ذلك الظلام الحالك بداخل البئر؟!".

ضحك من كلامي، لكنه كان يضحك ليخفي أنه يفكر فيما قلته، قبل أن يصمت ويضع الكأس على الطاولة، ثم قام بوضع إصبعه بداخل فمه وبدأ يأكل أظافره، ليخبرني بعدها بتأثر بات واضحًا: "هل من الممكن أن يحدث ذلك الشيء الأسطوري؟!". حركت رأسي يمينًا ويسارًا بإشارة مني أنه ليس من الممكن أن يحدث، ثم ابتسمت وأخبرته: "لكني أعلم أن هنالك الكثير من البشر استطاعوا الخروج من هذا البئر متمسكين بحبل الحياة، لكنهم خرجوا عندما صمدوا ونهضوا وقفزوا بأقدام مبتورة، وهم عندما يخرجون من البئر يظلون حياتهم بأكملها يتعذبون بسبب ذلك الألم الذي واجهوه أثناء خروجهم، ويتذكرون كيف عاشوا مرعوبين بداخله، حينها يقررون أن يكرسوا حياتهم لجعل الجميع يشعر بذلك الألم والخوف والحزن، أعلم الكثير منهم بالفعل، إنهم هؤلاء الأشخاص الذين يظهرون ردات فعل غريبة في مواقف يجب عليهم الصراخ فيها، مثلما فعلنا أنا

وأنت عندما رأينا الشخص الذي قُطع إصبعه، أنا ضحكت، وأنت لم تظهر أي ردة فعل يا صديقي، لأننا نعلم تمامًا أنه تم بتر مجرد إصبع منه، بينما نحن نحيا بأقدام مبتورة".

ضحك مجددًا، قبل أن يخبرني بعين ثاقبة ولسان بدا واثقًا وصار متشككًا مع توالي الكلمات: "لكن هنالك بشر استطاعوا أن يخرجوا من هذا البئر وهم مبتوري الأقدام، وما فعلوه بعدها هو تكريس حياتهم ليتيقنوا من ألا يحدث ما حدث لهم لشخص آخر، لقد ظلوا يحمون الناس من البتر والبئر، وفي النهاية يجدون السلام والأمل في تلك الحياة اللعينة".

أومأت برأسي، ثم خفضت رأسي ونظرت لأسفل مبتسمًا في صمت، قبل أن أخبره أنه محق لكن بطريقة جعلته يعلم أنني على يقين أنه ليس بهذا النوع من البشر الذين يتحدث عنهم، فلقد قلت له ساخرًا: "أعتقد أنك تتحدث عن الملائكة! انظر حولك، ذلك الرجل هنا لأنه في انتظار عاهرة لتجعل سريره يرقص فرحًا، وأنت تمسك في يدك كأسًا من الخمر وليس ماء مقدسًا، الحديث عن الملائكة شيء مُحرم هنا يا صديقي".

عض شفتيه في غيظ وقد لاحظت هذا، لذلك أكملت حديثي قائلًا: "حسنًا، سأخبرك عن أحد هؤلاء الملائكة، ذات مرة قال لي حكيم: إذا كنت تتنفس فاعلم أنك حي، واعلم أن هنالك أملًا في الحياة، وأملًا في أن تتحسن حالتك يومًا ما. هذا الحكيم قضى وقتًا طويلًا بداخل البئر وهو مبتور القدمين، حتى استطاع بأعجوبة أن يهرب منه متمسكًا بحبل الحياة، ولقد كان ذلك الشيء المُسمى بالضمير يحادثه

دومًا ألا يبتر أقدام العالم الذي بتر أقدامه، بل وحاول صنع أقدام صناعية للجميع ممن يعانون حوله".

ضحكت، ثم أخبرته: "هل هذا ما تريد سماعه؟!، سأخبرك عما حدث بعدها، هذا الأحمق لم يحتمل عامين خارج البئر، لقد زحف عائدًا إلى البئر، ثم ألقى بنفسه بداخله مجددًا، قبل أن يقبض بيديه الاثنتين متمسكًا بحبل الموت، لقد فعلها باختياره وإرادته الحرة، فلا بد أن ابن اللعينة هذا علم أنه ليس من الضروري أن يخرج من رئتيك ثاني أكسيد الكربون لكي تُوصف بالحي".

أخرج سيجارة من جيبه، ثم وضعها في فمه، قبل أن أخرج أنا قداحتي من جيبي لأقوم بإشعال سيجارته، في ذلك الحين بدأ يُدخن بشراهة، فقمت بإشعال سيجارة لنفسي واقتربت منه هامسًا قائلًا في أذنه بأنفاس ساخنة معبأة بالدخان: "أي نوع من الذنب قد ارتكبت؟ ما هو الشيء الشنيع الذي فعلته؟!".

انتفض جسده، لكنه حاول أن يتمالك نفسه وألا يظهر قلقه، لينظر لي ويخبرني بسخرية: "أخبرني أنت، ما هو الشيء الشنيع الذي فعلته؟!". أخبرته ما أخبر الجميع به، وما أخبرتكِ به أنتِ أيضًا يا ميرنا وهي الحقيقة، حيث قلت له: "أنا من آكلي لحوم البشر". ليفعل ما تفعلينه عندما أخبركِ بتلك الجملة وهو الضحك، لقد تحدث وهو يضحك ويسخر مني قائلًا: "وما الفائدة من هذا؟". لأجيبه بيقين ووجه متعجب من سؤاله: "إذا استطعت توفير ثمن الطعام في بلدة مثل هذه ستصبح ثريًا، أليس هذا سببًا كافيًا؟!".

ضحك ساخرًا من جملتي، ثم أخذ يحاول الحديث لكني قاطعته ووضعت إصبعي على فمي بطريقة عمودية بإشارة مني أن يصمت، قبل أن أخبره: "لقد أخبرتك بسري، الآن لا عليك سوى الإجابة عن سؤالي". توقف عن الضحك فجأة ثم صمت وتنهد بنهدتين، قبل أن يخبرني بعين يظهر عليها الحزن ولكن بصوت يحاول إظهار عكس ما تظهره العين: " لقد كنت جزءًا من سفك دماء الكثير من الأبرياء، خاصة الأطفال". ربما اعتقد أنني لم أصدقه مثلما فعل هو، لكني أظهرت اهتمامي لأني أصدق ما يقوله، فأمسكت ذقني، ثم سألته بعناية واهتمام: "كيف؟!".

عبّأ صدره بدخان سيجارته، ثم شرب القليل من الخمر المتواجد في الكأس، وبعدها أخرج الدخان من فمه تجاهي، قبل أن يخبرني بتأثر حزين وعميق كعمق البئر الذي رويت عنه قبلها بدقائق: "أخطف الأطفال، أذهب بهم إلى منزل بعيد في منطقة صحراوية لا يسكنها أي بشر، ومن ثم أنتظر أطباء فاسدين وماهرين ليقوموا بسرقة أعضائهم، قبل أن يعطوني أجرتي مقابل ما فعلت، هذا هو سري".

بعدما أخبرني بسره ضحك، وكأنه يريد أن يظهر لي أنه يمزح مثلما يعتقد أنني كنت أمزح، لكني اقتربت بجسدي تجاهه وأخبرته بصوت خافت: "أصدقك". ثم عدث بجسدي للخلف وسألته: "هل تشعر بالذنب؟! يمكنك إخباري بما تشعر وسأستمع لك". نظر لي في صدمة وعين حزينة، قبل أن يخبرني بنبرة مؤلمة للقلب: "الأطفال يطاردونني في أحلامي كل ليلة، أراهم يطلبون النجدة، يوجد منهم من هو بلا قرنية لعينه، ومنهم من ينزف من موضع كليته، ومنهم

من هو مشقوق صدره وقلبه ساقط نابض أمامه على الأرض، ودائمًا في نهاية الحلم يسحبونني هؤلاء الأطفال الأموات بداخل تلك الحفرة الكبيرة المتواجدة بجانب المنزل البعيد الذي يتم قتلهم فيه، يسحبونني في الحفرة التي حفرتها بيدي لدفنهم جميعًا بداخلها، لم أعد أستطيع النوم، أشباحهم تطاردني يا رجل".

أخذ نفسًا عميقًا ثم مسح أنفه الذي راح يمخط وقال بعين على وشك البكاء: "أصبحت لا أعلم، هل أنا الميت بين الأحياء.. أم أنا الحي في عالم الأموات". تأملت حديثه وأنا في حالة صمت تام، أفكر فيما قال وأتذكر كل شخص قتلته ونزفت دماؤه ومرت من خلال أصابعي، أعلم أنه صادق، لأن ضحاياي ما زالوا يزورونني أنا أيضًا في كوابيسي من حين لآخر، ولكن الفارق بينه وبيني هو أنني لا أشعر بالذنب، ربما لاختلاف أنواع الضحايا وأعمارهم، فهو تسبب في قتل الأطفال، بينما أنا أشرب من دماء الوحوش.

تفهمته جيدًا، لأني أعلم أن زيارة أشباح الأطفال أثناء النوم مرهقة، وذلك لأنني قتلت طفلًا ذات مرة، لكني قتلته لكي أجعله يرى أن هنالك رحمة في العالم، ولهذا السبب أنا لست بمذنب بل رحيم. اقتربت منه مجددًا، ثم بدأت أربت على كتفه ولكن بخشونة، قبل أن أخبره أنني أشعر به وأتفهم ما يقول، وأنني جاهز دائمًا لسماع كل قصصه مهما كانت دموية ووحشية، ثم ضحكت قائلًا: "لن تكون قصصك وحشية أكثر من قصصي". بعدها أخرجت هاتفي وأعطيته له، ليرى صورة وأنا أحمل في يدي ساق إنسان ليصدق أنني من آكلي لحوم البشر، لم أتوقع منه الخوف، لكنه نظر لي بذعر، وألقى

بهاتفي على الطاولة ثم خرج من الحانة مسرعًا بأقدام مرتعشة، فنظرت له بابتسامة واسعة وهو يرحل، فلقد علمت أنه سيعود مجددًا، حتمًا سيعود، لأن المرء إن لم يُخرج ما يحمل بداخل عقله ستنفجر جمجمته، حتى ينتهي به المطاف واضعًا مسدسًا أمام رأسه مستعدًا لإنهاء كل تلك الفوضى التي تحدث بالداخل، وأنا لن أفلت تلك الوجبة من يدي، ولقد أخبرتكِ مسبقًا أنني أستمتع بأكل خطايا وذنوب المذنبين.

ولأني كنت على يقين أنه سيعود، اعتدت انتظاره كل يوم في الحانة، ولكن في كل مرة يكون معي مسدسي بذخيرته المعبأة بالرصاص، انتظرت أسبوعًا حتى ظهر مجددًا، حدقت به في دهشة وهو يدخل من باب الحانة وكأنني متفاجئ من وجوده، ليجلس بجواري ويصب لنفسه كأسًا من الخمر دون أن يستأذن مني كما لو أننا أصدقاء منذ الطفولة، قبل أن ينظر لي قائلًا بلهجة لطيفة بعض الشيء: "لا أحد سيفهمني مثلك، ربما جمعنا القدر لنكون أصدقاء، أنا بحاجة لصديق".

تأملته بلهفة تُظهر له أنني سعيد بهذا، ثم أخذ يروي عن قصصه الشيطانية الوحشية المثيرة للاهتمام، مثل كم طفلًا أرهقت روحه جرَّاء ما يفعله، وكيف يخطفهم، وما هي أساليبه في الخطف. لقد اعتدت أن أمثل الاستمتاع بسماع قصصه، لكني في الحقيقة كنت مستمتعًا وأنا أتخيله ضحية بين يدي بينما أقطع من جسده لتطهير روحه من ذنوبه، فلقد كانت روحه يأكلها الذنب ورأيت هذا في عينه، والروح الممتلئة بالذنوب ثقيلة لا تخرج من الجسد بسهولة وسلام،

فعلمت أنه سيعاني تحت يدي وسيتعذب ويصرخ كثيرًا حتى تخرج روحه من جسده طاهرة نقية.

مرت الأيام حتى اكتسبت ثقته بشكل كامل وأصبحنا أصدقاء مقربين، ليطلب مني في يوم أن أذهب معه إلى المنزل الذي يقومون فيه بسرقة أعضاء الأطفال وقتلهم، لقد قال لي أن الأطباء سيكونون هناك، لمعت عيني لأن هذا ما كنت أنتظره، فابتسمت بهدوء شاكرًا على ثقته، ثم خرجت من الحانة بعدما انتهيت من عملي، وذهبت معه بسيارته جالسًا في المقعد الأمامي بجواره متشوقًا للذهاب إلى هذا المنزل. وصلنا للمكان المنشود، فوجدت نفسي أمام منزل قاتم ومقرف في وسط الصحراء، ولا يوجد ضوء يساعدنا لنُبصر سوى ضوء كشافات هواتفنا والقمر أعلانا، بدأت بالاستكشاف حولي قبل الدخول للمنزل باحثًا عن تلك الحفرة العملاقة المدفون بداخلها الأطفال، فلمحت على جانبي الأيمن حفرة عملاقة بالفعل لكنها مردومة بالتراب، فعلمت أنها المقبرة الجماعية للمساكين.

دخلت المنزل بعدها، والذي لم يكن به سوى غرفة واحدة فقط متواجد بها حمام، وتلك الغرفة بلاطها أبيض لامع ملطخ بالدماء في كل مكان، وكان يوجد بالغرفة سرير مثل السرير الذي يستخدمونه الأطباء عندما يقومون بإجراء العمليات الجراحية، وجميع المعدات التي من الممكن أن يستخدمها الأطباء لشق بطن إنسان وإصلاح ما بداخلها أو سرقته، وتلك المعدات موضوعة على طاولة حديدية صغيرة بجانب السرير مباشرة. لم يكن هذا كل شيء، فلقد وجدتُ الثلاثة المصابين بمتلازمة داون يجلسون في ركن صغير من الغرفة

أسفل النافذة المتواجدة بجانب باب المنزل. نعم.. إنهم الذين يجلسون معنا ويأكلون بجوارك الآن يا ميرنا، لقد كانوا مكبلين بسلاسل وحبال، وهذا يدل على أن دورهم قد حان، وأنهم على وشك مفارقة الحياة بلا أي ذنب ارتكبوه، فسألني الغُلام من الثلاثي داون قائلًا: "هل سأموت؟!". ثم ضحك، علمت حينها أن الموت مضحك في نظر من هم قلوبهم نقية، لذلك ابتسمت له ثم تحركت لأجلس بجواره، قبل أن أقول له بصوت خافت ونظرة واثقة: "بل سيموتون".

شعر الفتى بالقلق عندما قلت سيموتون، فنظر لأختيه ثم أخذ يبكي بحرقة، قبل أن يبدأ في لطم وجهه بقوة حتى احمر وجهه، رأيت في عينه الخوف الشديد وذلك نتيجة لعدم فهمه كلمتي، فهو اعتقد أنني قصدت بسيموتون أن من سيُقتل هم من رافقوه في الحياة، ولكني لم أخبره بما قصدت، أردته خائفًا، لأن في أغلب الأوقات تأتي الشجاعة نتيجة للرعب والخوف وليس الثقة، وفي تلك اللحظة بالتحديد أردته شجاعًا، لأنه سيكون العكاز للفتاتين المرافقتين له واللتين كانتا في حالة صدمة ولا يتحدثن على الإطلاق بل ينظرن حولهن وعلى وجوههن ملامح الشعور بالشفقة على أنفسهن.

مر على الوقت أقل من نصف ساعة، حتى سمعت صوت سيارة بخارج المنزل، وعبر نور كشاف السيارة من خلال النافذة التي كنت أجلس أسفلها، فألقيت نظرة عابرة للخارج، فوجدت أن الأطباء الفاسدين قد وصلوا، ابتسمت ونظرت للغلام بجانبي وقلت له بصوت

أحاول به تمثيل الخوف "سيموتون!!". ليكمل الفتى في البكاء واللطم على وجهه، حتى دخل الأطباء المنزل، واللذان كانا طبيبين يظهر عليهما الثراء، فالثري الذي يحيا حياة كريمة يظهر على وجهه بهجة وحيوية يستطيع المرء أن يميزها في أي وقت، حتى وإن كانت تلك البهجة مُلطخة بدماء الأبرياء. حينما دخل الأطباء ووجدوني تعجبوا وأصابهم الشك، فنظروا إلى من أتى بي إلى هذا المنزل بنظرة متعجرفة، قبل أن يحدقوا بي بنظرات تبدو وكأنها نظرات شخص رأى مرحاضًا مليئًا بالبراز أمامه، فقالوا لمن يعتقد أنه صديقي: "من هذا!!".

أجابهم ضحيتي خاطف الأطفال وهو ينظر لي بحب، ولكني لاحظت نبرة القلق في صوته وذلك نتيجة لتلعثمه في الكلام حين قال: " إنه... صديقي، لا تقلقوا، سيعمل معي من الآن، سيكون كالمساعد بالنسبة لي". ظلت ملامحهم تجاهي تدل على الغرور والكبرياء، بل وظلوا يحدقون بي بوجوه يملؤها الشك وهم صامتون، لذلك أردت أن أكسر حدة الصمت، فحركت وجهي إلى الفتى المصاب بمتلازمة داون بجواري، ثم ضحكت وقلت له: "أنظر إلى رفقائك". نظر الفتى لهم باكيًا عليهم، فزادت قوة ضحكتي، ثم قلت بلهجة ساخرة أحاول بها تمثيل الخوف مجددًا: "قل وداعًا، سيموتون!!".

في هذه اللحظة تحول بكاؤه إلى صراخ عنيف ومزعج، بينما يبادل صراخ الفتى ضحكاتي التي كادت تجعل رؤوس الأطباء تنفجر، ليثير أحد الأطباء غضبًا، قبل أن يبدأ بالاقتراب من الفتى المصاب

بمتلازمة داون لكي يبرحه ضربًا ويجعله يصمت، وحينما اقترب بشكل كافٍ من الفتى وأمسك بملابسه، أخرجت مسدسي من داخل قميصي وأمسكت برأسه قبل أن يضرب الفتى ضربة واحدة، ثم همست في أذنه قائلًا بثقة وكبرياء: "لقد قلت للفتى سيموتون، وأنا شخص يفي بوعوده يا دكتور". لينفجر رأس الطبيب بعدما ضغطت زناد مسدسي، ثم يغرق وجهي بدمائه.

ارتعب الطبيب الآخر وكاد يهرب لكني أسرع منه، حيث أصبته في رأسه بالرصاصة الثانية من مسدسي ليسقط على الأرض ميتًا على الفور بجانب خاطف الأطفال الذي تناثرت دماء الطبيب على وجهه. حينها نهضت من مكاني، ثم نظرت للفتى المصاب بمتلازمة داون قائلًا له بسخرية: "ماتوا". فلم يسمعني، لأن صوت الرصاصة ما زال في أذنه، وعلامات الاندهاش مما حدث ظاهرة على وجهه بوضوح هو وأختيه. نظفت وجهي من دماء الطبيب بقميصي، ونظرت إلى خاطف الأطفال الذي كان يقف كالتمثال المفتوح فمه، وكأنه تمثال يُعبر عن الصدمة والشعور بالخذل، فهو يعتقد أنني خذلته أو خنته، تفهمت نظرته وثباته لأن شخصًا مثل هذا لم يدخل في حياته صديق من قبل، لذلك عندما رآني وعلم أنني من آكلي لحوم البشر فرح وعم السرور بداخل قلبه، ربما لأنه اعتقد أنني الشيطان المذنب الحزين مثله.

لم أكن أعلم كيف أخبره أنه وجبتي الدسمة القادمة، فاقتربت منه ببطء، ثم وضعت يدي بخشونة على كتفه، قبل أن أروي له قصة قصيرة مثلما تروي الأمهات القصص لأطفالهن قبل النوم، فقلت له

بلهجة هادئة: "في ليلة رأيت بعيني كلبًا يأكل لحمًا بشريًا لإطاعة أوامر سيده في تنفيذ الجريمة الكاملة وإخفاء أي دليل على حدوث جريمة بشكل نهائي، وبعد تنفيذ الجريمة لم يشعر سيد الكلب بأي ذنب، أما عن الكلب فكان يأكله الذنب من داخله وينهي عليه رويدًا رويدًا، لقد تألم الكلب بقوة الذنب حتى مات بجانبي، وذلك هو المغزى من القصة يا صديقي، أنت الكلب في هذه الرواية، وسأحررك من ذنبك بالألم حتى الموت، أنت الوجبة الشهية اللذيذة المطبوخة ببعض التوابل التي تدعى بالخطايا والذنوب، والآن قد حان وقت النوم".

عدت إلى الخلف ببطء بينما أراقبه، حتى وصلت إلى الطاولة التي يوجد بها المعدات التي يستخدمونها الأطباء، فأخذت حقنة من المخدر واقتربت من خاطف الأطفال، لأجده مستسلمًا فاردًا يده، ينظر لي بنظرة بها شموخ، قبل أن يقول بصوت كاره ووجه مرسوم عليه ملامح الكبرياء: "أنت من سيأكل اللحم، إذن أنت الكلب في قصتك يا يوسف!!". علمت أنه يريد أن يُهينني فقط فوصفني بالكلب، لكني لا أعتبر كلمة كلب إهانة، لذلك أكملت حديثي بنبرة ساخرة وقلت له بوضعية رافع القبعة بينما اقترب منه: "أقدم لك شكري، لقد وصفتني بالوفاء الآن، لكن هل تعتقد أن هذا حقيقي!! هل تراني وفيًا حتى بعد ما حدث وما سيحدث قريبًا لك!! ماذا عن صداقتنا؟!، هل كنت الصديق الصالح لك؟!".

ضحك وكأنه يبادلني السخرية، قبل أن يمسك بيدي ويخبرني: "احقني بالمخدر". أومأت له برأسي، قبل أن يتسخ حذائي بدماء

الأطباء السائلة على الأرض، لقد كانت الدماء تجري على الأرض كجريان الأنهار حتى كادت تخرج من المنزل، فعلمت أن هذا ليس الوقت المناسب لأحقنه بالمخدر، فأخبرته بسخرية "ليس الآن، عليك أن تعمل ككلبي المطيع أولًا، أحتاجك في مهمة". تعجب من كلامي وسألني: "ماذا تقصد؟!". فنظرت إلى جثث الأطباء وقلت له: "احملهم واذهب لدفنهم بداخل الحفرة الكبيرة في الخارج، تلك الحفرة التي يوجد بها الكثير من الأطفال الموتى، هل تعلم أين هي؟!".

شعر بالحزن من كلامي عندما أخبرته عن الحفرة والأطفال الموتى، فرفع رأسه ببطء تجاهي بعدما كان خافضها، قبل أن يخبرني سائلًا: "ما الذي يجعلك على يقين أنني لن أهرب". تحركت للخارج تجاه باب المنزل، ثم ضحكت بينما رأسي متجهة للخارج، قبل أن أخبره متعجبًا سؤاله: "أنا من يحمل السلاح، هذا ما يجعلني واثقًا من عدم هروبك".

بعدها خرجت من المنزل متجهًا لسيارة خاطف الأطفال التي أعلم تمامًا أن بداخلها خزان من الوقود، ودخلت السيارة لأستريح قليلًا، فجلست بداخلها وأخذت أغني، ثم أشعلت سيجارة حتى ينتهي خاطف الأطفال من دفن الأطباء، وعندما انتهى أخذت خزان الوقود وخرجت من السيارة تجاهه، فوجدته واقفًا أمام الحفرة، ينظر لأكثر من عشرين طفلًا مدفونًا بداخلها وهو يبكي بحرقة وكأنه طفل منهم. لقد كان هناك أطفال بدأت تتحلل أجسادهم، وهناك من تحول جسده للون الأزرق، وهناك من ما زالت الدماء متواجدة على جسده، وهناك من أصبح عظامًا دون لحم أو جلد. وضعت يدي على ظهره

لأني شعرت بالشفقة تجاهه، قبل أن أحقنه بالمخدر دون أن يلاحظ، فأصابه الدوار وسقط أرضًا، لكنه لم ينم بل ظل مستيقظًا، لم أهتم، فبدأت في سكب الوقود بداخل الحفرة، ثم ألقيت بسيجارتي بالحفرة لحرق جميع الجثث، بعدها دخلت المنزل لأنادي على الثلاثي داون ليأتوا معي، وعندما أتوا خرجت من المنزل وحملت خاطف الأطفال الذي كان ما زال مستيقظًا على كتفي متجهًا به لسيارته، ثم أجلسته في المقعد الأمامي بجواري، فأسند برأسه على زجاج النافذة، قبل أن يجلس الثلاثي داون في المقعد الخلفي للسيارة استعدادًا للرحيل.

لقد كنت أحاول تشغيل السيارة لكنها كانت مُعطلة، وذلك ما جعل شيئًا لم يكن في الحسبان يحدث، وهو أن خاطف الأطفال ظل ينظر إلى النار الخارجة من الحفرة من خلال نافذة السيارة، قبل أن يبدأ في الصراخ ولكن بصوت خافت وضعيف للغاية، لقد باتت علامات الذعر تظهر على وجهه، مما جعلني أقترب منه بجسدي لأسأله: "ماذا يحدث؟!". ليخبرني بصوت بالكاد سمعته: "إنهم يخرجون من الحفرة والنيران تمسك بأجسادهم، إنهم يريدون النيل مني، اهرب... اهر.. اهر.. اهرب أرجوك". كان لسانه متلعثمًا وجسده يرتعش بقوة كما لو ضربته صاعقة، فسألته بوجه يمثل التعجب "من هم؟!".

حاول أن يمسك بقميصي لكنه فقد القدرة على تحريك يده، ليخبرني بنبرة جعلتني أشفق عليه: "أشباح الأطفال". بنفس الوجه الذي يحاول تمثيل الاستعجاب أخبرته: "أين هم؟! أنا لا أراهم! ماذا يرتدون؟!". ليجيبني بآخر جملة قبل أن ينام قائلًا: "يرتدون

فساتين بيضاء، وهم قادمون تجاه السيارة ببطء للنيل مني، أحدهم على بُعد خطوتين من السيارة، ينظر لي بكره ويريد أن يمسك بي لأحترق معه، هل ترى؟! هل ترى ذلك الفتى الصغير الذي ينزف من كبده!!، هل ترى كيف ينظر لي، اهرب يا يوسف بسرعة أرجوك، إنهم يحدقون بي، حتى تلك الفتاة ذي الوجه الشاحب المشقوق صدرها، إنها تريد قتلي، اهرب يا يوسف، إنهم بدأوا يحاوطون السيارة، اهرب أرجووو.... ".

راح في النوم، فأخذت أنظر له بحزن ثم قلت " لا تطاردك أشباح الأطفال، بل تطاردك خطاياك يا رجل". بعدها نظرت للثلاثي داون وقلت متعجبًا: "يرتدون فساتين بيضاء؟! ربما هم من أهل الفردوس". ليجيبني الفتى من الثلاثي داون ويقول: "أريد أن أرتدي فستانًا أبيض، أريد الذهاب للفردوس!!". وضعت يدي على خده وأخبرته بسخرية: "لا يوجد رجال يرتدون فساتين بيضاء، سأجلب لك فستانًا أسود ليليق بذكوريتك". ثم نظرت للطويلة من الثلاثي داون وأخبرتها أنها من سترتدي الفستان الأبيض، والقصيرة أخبرتها أن نصيبها سيكون فستانًا ورديًا، سألتني إحداهن، من أنت؟ فأخبرتها: "أنا أبوكِ".

ومن ثم أتيت إلى هنا ومعي خاطف الأطفال والثلاثي داون، لقد سجنت خاطف الأطفال بداخل المطبخ لفترة طويلة وهو مُقيد ومُكبل بالسلاسل، وهذا أقسى أنواع الألم، أن ينتظر الموت، وأن يتخيل نفسه طوال هذه الفترة وهو يعاني وأنا أمزق في جسده ببطء وبرود، فهذا هو الألم الحقيقي، هذا الألم الذي سيطهر روحه

ويجعلها خفيفة حين أبدأ بتقطيعه إربابًا، لأن مثلما قُلت سابقًا الروح الممتلئة بالذنوب ثقيلة لا تخرج من الجسد بسهولة وسلام، وها هو أمامكِ الآن، لحمه على الطاولة وأنتِ تأكلين منه.

هل تعلمين؟! ما زلت أتذكر صراخه بينما أقوم بقطع أطراف جسده وهو حي بمساعدة الثلاثي داون يوم أمس، وما زلت أتذكر الشيء المريب الذي لاحظته عندما بدأت في تعذيبه وذبحه، وذلك الشيء هو عبارة عن ندبة قديمة جدًا في جسده ناحية كليته، هل تفهمين ما أقصدا لقد تم خطف خاطف الأطفال وهو صغير، وتم سرقة كليته من جسده، لقد عاش رعبًا حقيقيًا في طفولته فظل ماضيه يلاحقه، وظل يتذكر خاطفه حتى أصبح هو الخاطف بنفسه، وهذا بالتحديد ما أردت أن أخبركِ به منذ بدأت في حكي هذه القصة بأكملها، أريدكِ فقط أن تفهمي أنه لا يوجد فاسد على الأرض إلا وإذا كان ماضيه ما جعل منه هذا الفاسد يا ميرنا».

الفصل السابع

الشر الأعظم

أنهى يوسف القصة التي لم تصدق ميرنا أي كلمة منها، وبالرغم من ذلك إلا أنها بدأت تشعر بالاشمئزاز، حيث تركت طبقها وبه قطعة كبيرة من اللحم، فهي لم تصدقه ولم تصدق أنها تأكل لحمًا بشريًا ولكن مجرد التخيل جعلها تشعر بالقرف الشديد حتى باتت على وشك أن تتقيأ. بهدوء طلب منها يوسف أن تكمل أكلها، لتجيبه وهي تنظر للطبق قائلة بصوت هادئ: "لقد شبعت". ابتسم لها يوسف، ثم سألها: "ما الشيء الذي أفادك في القصة؟".

بسخرية أجابته وعلى وجهها ملامح عدم التصديق: "حسنًا، لقد علمت أن لديك سلاحًا". ضحك يوسف، ثم وضع يده بداخل قميصه، ليخرج مسدسه ويضعه على الطاولة أمامها، قبل أن يتكلم ذلك الفتى ذو الفستان الأسود من الثلاثي داون ويقول "سيموتون". ثم راح يضحك بجنون وعفوية، ليبادله يوسف الضحك.

أما عن ميرنا، فلقد بدأت بالفعل تشعر بالخوف ويناوبها القلق، خاصة بعدما بدأ الفتى بتمثيل كيف فجر يوسف رأس الطبيب أمامه، لقد كان يمثل ويضحك وهو جالس على كرسيه ويأكل اللحم، وهذا ما جعلها تبدأ في الشك أن تلك القصة خلفها شيء من الحقيقة، لكنها حتى تلك اللحظة لا تصدق أنها أكلت إنسانًا. حاولت ميرنا أن لا تظهر شكها، فراحت تضحك معهم بهيستيرية، ثم بدأت الفتاتان من الثلاثي داون بالضحك بهيستيرية أيضًا، حتى مرت الدقائق وتوقف

الضحك، فحاول يوسف أن يتحدث مع ميرنا وما زال وجهه متأثرًا بالضحك، مُحمرًا وتجاعيد جبينه واضحة، لكنه استطاع الحديث وقال لها: "أخبريني، هل ترين أنه يستحق ما حدث له؟!".

أجابته ميرنا بسخرية ناكرة للقصة: "نعم، يستحق، إذا كنت مكانك لقتلته وأكلته أيضًا، لقد فعلت الصواب الذي وجب عليك فعله". هذا ما قالته، وذلك لخوفها من تصديق تلك القصة، فقامت بالنفي وقالت له إذا كنت مكانك لأكلته، وكأنه قام بطبخه ثم أكله منذ عام وليس من قريب، وتلك هي طريقة العقل الباطن لنفي شيء لا يريد تصديقه، وهو النكران التام.

أما عن يوسف فنهى هذا النكران وهو ينظر في عينيها بنظرته الثاقبة، وبصوته الهادئ الذي يشبه صوت الحكماء قال: "أنتِ أكلتيه بالفعل يا ميرنا". قبل أن يمد يده على تلك القماشة البيضاء على الطبق العملاق المتواجد في منتصف الطاولة، ومن ثم يسحب القماشة ليظهر ما تحتها، وهو عبارة عن رأس رجل مقطوعة، أو بمعنى أوضح رأس خاطف الأطفال مقطوعة. لم يكن ذلك فقط ما يوجد أسفل قطعة القماش، بل وُجد تفاحة حمراء، ولكنها موضوعة بداخل فم رأس خاطف الأطفال المذعور كما لو أن يوسف قد قام بذبح خنزير وليس إنسانًا، وهذه الرأس هي رأس الشخص الذي رأته ميرنا في الرسومات سابقًا وهو يتم تقطيعه بأيدي الثلاثي داون.

لا شيء يستطيع أن يصف شعور ميرنا سوى كلمة هَوْل، فظلت صامتة ولا تتحدث، تنظر إلى الرأس بوجه ثابت كما لو أنه مُحنط، فلا يتحرك شيء في وجهها سوى عينيها التي راحت تنزف الدموع

وحدها، وحنجرتها التي راحت تتراقص نتيجة ابتلاعها لعابها للعديد من المرات وذلك لفزعها، ظلت تنظر إلى الرأس في صدمة، ثم تنظر إلى يوسف بصدمة مضاعفة لصدمتها، فلقد كانت تراه الخير الذي سيجعلها تنتصر على الشر في نهاية المطاف، أما في تلك اللحظة فهي تراه الشر الأعظم.

استمرت على هذه الحال لعدة دقائق بوجه ثابت وعين تبكي ولُعاب يمر من خلال المريء لمعدتها، حتى بدأت تتكلم بلسان متلعثم متردد وخائف، فبنبرة خافتة قالت "هل هذه الرأس حقيقية؟!". لم يجبها يوسف بفمه، بل أجابها برأسه وأومأ بها، لتبدأ ميرنا في الانهيار والبكاء، وراحت ملامح الذعر والفزع تظهر على وجهها، ثم بدأت شفتاها ترتعشان، لقد بدا عليها أنها تريد أن تتحدث لكن لسانها قد عقد من شدة رعبها، فظل حالها على ما هو عليه حتى سقطت برأسها على الطاولة فاقدة الوعي، بل وأصبحت رأسها بجانب طبقها المتبقي فيه قطعة من لحم خاطف الأطفال.

مر الكثير من الوقت وهي على نفس الحال، حتى فاقت، لتجد بجانبها أحد الثلاثي داون يأكل قطعة اللحم المتبقية منها، هلعت وأصيبت بالصرع، وكأنها عندما استيقظت استيقظ معها كل جزء في جسدها، حيث نهضت مسرعة من مكانها وهي تنظر ليوسف بكُره وتسأله بلهجة ثائرة غضبًا: "هل أكلت إنسانًا؟!". لينظر لها يوسف بنظرة متعجب بها سؤالها بإشارة منه على أنها بالفعل أكلت إنسانًا، ليتلاشى صمودها الذي لم يستمر لدقائق، فأقدامها فشلت في أن تحملها، بل أصبحت أقدامها هشة، وكادت تسقط على الأرض، وكانت

غير متزنة لكنها ظلت تحاول أن تمثل الجمود أمام يوسف، أما يوسف فقد لاحظ ضعفها وقلة حيلتها من وجهها، فحاول النهوض من مكانه، ولكن قبل أن ينهض من كرسيه صرخت ميرنا صرخة عارمة قائلة بصوت بدا عنيفًا لكنه مرتعب: "اجلس مكانك!!".

أطاع يوسف أمرها ضاحكًا ثم جلس مكانه، ليجلس الثلاثي داون في أماكنهم كذلك، بل وكانوا يبدون كما لو أنهم أطفال مهذبون أمام معلمتهم. كادت رأس ميرنا تنفجر من التفكير المفرط، لا تعلم ماذا تفعل، تنظر حولها كالمطلوب رأسها، حتى وقعت عينها على مسدس يوسف على الطاولة. لم تتردد لحظة، مدت يدها المرتعشة على الطاولة وأمسكت بالمسدس الذي بالكاد استطاعت أن تحمله لثقل وزنه، ثم نظرت للثلاثي داون بعين مُحمرة على وشك البكاء، لتمسك بالفتى ذو الفستان الأسود بمسكة عنيفة، قبل أن تضعه أمامها مثلما يضع الفارس درعه أمامه، ثم وضعت المسدس على رأسه وقالت ليوسف بأمر وبنفس الصوت الذي يبدو وكأنه عنيف واثق لكنه خائف مرتعشًا: "افتح باب هذه الغرفة اللعينة!!". بهدوء شديد قام يوسف من كرسيه وهو رافع يديه الاثنتين كالمستسلم، على أي حال فهو منذ استيقاظها مُستسلم لكل ما فعلته أو ستفعله، كما لو أنه يعلم أن ذلك سيحدث وينتظره بالفعل، لربما كان محقًا حين قال أن الشجاعة تأتي نتيجة للخوف، وها هو يشاهد شجاعتها الخائفة الآن.

ذهب يوسف تجاه الباب كما أمرته ميرنا ليفتحه، قبل أن تأمره مجددًا بالعودة إلى كرسيه ليجلس بجوار الفتاتين من الثلاثي داون، ليتحرك يوسف بعدما فتح الباب بنفس هدوء الأعصاب تجاه الكرسي

الخاص به، ثم جلس مكانه مبتسمًا لها بابتسامة خبيثة ماكرة. خرجت ميرنا من الباب، وبدأت تصعد السلالم التي ستخرجها من تلك الغرفة المثيرة للاشمئزاز بداخل القبو، لكنها عندما خرجت خالف أمرها يوسف والفتاتين من الثلاثي داون، حيث نهضوا من كراسيهم ليتحركوا خلفها، بل ظلوا ينظرون لها وهم يضحكون على مظهرها وهي تمسك بالفتى ذا الفستان الأسود وتحاول أن تصعد به السلالم بأقدامها التي بدت كالزلزال من رعشتها، وها قد فضحتها أقدامها حين سقطت وهي تصعد السلالم من شدة هلعها، لكن على الرغم من سقوطها الذي بات مضحكًا إلا أنها لم تترك المسدس ولا الفتى.

في ذلك الحين نظر يوسف لها وهو يضحك أمامها قائلًا بصوت ساخر: "سأعطيكِ محاولة أخرى، انهضي لتكملي طريقك". ثم قهقه. تمالكت ميرنا عينيها التي كانت على وشك البكاء، فنهضت بصعوبة، حيث تشبثت بالفتى ذي الفستان الأسود حتى كاد يختنق، لتضع المسدس أمام رأسه بعنف قائلة ليوسف والفتاتين من الثلاثي داون بانفعال ولهجة منفجرة غضبًا "تراجعوا".

لم يتراجع يوسف، بل ظل يصعد السلالم ببطء وبرود كأعصابه الباردة ليقترب منها، أما عنها فلقد راحت تتراجع للخلف بسرعة كسرعة أنفاسها، حتى سقطت على السلالم مجددًا هي والفتى ذو الفستان الأسود. حاول يوسف أن يمثل دور المشفق عليها، لذلك قال بصوت بدا وكأنه حزين لكنه صوت متعجرف مغرور: "انهضي وأكملي طريقك، لن أعطيكِ فرصة ثالثة".

نهضت ميرنا بيأس وبطء، وظلت ممسكة بالفتى والمسدس حتى

خرجت من القبو، ليلاحقها يوسف والفتاتين من الثلاثي داون حتى وصلت إلى الباب الذي سيخرجها من المنزل، لتتفاجأ وهي تفتح الباب أنه مغلق بالمفتاح، فالتفتت ليوسف الذي وجدته نائمًا على الأريكة وينظر إلى السقف بينما السيجارة في يده، يدخن بشراهة بينما يدندن بألحان غريبة ومريبة ويصفر بفمه. انفعلت ميرنا بجنون، لتبدأ بالصراخ قائلة ليوسف: "إن لم تعطني المفتاح سأقتله". ثم أمسكت الفتى من فستانه بعنف، لم يبالِ يوسف، ولم يعطها أي ردة فعل ولم يلتفت لها حتى، لم يفعل شيئًا سوى أنه قال: "جميعنا موتى على الأرض، اقتليه".

ارتفع صوتها أكثر حين أخبرته "سأقتله، أتكلم بجدية". ليجيبها باستفزاز قائلًا: "اقتليه". في ذلك الحين التفت لها أخيرًا، ليجدها ثابتة كالتمثال وعينيها مغمورة بالدموع، لقد بدأت تتنازل عن غرورها وتبكي لتظهر ضعفها، أما عن يوسف فلم يظهر أي عطف تجاه ضعفها، حيث قال لها بنبرته الهادئة: "كنت سأصدقكِ إن لم يتحدث المسدس في يدك، هل ترين كيف يرتعش المسدس؟! إنه يقول أنكِ كاذبة يا عزيزتي". أدار وجهه مجددًا وأعطى ظهره لميرنا، وهذا ما جعلها تشتعل غضبًا حتى احمر وجهها كما لو أن هنالك بركانًا سينفجر، فصاحت بأعلى صوت، ثم تحكم الغضب بها، وهذا أدى إلى إطلاق الرصاص من المسدس.

سقطت على الأرض بعدما أطلقت الرصاص، ثم انهارت في البكاء عندما رأت قطرات قليلة من الدماء تتساقط على الأرض بجانبها، بكت بسبب اعتقادها أنها لربما تكون قد قتلته بالفعل، لكنها لا تمتلك

تلك القسوة لتقتل، فتلك الدماء هي دماء لشبح أمها التي لا يراها أحد سوى ميرنا، فلا بد أن الهلوسة قد بدأت تهاجمها. لقد علمت ميرنا أن الهلوسة تهاجمها عندما رأت أقدام أمها أمامها وهي ملقاة على الأرض، فأيقنت أن تلك الدماء ليست حقيقية، بل مجرد دماء تتساقط من عيني أمها غير الموجودة والموضوع مكانها عينان لكلب هاسكي. نظرت ميرنا لأعلى، لتجد أمها تنظر لها بخيبة أمل، تبكي الدماء من عينيها الغريبتين، ثم بدأت تحرك رأسها يمينًا ويسارًا بقلب متوجع على حال ابنتها، لتخبرها بنبرة مُشبعة بحنان الأم وغضبها معًا: "أخبرتك أنكِ في طريق لا عودة له، لا يوجد مفر، ولا مجال للهروب، لماذا تفعلين ذلك؟!".

لترد ميرنا وهي ملقاة على الأرض بقلب متوجع كقلب أمها: "أريد أن أخبرك أنني أحبك بطريقتي الخاصة، أريدكِ أن تعلمي أنني كنت أكذب في كل مرة قلت لكِ أنني أكرهك أو أكره كونكِ أمي، أريدكِ أن تعلمي أنني أتمنى أن أرتمي على صدرك، وأن أتذوق طعم عناقكِ الذي رفضته دومًا بغبائي ولو لمرة واحدة، أريد أشياء كثيرة كان يجب أن أفعلها قبل فقدانك". نظرت الأم بعيدًا وتنهدت، ثم أعادت نظرها إلى ابنتها وأخبرتها بنبرة بها حسرة عما يحدث لصغيرتها التي أُقيمت في بطنها تسعة أشهر: "لا يوجد طريق للعودة يا ميرنا!!".

زادت كثافة دموع ميرنا، لتخبر أمها ببكاء يشبه بكاء الأطفال: "لا تقولي هذا، لا تخيفيني مثلما يُخيفني العالم، لقد كنتِ أماني الوحيد". أجابتها أمها بعنف مثلما تفعل الأمهات لتأديب أبنائهن: "انهضي من الأرض، لم أرَكِ بهذا الضعف من قبل". حاولت ميرنا

النهوض لكن أقدامها خانتها، فسقطت مجددًا، قبل أن تعيد النظر إلى أمها وتقول: "منذ موتك وأنا فقدت قوتي، فقدت نفسي، فقدت أماني، فقدت عقلي ولكني سعيدة بسبب فقداني لعقلي، فإذا كنت بعقل متزن لن أستطيع أن أراكِ يا أمي".

قاطع يوسف حديث ميرنا مع شبح أمها غير الموجود، لكنه كان يتكلم هذه المرة بشفقة حقيقية وهو جالس على الأريكة يتأمل ميرنا وهي تتحدث مع شيء لا يراه، ليخبرها ويقول: "لا وجود لأمك في منزلي يا عزيزتي، أنكِ تتحدثين مع خطيئتك التي ستظل تطاردك إلى الأبد، لقد علمت ما هي خطيئتك يا ميرنا، لقد كنتِ ابنة سيئة للغاية، عاقبك العالم ببشاعته فعاقبتِ أمك بقساوتك، هل تعلمين؟! لو كانت أمي حية الآن، فلا أعلم إذا كنت سأكون ابنًا سيئًا مثلك أم سأهرب من بشاعة العالم لحضنها الذي لم يكن دافئًا على الإطلاق، لا أتذكر شيئًا جيدًا لأمي، لكني ربما كنت بحاجة لأم في حياتي حتى وإن كانت سيئة مثل أمي". اختفت والدة ميرنا من أمامها بعدما استمعت لكلام يوسف، ليكمل يوسف حديثه ولكن هذه المرة للفتى ذا الفستان الأسود الذي هرب وجلس بجواره على الأريكة فور إطلاق ميرنا للرصاصة، فأخبره بلغة الأمر: "أعطيها المفتاح".

نفذ الفتى أمر يوسف، وبدأ يرفع فستانه حتى ظهر لباسه الداخلي، ثم دخل يده بلباسه ليخرج المفتاح، ليلقي به على الأرض بجانب ميرنا، لتستطيع ميرنا أخيرًا أن تلتقط أنفاسها بهدوء، ثم بدأت تحاول النهوض مجددًا حتى أصبحت أقدامها راضية عنها فنهضت،

قبل أن تقترب من الباب في محاولة منها لفتحه، لكن يدها التي لم تتوقف على الاهتزاز قد منعتها من فعل هذا. اقترب يوسف ناحيتها ببطء وأمسك بيدها، ثم أخذ منها المفتاح وقام بفتح الباب لها قائلًا: "أنتِ حرة الآن".

ركضت ميرنا لخارج المنزل، فوجدت الأمطار تهطل من السماء بكثافة، والرياح شديدة لدرجة أن شعرها المبتل كان يتطاير مع الهواء، حاولت أن تبتعد قدر المستطاع عن يوسف ومنزله، قبل أن ينادي يوسف باسمها، لتلتفت خلفها وتجده بداخل المنزل وبجانبه الثلاثي داون، يتأملها بنظرة ثاقبة عميقة، قبل أن يقول لها بلهجة واثقة بها شموخ: "أريدكِ أن تعلمي شيئًا واحدًا فقط، إذا أردتِ إنهاء شر في هذا العالم فعليكِ الاستعانة بشر أعظم منه". ظلت ميرنا تحدق به بخوف، قبل أن يكمل حديثه ويخبرها: "كيف ترينني يا ميرنا؟". ظلت صامتة أمامه تحت الأمطار، لكنها قالت بداخل نفسها: "الشر الأعظم".

ابتسم لها يوسف بابتسامته المعتادة، قبل أن يغلق الباب، وكما لو كانت ميرنا تحررت فعلًا عندما أصبح بينها وبين يوسف باب مغلق، حيث استطاعت أخيرًا أن تخرج من فمها ما بداخل معدتها من لحم بشري، لتقوم الأمطار بوظيفتها وتنظف ما أخرجته ميرنا من معدتها على الأرض، وبعدما أصبحت معدة ميرنا نظيفة بدون لحم بشري، بدأت تتحرك بسرعة رهيبة بعيدًا عن منزل الشر الأعظم (يوسف).

الفصل الثامن

عقل مضطرب

تمشي ميرنا وسط الأمطار بينما صوت الرعد يصيب جسدها بالقشعريرة ويجعل أكتافها تقفز رهبة من هيبته، تحاول أن تهرب قدر المستطاع من تلك المنطقة التي يعمها السكون والتي يسكن فيها يوسف، تلك المنطقة التي تبدو كمدينة للأشباح، لم يكن صوت الرعد وحده هو ما يرعبها، ولا ضوء البرق هو ما يجعلها في وجس حتى راحت تلهث، بل ما جعل أوصالها ترتعد هو صوت نباح الكلاب من حولها، فميرنا تعلم تمامًا أن في طريقها للهروب حاليًا لا يوجد يوسف ليُخيفها، بل من سيتولى هذه المهمة هو عقلها، الذي سيبدأ يخلق لها أشياء غير متواجدة كما يجعلها ترى أمها دائمًا.

تمنت بكامل فؤادها أن يبقى الأمر كما هو عليه، مجرد أصوات لنباح كلاب حولها، وألا تعلو تلك الأصوات، وألا تظهر الكلاب من العدم، ولكنها بدأت تسمع صوت النباح بوضوح، صوت صراخ لكلاب وكأنهم ينادونها باستغاثة، هلعت من صوتهم الذي بات واضحًا أنه قادم من الأعلى فنظرت فوقها، لتجد أن هناك كلاب هاسكي تسقط من السماء مع المطر، أصابها ارتياع فصرخت وسط الأمطار، خاصة عندما وصلت الكلاب إلى الأرض، فعندما اصطدموا بالأرض خرجت عيونهم من جوفها بسبب قوة الصدمة التي بدت كقوة سقوط نيزك، بل وتحركت العيون ناحية ميرنا حتى أصبحت محاطة بثمانية عيون لأربعة كلاب هاسكي، عيون زرقاء كلون السماء التي تتمنى أن

تأتي مرافقة للصباح لتنير لها الظلام حتى تقلل من حدة ذعرها.

ثبتت مكانها، وراح جسدها يرتعش وهي تنظر إلى الكلاب المتساقطة التي تلفظ أنفاسها الأخيرة، ومن ثم تنظر للعيون من حولها بأنفاس متسارعة، إنها تحاول إقناع نفسها أن كل شيء ما هو إلا خيال يصنعه عقلها، تحاول التظاهر بالجمود والصلابة أمام نفسها، لكن صمودها لم يبقَ لوقت طويل، لتبدأ في الركض مسرعة كسرعة مياه الأمطار المتساقطة على رأسها، وذلك حدث عندما أغلقت عينيها لعدة ثوانٍ ثم فتحتها، لترى أمامها ذلك الطيف الأسود ذا العيون الحمراء الذي يرتدي بذلة سوداء والذي ظهر لها في الحلم مسبقًا. لقد كان واقفًا بين جثث الكلاب، يحدق بها بعيونه الحمراء التي لا يظهر سواها وسط الظلام، أقدامه ليست على الأرض فبدا لها كالشبح الطائر كما ظهر لها مسبقًا.

لم يكن ركض ميرنا هربًا منه، بل ركضًا خلفه، فعلى الرغم من أنها تعلم تمامًا أن كل شيء ليس حقيقيًا، إلا أن مظهره استفزها، خصيصًا بسبب مخيلتها التي ما زالت تقنعها أن ذلك الطيف هو الذي تبحث عنه، هو قاتل أمها. طوال الوقت وهي تركض خلفه تتساقط الكلاب من السماء حولها مع الأمطار، ويحدث نفس الشيء، حيث تخرج عيونهم من جوفها نتيجة لقوة السقوط من أعلى، ولكنها لم تبالِ وظلت تركض خلفه حتى سقط كلب أمامها مباشرة، فهذا ما تسبب في حالة من الذعر لها أدت إلى ثباتها، ومن ثم اختفى الطيف من أمامها مبتعدًا عنها بالقدر الكافي الذي يجعلها لا تراه.

أغلقت عينيها بخوف، وراحت تأخذ أنفاسًا هادئة، وعندما فتحت

عينيها وفاقت مما تعانيه من هلوسة وجدت أنها قد خرجت من تلك المنطقة التي يسكنها يوسف خلال ركضها. ارتاح قلبها قليلًا، ثم جلست على رصيف بجوارها، وهذا الرصيف فوقه سقف يمنع مياه الأمطار من السقوط عليها، وبعد راحتها بدقائق وجدت رجلًا مر من أمامها يرتدي سترة بنية اللون مصنوعة من الجلد لتحميه من المطر، تعجبت ميرنا، فالوقت متأخر حيث أن الساعة الخامسة صباحًا، ولم تتلون السماء بلونها الأزرق بعد، فمن الذي سيتجول في الشارع في وقت مثل هذا؟! لكن على الرغم من شعورها بالتعجب إلا أن هذا لا ينفي أن قلبها اطمئن ولو بنسبة ضئيلة بوجود إنسان أمامها.

نظرت إلى الأرض بصمت يعبر عن يأسها من جود أي سيارة أجرة أو تاكسي لتعود إلى منزلها، وبينما تنظر إلى الأرض وجدت ذلك الرجل ذا السترة البنية المصنوعة من الجلد يجلس بجوارها، لم ينظر لها، بل نظر أقسى اليمين، تعجبت سلوكه لوهلة لكنها تجنبت الحديث معه حتى لا يذهب.

أخرج الرجل من جيبه علبة من السجائر، قبل أن يخرج سيجارة دون أن يشعلها، في تلك اللحظة شعرت ميرنا باشتياق للنيكوتين، فقررت التحدث مع هذا الرجل الخجول الذي لا يريد أن يريها وجهه كما لو أن وجهه عورة، فوضعت يدها على كتفه وقالت: "هل لي بسيجارة لو سمحت؟!". لم يجبها، ولم يعطها سيجارة، بل أعطاها وجهه بطريقة مرعبة، حيث التفت لها برأسه فقط، فتحركت رأسه ودارت بمئة وثمانين درجة، كما لو كانت رأسه عبارة عن رأس مركبة على الجسد ولست رأسه الحقيقية، هي بالحقيقة لست رأسه

الحقيقة، بل هي رأس خاطف الأطفال المذعور المتواجد في فمه تفاحة حمراء.

أصابتها حالة من الفزع، لتفتح فمها عن آخره، قبل أن تنهض من مكانها مسرعة، ثم عادت للركض مرة أخرى، حتى أصبحت بعيدة عنه. في ذلك الحين وجدت أمامها نجدتها، وهي سيارة أجرة، أوقفتها مسرعة ودخلت السيارة بجسد مرتعش جالسة في المقعد الخلفي، ليسألها السائق عن العنوان، فأخبرته عنوانها بصوت مرتجف وعينين متسعتين عن آخرهما، قبل أن تسند رأسها على زجاج نافذة السيارة بجانبها لتريح عقلها مما يحتوي من عبث وفوضى بداخله. أما عن المصائب فلا تأتي فرادى، فلقد لاحظت ميرنا أمرًا عجيبًا، وهو أن مهما تحركت السيارة ودخلت في شوارع وراوغت المباني تعود إلى نفس المكان كما لو أنها تتحرك في دائرة لا بداية لها ولا نهاية، فدائمًا ما تعيدها السيارة أمام منزل يوسف. شعرت ميرنا بالغضب من عقلها الذي لم يرحمها بعد، فنظرت إلى السائق من خلال المرآة المتواجدة فوقه، لتجده جسد إنسان برأس خاطف الأطفال، والتفاحة في مكانها كما هي في الفم. في تلك اللحظة لم تستطع ميرنا تمالك أعصابها، فأخذت تضحك بهيستيرية، وذلك لقلة حيلتها بسبب عدم وجود أي مهرب لها بداخل السيارة، فكيف ستركض بعيدًا؟! هل ستقفز منها؟!

ظلت تضحك بطريقة هيستيرية وهي تنظر له لعدة دقائق مثلما يضحك المرء عندما يخبره أحد بمزحة، قبل أن يقطع ضحكها صوت عظيم أعلاها، لقد خرج الصوت من سقف السيارة والذي هو أشبه

بسقوط حجر عملاق عليه، وهذا أدى إلى وقوف السائق في منتصف الطريق الذي سيكون في نهايته بالتأكيد منزل يوسف. نزلت ميرنا من السيارة لترى ماذا يحدث، فوجدت كلب هاسكي يحتضر بينما كان ساقطًا على سقف السيارة والدماء تسيل من مكان عينيه غير المتواجدتين. زاد ضحكها بسبب بؤس ما تراه، وراحت تخبط يدها على فخذيها بيأس ثم قالت ساخرة من نفسها: "ها نحن نعود لنقطة البداية مجددًا!". ولكنها أخطأت الظن، فلم تكن نقطة البداية على الإطلاق، لأن هنالك حافلة قادمة نحوها بسرعة رهيبة من خلفها قد اصطدمت بها.

***

استيقظت ميرنا من نومها مفزوعة، نعم، لقد كانت تحلم، فعندما خرجت من منزل يوسف، وأغلق يوسف باب منزله أمام وجهها، تقيأت، وبعدما تقيأت لم يحتمل جسدها ما حدث في الساعات القليلة الماضية، ففقدت وعيها. أما عن استيقاظها فهو يائس، حيث حل الصباح مكان الليل، وتوقفت السماء عن البكاء بأمطارها، بينما ملابسها متسخة ورائحتها نتنة تشبه رائحة خليط من الجبن العفن مع البول والطين. نهضت من مكانها، وعلمت أن كل هذا مجرد حلم فضحكت، لأنها فهمت الحلم، فهمت أن معنى الكابوس أنها تحركت في طريق لا عودة له، فنظرت إلى منزل يوسف وأكملت ضحكها الهيستيري مثلما كانت تضحك في الحلم، ثم بدأت في التحرك ببطء وإرهاق لتخرج من تلك المنطقة التي يسكنها يوسف، وتعود إلى منزلها.

***

عادت ميرنا إلى منزلها أخيرًا، وأول شيء فعلته هو أنها دخلت غرفتها لتفتح دولابها وتأخذ ملابس نظيفة حتى تدخل الحمام لتستحم. بدأت بالبحث في ملابسها حتى وجدت فستانًا قصيرًا يعلو الركبة بقليل، فضي اللون ولامع ، وهو ذلك الفستان الذي صنعته لها والدتها منذ زمن ليس ببعيد، بكت بحرقة، لتتساقط دموعها على الفستان وهي تمسك به، ليس لأنها تذكرت نادية فحسب، بل لأن لهذا الفستان قصة حزينة تحملها ميرنا بداخل قلبها، قصة تجعلها تشعر بالذنب أو تشعر بخطيئة تحملها في حق أمها، حيث أنها تذكرت اليوم الذي قامت فيه صديقتها الثرية بزيارتها في المنزل، حينها قدمت ميرنا وأمها حسن الضيافة، لتبدأ تلك الفتاة في التباهي بثرائها بالتحدث لميرنا أمام أمها عن الأشياء التي تمتلكها وثمنها الباهظ، ومن تلك الأشياء فستان فضي اللون، وهو ذلك الفستان الذي كانت ترتديه، لتلاحظ نادية إعجاب ميرنا الشديد ودهشتها بالفستان، وقد لاحظت أيضًا حسرتها لأنها لا تمتلك ثمنه ولا تستطيع أن تشتري مثله، ولأن نادية خياطة ماهرة، فبدأت في صناعة فستان يشبهه تمامًا عندما عادت صديقة ميرنا إلى منزلها.

حينها لم تتعدَ أيام قليلة إلا واستطاعت نادية أن تصنع فستانًا مثله بالضبط، ثم ذهبت لابنتها لترسم البسمة على وجهها، ولكنها تلقت ردة فعل باردة من ميرنا، حيث أخذت الفستان منها دون النظر إليها حتى، قبل أن تخبرها بابتسامة مصطنعة بينما أرادت أن تظهر لها أنها مصطنعة "شكرًا". ومنذ ذلك اليوم ولم ترتدِ ميرنا الفستان

أبدًا حتى أتى يوم رحيل نادية عن العالم، فلم ترها الأم المسكينة في يوم وهي متزينة بصنع يديها، وهذا هو الشيء الذي جعل ميرنا تبكي بحُرقة عندما سحبت الفستان من الدولاب، لأنها تمنت لو أنها ارتدته ولو لمرة واحدة لتجعل قلب والدتها مبتهجًا مثلما أرادت الأم أن تسعدها. قررت ميرنا أن ترتدي الفستان، وذلك حين استمعت لصوت أمها خلفها، فعلمت أن شبح أمها قد عاد وظهر من جديد بداخل غرفتها التي لا تختلف كثيرًا عن غرفة أمها على كل حال، فأغلقت الدولاب ونظرت إلى السرير من خلال مرآة الدولاب، لتجد نادية جالسة بعباءتها السوداء مربعة الأقدم كعادتها، تغني وتدندن بكلمات أغنية (أمورتي الحلوة) بينما تهز رأسها يمينًا ويسارًا كما اعتادت ميرنا أن تراها عندما كانت على قيد الحياة ولكن الفارق أنها بعيني كلب هاسكي.

ابتسمت ميرنا ابتسامة بها حنين، ثم أمسكت بالفستان وقالت بصوت لا يسمعه أحد: "اليوم سأجعلك سعيدة يا أمي". قبل أن تدخل الحمام لتستحم. انتهت من الاستحمام، فخرجت من الحمام وهي مرتدية الفستان، لتدخل غرفتها وتجد نادية جالسة بنفس الطريقة كما تركتها، فتحركت ميرنا تجاهها ببطء، ثم قالت بقلب حزين يحاول التظاهر بالابتهاج: "أيعجبك فستاني الجديد؟!". قالتها بحماس وهي تدور حول نفسها لكي تظهر لأمها جمال الفستان من جميع الزوايا، قبل أن تذهب تجاه التَّسريحة لتتأمل نفسها أمام المرآة، لتتفاجأ أنها في غاية الجمال والروعة فتتساءل: "كيف لم أرتدِه من قبل؟!".

بصوت مبتهج وقلب مسرور تحدثت نادية وهي تقترب من ميرنا ببطء: "هذه أول مرة أراكِ بهذا الفستان، تبدين كالفراشة يا صغيرتي". بضحكة خجولة التفتت لها ميرنا، ثم رفعت كتفيها لأعلى وقالت بوجه ملائكي يبدو كوجه الطفلة عندما تدللها والدتها: "أحببتِ مظهري به؟". ثم نظرت بعيدًا، وبنفس الوجه الملائكي لكن بلهجة تعيسة وعين باكية أكملت حديثها: "أحببت أنه من صنع يدك". ضحكت الأم، لكن الضحكة لم تكن ضحكة سعيدة، بل ضحكة حزينة، لتترك ميرنا بعدها وتعود لتجلس على السرير، قبل أن تخبرها بصوت حزين مثل ضحكتها: "تمنيت طوال حياتي أن أسمع منكِ جملة مثل هذه، حتى وإن كانت تلك الجملة كاذبة". نظرت ميرنا بعيدًا، ثم أجابت بنبرة بها ندم على ما مضى: "هل تعتقدين حقًا أنني أكرهك يا أمي؟!". لتجيبها الأم قائلة "أعلم أنك تحبينني، لكني أردت الشعور بهذا الحب ولو ليوم واحد في حياتي".

بدأت ميرنا في تحريك رأسها يمينًا ويسارًا بعشوائية، قبل الالتفات لوالدتها بنظرة أرادت بها أن تجعلها تشفق عليها وقالت: "أنا أفعل ما بوسعي لكي تشعري بحبي لكِ، أفعل ما بوسعي لأقول أنني آسفة لكوني ابنة بهذا السوء، أفعل ما بوسعي لكي أستحق أمًا مثلك". صمتت الأم، ثم فردت ذراعيها كالأجنحة لتعانق ابنتها، وهذا ما أدى إلى الفرحة العارمة في قلب ميرنا، لتعود البهجة إلى وجهها من جديد، ثم تركض تجاه أمها التي راحت تنام على السرير، لتلقي ميرنا برأسها على الصدر الحنون الذي اشتاقت له، قبل أن تقول الأم لميرنا: "سأخبرك بقصة قبل النوم". ضحكت ميرنا لأنها تذكرت طفولتها حين

كانت والدتها تروي لها القصص التي يكون لها بطلًا واحدًا، وهذا البطل عبارة عن فتاة صغيرة اسمها ميرنا، لذلك قالت ميرنا بلهفة وحماس "هيا!". لتبدأ الأم تروي القصة قائلة:

"ماتت الأم، وشعرت ميرنا بالذنب لأن الوقت قد فات ولم تتلقَ الأم الحب الكافي من ابنتها، ولم تأخذ ميرنا القدر الكافي من حنان أمها، فصارت ميرنا وحيدة في عالم مُظلم وكئيب، لذلك قررت أن تنتقم من القاتل الذي افترس أمها، تعتقد أن بهذه الطريقة ستجعل الأم سعيدة، ولكن هذه الطريقة جعلت الأم غاضبة وغير راضية عن ابنتها، هل تعلمين لماذا يا ميرنا؟!". سألتها ميرنا وهي نائمة على صدرها دون النظر إليها: "لماذا؟!". لتتفاجأ بصوت غاضب ومخيف يجيبها على سؤالها قائلًا: "لأنها ذهبت في طريق لا عودة منه، ولا مجال للهروب".

انتفض جسد ميرنا، فرفعت وجهها تجاه أمها مسرعة، لتجدها تبادلها الأنظار ولكن بعيني كلب هاسكي جاحظة غاضبة ومروعة. تركت ميرنا حضن أمها بفزع وعادت إلى الخلف، لتدرك حينها الأمر الذي تعلمه جيدًا، حيث لا وجود للأم في المنزل، ولم يكن هنالك أي صدر حنون نائمة عليه، بل كانت نائمة على وسادتها فحسب. رفعت رأسها لأعلى بفقدان أمل وكأنها تشكي حالها لمن يسكن السموات، ثم ألقت برأسها على وسادتها ونامت.

الفصل التاسع

بئر يوسف

«كنت أعلم أن الكابوس سيزورني، كل مخاوفي في الحياة أتت لزيارتي أثناء نومي يا أمي، لقد أتت متناثرة وعشوائية. أسأل نفسي: هل ستظل الكوابيس رفيقة نومي طيلة حياتي، أم سينتهي كل هذا العبث عندما أصل لقاتلك؟! على كل حال فأنا لا أدري هل سأستطيع فعلها أم لا، لقد أيقنت ضعفي وقلة حيلتي في هذا العالم البشع الذي طالما واجهتِه وحدك. أخبريني، هل كنت أنا عالمك البشع؟! لا بأس، أعتقد أنه قد فات الأوان، سأروي لكِ الحلم الآن. استيقظت وسط الظلام الحالك في غرفتي على سريري، واستمعت لنباح كلاب قادمًا من الشرفة بجواري، فأزحت اللحاف من فوق جسدي ونهضت من السرير، وتحركت ناحية الشرفة لإغلاقها، ثم عدت إلى سريري لتصيبني الصدمة حينها، فأنا لم أنهض من السرير في الواقع، فلقد رأيت نفسي نائمة على السرير كما كنت، وأقدامي مبتورة وتخرج منها الدماء كجريان المياه في الأنهار، تعجبت ونظرت لنفسي بدهشة كما لو أن روحي هي التي خرجت من جسدي وذهبت لتغلق الشرفة بينما جسدي ما زال نائمًا، أو أن هنالك نسخة أخرى مني مبتورة أقدامها وهي التي أراها مكاني على السرير!

اهتز قلبي بداخل صدري كما لو أصيب بصاعق كهربائي، فظللت أنظر للمشهد بذهول وفمي مفتوح عن آخره، وفي ظل ذهولي لم تمر دقيقة واحدة حتى بدأت أسمع صوتًا قادمًا من الحمام، ليس صوتًا

لشخص واحد بل لأطفال يغنون ببراعة وانتظام. كان غنائهم غير عادي بل غناء أشبه بالتراتيل، تركت الغرفة، وتركت الشخص النائم على السرير مبتور الأقدام الذي من المفترض أنه أنا، ثم بدأت أقترب من الحمام بحذر شديد، وكلما اقتربت من الحمام أصبح صوتهم أقوى وأعلى وأكثر جمالًا، وعلى الرغم من جمال صوت الأطفال بداخل الحمام، إلا أن صوت نباح الكلاب الممتزج بصوت غناء الأطفال جعلني أشعر بالرهبة والتوجس، فالصوتين صنعا مزيجًا لا مثيل له، حيث غناء الأطفال دب الطمأنينة في قلبي، أما نباح الكلاب جعلني أوقن أن الشعور بالطمأنينة مجرد شعور كاذب.

اقتربت أكثر، حتى أصبح الفارق بيني وبين باب الحمام المغلق أقل من متر، فمددت يدي لإزاحة الباب لكي أفتحه، لكن الباب فُتح وحده قبل لمسه بإصبع واحد مني، لأستمع حينها لصوت غريب على الأرض بدا مثل كرة مطاطية أُلقيت من مكان مرتفع، ولكن الصوت لم يكن لكرة مطاطية، بل لرأس خاطف الأطفال الخارجة من الحمام كالكرة التي تم ركلها بالقدم لتظل تقفز بقفزات متتالية ومنتظمة. رأيت الرأس كما رأيتها في منزل يوسف، حيث التفاحة متواجدة بداخل الفم، فتجمد الدم في عروقي، واحمر وجهي نتيجة حبس أنفاسي، حتى ارتفع صوت غناء الأطفال بداخل الحمام ،بل وأصبح أكثر ابتهاجًا وسرورًا، حيث بدا كما لو أن هنالك احتفال بالغناء بداخل الحمام حين قاموا بركل رأس خاطف الأطفال للخارج.

دب الرعب بفرائصي، خاصة عندما ارتفع صوت نباح الكلاب وأصبح يبدو كما لو أنهم ينبحون في أذني، فدخلت الحمام ببطء

وخطوات محسوبة هربًا من الصداع الذي أصابني نتيجة نباح الكلاب. وجدت أن أنوار الحمام قد بدأت تضيء دون أن ألمس مفتاح الأنوار، ثم راحت تطفئ وتضيء بشكل عشوائي وفي زمن قليل لا يتعدى الثانية، حتى لاحظت أن حوض الاستحمام بجانبي ممتلئ عن آخره، ولكن ما يوجد بداخل الحوض ليس بماء، بل دماء، وكانت أصوات التراتيل تخرج منه، حيث بدا أن من يحتفلون هم من تحت الدماء غارقون، تعجبت وزادت الدهشة في عقلي، فهذا لا يعقل لأن ذلك الحوض لا يتسع سوى لشخص واحد أو اثنين لو هم أطفال، فكيف هذا؟! تأملت الحوض بحذر، لأتفاجأ بعدها بعدة ثوانٍ أن هنالك من بدأ في الخروج من الحوض، كانت طفلة ترتدي فستانًا أبيض، لم أستطع تمييز ملامحها، فوجهها كان شاحبًا، بل وظهر وجهها مشوشًا أمامي كالتلفاز المنقطع عنه الإرسال. خرجت بالكامل من الحوض وأصبحت واقفة أمامي، فانطفأت الأنوار بداخل الحمام وعادت مجددًا، لأرى بجانبها أمام حوض الاستحمام طفلًا بنفس الملامح المشوشة يرتدي عباءة بيضاء، ثم بدأوا في الغناء بنفس الطريقة، لتنطفئ الأنوار وتعود من جديد، لأجد أنهم زادوا طفلًا آخر، وجميعهم بنفس تلك الملامح المشوشة والوجه الشاحب.

كاد قلبي يخرج من صدري حينها لكي يهرب لأي مكان آخر لن يرى فيه هذا المشهد، وبخاصة أن قلبي قد خمن من هؤلاء الأطفال، فهم ضحايا خاطف الأطفال الذي رأيت رأسه في الخارج، لكني رغم رعبي سألت نفسي قائلة: "لماذا يغنون؟!، هل هم يحتفلون؟!، هل الحلم يريد إرسال لي رسالة أن يوسف على حق، وأن من حق هؤلاء

الأبرياء الاحتفال بأخذ الثأر؟! أعتقد أن احتفالهم هذا بسبب قتل يوسف لخاطف الأطفال، فهل هذه إشارة أم مجرد حلم؟!".

لم يطل تساؤلي حتى انطفأت الأنوار مجددًا، وهذه المرة ظلت الأنوار معطلة لوقت طويل، قبل أن يتوقف غناء الأطفال، لأستمع بعدها للعديد من الأقدام تتحرك حولي بسرعة عجيبة، كانت أصوات الأقدام كثيرة للغاية حيث بدت كما لو أنها أقدام لتلاميذ صاعدين إلى فصولهم بعد انتهاء طابور الصباح، مما جعلني أشعر بالاختناق وحرارة لا مثيل لها نتيجة للأنفاس الكثيرة الساخنة البطيئة التي بدأت في استماعها بداخل الحمام الضيق، فبحركة لا إرادية بدأت أتنفس ببطء أيضًا، ويا ليتني لم أتنفس! وذلك لأن صوت أنفاسي جعلهم غاضبين، فما حدث بعدها هو أن الأنوار قد عادت مرة أخرى وعاد معها الفزع، حيث صُدمت حين وجدت أن هذه المرة لم يزدَد عددهم واحدًا فقط بل ربما عشرين، حتى أصبح الحمام مزدحمًا عن آخره.

لم يكن هذا كل ما في الأمر، فلقد كانوا جميعهم ملتفين حولي، يشكلون دائرة أنا مركزها، ولم أستطع تمييز أي ملامح لأي طفل منهم، فالوجوه المشوشة الشاحبة ظلت مسيطرة عليهم. دب الرعب في أوصالي، خاصة لأن عندما عادت الأنوار عاد غناؤهم مجددًا، لكن هذه المرة أصبح صوتهم لا يطاق، إنه أعلى صوت مر عليّ في حياتي، حيث كاد غناءهم ينهي بعقلي وأذنيّ، فوضعت يدي الاثنتين على أذني لكي أقلل من تأثير هذه الضوضاء، ثم أخذت أصرخ بشدة على أمل أن يصمتوا، لكن الصراخ لم يفِ بالغرض، فبدأت أُزيحهم

حتى أستطيع الخروج من الحمام، وبعد عناء كبير استطعت فعلها وخرجت سالمة من بينهم، ليعم الهدوء في الحمام ويتوقفوا عن الغناء بعدها، وكأنهم كانوا يريدونني أن أرحل من مكانهم فقط ليتوقفوا عن إزعاجي.

هدأ قلبي لوقت قليل، قبل أن أسمع صوت بكائي آتيًا من غرفتي، نعم.. لقد كان صوتي الذي بدا عليه الانهيار المُميت كما انهياري حين سمعت خبر وفاتكِ. رُسمت ملامح التعجب على وجهي مما أنصت له، فأخذت أتحرك تجاه غرفتي لأعلم ما يحدث بالداخل، وبينما كنت في طريقي تعثرت قدمي برأس خاطف الأطفال التي ما زالت ملقاة على الأرض حتى كدت أسقط أرضًا، لكن توازني لم يخذلني وصمدت واقفة مكاني، ثم أكملت طريقي للغرفة. دخلت الغرفة، لأجد حينها الصدمة أمامي، لأن المشهد الذي رأيته كان عبارة عن نفسي. لمَ أرى التعجب في وجهكِ يا أمي؟! فما أقوله صحيح وهذا ما حدث تمامًا في الحلم.. حسنًا.. سأروي لكِ ما شاهدتُ؛ لقد كنتُ واقفة بجانب باب الغرفة أشاهد نفسي مبتورة القدمين الجالسة على سريري، والتي كانت تحمل بيدها الهاتف الذي تتساقط دموعها عليه، ثم ظهرتِ أنتِ من العدم يا أمي واقفة أمام تلك النسخة البائسة مني على السرير، لم أَركِ جيدًا لأنكِ كنتِ مصدرة لي ظهرك في الحلم، جئتِ لتربتي على قلبي وتمحي بؤسي، حيث قلتِ: "أنتِ أفضل بنت في الدنيا يا ميرنا، لا تحزني".

حاولت أن أقترب منكِ لكن أصابني الشلل، فحاولت أن أتكلم لتنصتي لي وألا تسمعي لتلك النسخة البائسة الجالسة على السرير

مني ولكن أصابني البكم، كما لو أنه من المستحيل أن أغير المشهد الذي سأراه أمامي والذي أعلمه جيدًا. لأن وقتها نفسي الجالسة على السرير حدقت بكِ، وتحولت نظرتها من نظرة بائسة إلى نظرة غاضبة، ثم ألقت اللوم عليكِ حين أخبرتك: "لقد تركني بسببك، يرى أننا لسنا مناسبين له ولعائلته، قال لي أنه لا يستطيع أن يتزوج من ابنة خياطة، فوالدته كرهت تلك الفكرة من الأساس". هل تتذكرين تلك الكلمات يا أمي؟! تلك الكلمات صدرت من المعتوهة التي للأسف من المفترض أنها أنا، لقد كنت سيئة للغاية، فلقد أخبرتك بعدها للمرة الأخيرة: "أنا أكرهك". لتخبريني بآخر جملة سمعتها منكِ قبل رحيلك للأبد، حين قلتِ لي: "لقد فعلت كل شيء لجعلك تفتخرين بنفسك، لم أفكر في مرة أن أجعلك فخورة بي، أنا لست تلك الأم الأنانية يا ميرنا".

ثم اختفيتِ وبدأتِ تتلاشين كالغبار ولم يعد لكِ وجود ولم تعودي مجددًا، هل تتذكرين هذا اليوم يا أمي؟! إنه اليوم الأخير الذي كنتِ فيه معي قبل أن تخرجي من المنزل لشراء الدجاج المقلي لي دون عودة، لا أعلم لماذا زارني هذا اليوم في الحلم، وكأن حتى كوابيسي تريد أن تذكرني أنني لم أكن أستحقك. لقد حاولت أن أجعل نفسي التي أراها أمامي تنهض لتلحق بكِ قبل أن تتلاشي كالدخان حتى لا تذهبي لموتكِ وكأني أريد تغيير الماضي، لكن كيف ستنهض نفسي بأقدام مبتورة؟!

سامحيني يا أمي، أنا حقًا نادمة وأتمنى أن يعود هذا اليوم فقط لتبديل جملة أنا أكرهكِ بأنا أحبكِ، إذا عاد هذا اليوم لحضنتك ولن

أترككِ أبدًا حتى لا تذهبي دون عودة، ليت الزمان يعود حقًا، فإذا عاد الزمان لتركت الحياة بأكملها لأجل عناق واحد منكِ يدوم لحياة يا معنى الحياة.

يا إلهي! لقد بدأت الدموع تتساقط من عيني! حسنًا يا أمي، سأحاول ألا أبكي وسأكمل لكِ الحلم.. بعدما تلاشيتِ ولم يعد لكِ وجود وقفت أبكي بحرقة بينما أنظر لنفسي الجالسة على السرير ببغض وكراهية، قبل أن تحاول نفسي الجالسة على السرير تحذيري من شيء خلفي، حيث أشارت بإصبعها إلى ما هو خلفي بوجه مذعور، التفت برهبة، لأجد ذلك الطيف الأسود ذا العيون الحمراء يحدق بعيني مباشرة، ففزعت وسقطت على الأرض، قبل أن يهرب الطيف تجاه الحمام، فنهضت مسرعة وذهبت خلفه ركضًا حتى أمسك به، وبينما كنت في طريقي للحمام تعثرت قدمي برأس خاطف الأطفال مجددًا، لكني لم أبال بشيء ودخلت الحمام خلفه.

لم أجد أي شيء تغير في الحمام، حيث أنه كان مزدحمًا بالأطفال بوجوههم المشوشة المروعة، واقفين كالتماثيل أو الأصنام، لا يتحركون ولا يصدرون أي ردة فعل ولا يتنفسون حتى. بدأت أتحرك بينهم ببطء، حتى لاحظت أنهم يحركون رؤوسهم أينما تحركت وكأنهم يتربصون بي، وفي الوقت ذاته كان الطيف يمر من خلالهم ويخترقهم كما لو أنهم لا وجود لهم كالهواء، فبدأت أمر من بينهم وأزيحهم وأن لا أهتم لرؤوسهم التي تراقبني حتى أصل للطيف الذي وصل إلى حوض الاستحمام وغطس في الدماء بداخله، وعندما وصلت نظرت للدماء بداخل الحوض بحذر وقلق، قبل أن تخرج يد

سوداء من الحوض لتمسك بيدي ثم تسحبني بداخله، فصرخت هلعًا مما حدث وأغلقت عيني.

وعندما فتحت عيني، وجدت نفسي في شارع طويل لا أعلم كيف وصلت له، وكأن الحوض عبارة عن بوابة نجمية أخذتني من مكان لآخر، وقفت مندهشة نتيجة لجهلي لما حدث، لكني بداخل نفسي كنت سعيدة قليلًا لأنني لم أعد في المنزل بين الأطفال المرعبين، وذلك على الرغم من أن الشارع كان مرعبًا أيضًا، لأن حينها كان ظلام الليل مسيطرًا على هذا الشارع الفارغ من البشر الذي لا يوجد فيه سوى أنا وأنتِ، نعم يا أمي.. لقد رأيتكِ في حلمي مرة أخرى، كنتِ حاملة في يد من يديكِ هاتفكِ الموضوع على أذنك، وفي اليد الأخرى تحملين حقيبة بها دجاج مقلي، تتحركين أمامي حيث لا أرى وجهك بل أتبع خطواتك. لم تتعدَ الثواني حتى اتصلتِ بي لتخبريني أنكِ جلبتِ لي الدجاج المقلي الذي أحبه، أردتِ أن تحطمي حزني لكني أنا من حطمكِ عندما أغلقت الهاتف في وجهك، لقد شاهدت اليوم الأخير لكِ على الأرض في حلمي، فعلمت كم أنا حمقاء وقذرة وكم أنتِ كالملائكة على هذه الأرض التي تنفر الملائكة.

لم يمر الكثير من الوقت، حتى ظهر الطيف أمامكِ، أصبحت كالمشلولة، أردت الوصول للطيف قبل أن يصل لكِ لكنه أمسك بيدكِ قبلي، وبعدما أمسك بكِ أصبحتِ أنتِ أيضًا مسلوبة الإرادة وكأنك مخدرة، قبل أن تظهر بوابة من العدم بجواركِ، بدت البوابة كالثقب الأسود أو فراغ أسود لا يوجد خلفه أي شيء، ليدخل بكِ إلى تلك البوابة وتختفين من أمام أنظاري، قبل أن يتلاشى شللي بعدما

ذهبتِ. عبرت البوابة خلفكما، لأتفاجأ أن البوابة أخذتني إلى أعلى قمة لجبل، بل وبدأت أتدحرج من قمته لقاعه كما لو أن هنالك من ألقى بي بداخل البوابة ولم أعبرها بإرادتي، ظللت أتدحرج للأسفل حتى وصلت لبداية الجبل، وحين نزلت بدأت أنظف نفسي من التراب، ولكن لا شيء يفي بالغرض، حيث ظهرت عاصفة رملية جعلتني أتسخ مرة أخرى، وتلك العاصفة كانت تحمل الرمال بعيدًا ناحية البئر الذي أراه في منتصف هذا المكان الرملي الواسع الذي سقطت به، وقد كان متساقطًا على البئر كتلة كبيرة من الضوء قادمة من السماء، وهذا الضوء أحمر اللون لأن القمر أعلاه دموي.

أما عن الطيف الأسود فرأيته واقفًا موازيًا لي، يبعد عن البئر بمسافة مثل المسافة التي أبعدها أنا عنه، حيث أن البئر في المنتصف تمامًا بيننا. بدأت أتحرك يمينًا ويسارًا وأحدق في عينيه بتحدٍ، بينما هو ثابت وينظر لي بعيونه الحمراء المتوهجة، ثم بدأت أقترب ببطء، ومع كل خطوة مني للأمام يبادلها بخطوة للخلف بنفس سرعة خطواتي، فعندما لاحظت هذا بدأت أسرع من خطواتي بشدة حتى وصلت إلى البئر، ليختفي الطيف من أمامي تمامًا ويصبح غير مرئي على مستوى بصري المحدود.

ألقيت بنظرة داخل البئر، فتفاجأت وراحت ملامح الذهول تسيطر عليّ، فلقد كان يوسف سجينًا بائسًا بعمقه، مبتورة أقدامه والدماء في كل مكان حوله، لقد وجدني كالنجدة فأخذ ينادي باسمي طالبًا مني أن أسحب الحبل المتواجد بجواري، وهو الحبل ذاته الساقط بداخل البئر بجانب يوسف. تعجبت لوهلة، خاصة أن ما يحدث

يذكرني بقصة البئر التي رواها يوسف لخاطف الأطفال، والتي يستطيع المرء أن يفسرها بأكثر من طريقة، فكل إنسان منا له بئر مُظلم مسجون بداخله، ولكن ما هو بئر يوسف؟!، وهل ما رواه يوسف يشير أن المقصود من البئر هو الشعور بالذنب؟!، أو ربما يكون قصده أن البئر هو ماضٍ أليم لن يستطيع المرء تخطيه حتى أصبح سجينًا بداخله، أو أن قصده مرض قاسٍ يأكل الجسد رويدًا رويدًا حتى يصبح العلاج الوحيد له هو التمسك بحبل الموت؟! مثل الحبل الآخر المتواجد بجانب يوسف بداخل البئر، والمكتوب بجواره بالدماء كلمة موت.

ظللت أفكر في إجابة على تساؤلي حول ما هو بئر يوسف ولم أصل لحل، وهذا جعلني أفكر في السؤال بطريقة أخرى حيث قلت لنفسي: "هل يوجد ليوسف بئر من الأساس أم كل ما أفكر فيه هباء ولا قيمة له؟!". لوهلة تذكرت أن اسمه يوسف على اسم النبي يوسف الصديق، فوجدت المفارقة التي رأيتها بعيني بداخل الحلم ثم سألت نفسي: "هل أخرجه من البئر؟!، أم هذه مخاطرة؟!". فإذا خرج هذا اليوسف من البئر لن يصبح ملكًا محبوبًا، بل سيصبح فرعونًا طاغيًا. تأملت قليلًا وتذكرت أيضًا أن يوسف لديه ميول انتحارية، فهو يريد الموت وينتظره بتوهج شديد، وهذا ما وجدته في مذكراته عندما قرأتها، إذن لماذا لا يمسك بحبل الموت المتواجد بجانبه؟!، ولماذا يطلب مني المساعدة في إخراجه من ظلام البئر، وهل يوجد معنى لكلمة ظلام سواه؟!، فهو الإنسان الأكثر ظُلمة، هو الإنسان الأكثر وحشية والذي لن ترى عيني شخصًا بهذه الوحشية بعده، إنه

يأكل لحوم البشر، ولا شيء يمكنه وصفه سوى أنه الشر الأعظم في الحياة، فلا يوجد شر أعظم من إنسان ظن نفسه أنه يمتلك القدرة على عقاب البشر نتيجة لذنوبهم مهما كانت، وهذا ما يفعله يوسف الذي يعاقب البشر بأبشع طريقة ممكنة وحجته هو أنه ينقذهم من ذنوبهم ويحررهم من خطاياهم كما لو أنه يمتلك القدرة على مغفرة الذنوب.

هدأت قليلًا وصمتُّ في ذهول، وذلك لأنني أريد أن أفعل ما يفعله تمامًا، أريد أن أقتل من قتلك يا أمي وربما بنفس الطريقة، لذلك ضحكت وسألت نفسي: "هل يوسف حقًا هو الشر الأعظم، أم هو العدل الظالم؟!". فكرت قليلًا وقلت: "لربما لو كان يقتلهم بطريقة غير طريقته لقلت أنه بطل وليس شيطان!!". لم يستمر تفكيري لوقت أطول، فبينما كنت أفكر استمعت لصوت نباح للكثير من الكلاب قادم من خلفي، كما لو أن هنالك المئات من الكلاب ستهجم على الفور، لا أعلم لماذا فعلتها؟!، ربما لأنني شعرت بالخوف من الكلاب فلم أستطع تمالك نفسي فأنقذت يوسف من البئر وبدأت في سحب حبل الحياة؟!، هل هو مجرد رهبة من مواجهة الكلاب وحدي؟! أم أن هذا ما أراده قلبي فأنقذته بإرادتي، بالحق لا أعلم؟!

لقد كنت أمسك بالحبل وأسحبه بشدة بينما أعود إلى الخلف، حتى صعد يوسف وخرج من البئر ورأيته ماسكًا بالحبل وهو مبتور القدمين، لكنه لم يكن يمسك بالحبل وحده، بل كان متمسكًا بي أنا أيضًا، بل وكنت مبتورة القدمين مثله، لا أدري كيف ظهرت معه وهو خارج من البئر، وكيف كنت بين أحضانه كالحبيبة التي ارتمت على

صدر حبيبها، ولا أعلم لماذا رأيت نسخة مني مبتورة القدمين أمامي مرة أخرى، فهذا الحلم هو أكثر حلم عبثي مر على حياتي. أصابني الرعب من المشهد فتركت الحبل، ليسقط يوسف وتلك الفتاة التي من المفترض أنها أنا على الأرض أمامي وهم ينزفان الدماء من أقدامهم المبتورة، قبل أن يحدقوا بي بطريقة مروعة جعلت قلبي ينتفض خوفًا، ثم راحوا يزحفون تجاهي، فبدأت أزحف إلى الخلف في حالة فزع لا مثيل لها، فخوفي من يوسف له مبررًا، أما عن نفسي فكيف أخشاها؟!، حيث أنني خفت من نفسي بطريقة بشعة جعلتني أصاب بحالة من الصرع بداخل الحلم، ولكن الحلم لم ينتهِ بعد، لأن الكثير من الكلاب الهاسكي ظهرت خلفي على قمة الجبل، وقد بدأت في النزول لتصل إليّ، زيادة على ذلك فهم ليسوا كأي كلاب، بل كلاب مسروقة منهم عيونهم والدماء تسقط من أجوافها الفارغة على الأرض الرملية بغزارة.

في تلك اللحظة علمت أنه لا مجال للهروب، فإذا استمريت في الزحف للوراء سأذهب بإرادتي إلى الكلاب التي تعوي بعنف وعدوانية استعدادًا للهجوم عليّ، وإذا ظللت مكاني سيصل لي يوسف ونفسي وهما يزحفان حتى يمسكا بي، لذلك حكم عليّ الخوف بالثبات التام، ولم أحتمل رؤية ما سيحدث فأغلقت عيني، لأشعر بعدها بأربعة أيدي تمسك ساقاي بقسوة، ففتحت عيني مسرعة لأجد أن يوسف ونفسي هم اللذان يمسكان بي، وهم أصحاب تلك الأيدي، بل وقريبون جدًا مني حتى أصبحت وجوههم الغاضبة المُفزعة ملتصقة بوجهي مباشرة، فصرخت، واستيقظت من نومي

حينها».

***

كل ما ذُكر ما هو إلا كابوسًا جديدًا لميرنا، كابوسًا يعُبر عن كم العبث الذي يدور بداخل رأسها، كابوسًا يشير إلى المعاناة النفسية التي تعيشها الفتاة، فلقد أتى لها كل ما يدور بذهنها من صراعات وتناقضات بطريقة عشوائية مرعبة تدل على توجسها مما يحدث في حياتها. أما عن من تروي له الحلم هذه المرة فهي تروي لهلوستها، تروي لشبح أمها الذي كان يجلس أمامها على السرير، ويستمع لها بآذان صاغية وعيني كلب هاسكي.

الفصل العاشر

مساكين أهل العشق

بعد مرور أسبوع..

"لا شيء في الحياة يستحق الحياة، فنحن لا نحيا لنحيا، بل نحيا لِنموت ألف مرّة استعدادًا للموتة التي قد يراها البعض أنها الأُولى".

هذا ما يدور بداخل عقل ميرنا، فطوال هذا الأسبوع وحالتها في تدهور تام، بل وأصبحت تتخذ معاقبة النفس وجلد الذات كأسلوب لحياتها، فظلت تعاني نفسيًا من الكوابيس المرعبة يوميًا، والتي دائمًا ما يزورها الطيف الأسود بداخل تلك الكوابيس كل يوم حتى أصبحت الفتاة تهاب النوم، ففي خيالها يعتبر الطيف هو القاتل الذي لم تستطع الوصول له، وربما لن تستطيع، لأن في نهاية أحلامها يرشدها الطيف أو القاتل إلى طريق واحد وهو يوسف، كما لو أنه يريد إخبارها بشيء مثل: "أنتِ ستجدينني هناك عند يوسف، هو الحل الوحيد لكِ". وهنا تكمن المعضلة، فلقد أصبح يوسف رعبها الأكبر، وفي الوقت ذاته فهي تعتقد أن كل تلك الفوضى في حياتها ستنتهي عندما يموت قاتل أمها، ولكي يموت قاتل أمها عليها التنازل عن شيء مهم وهو إنسانيتها، وأن تتبع يوسف وطريقته في تنفيذ العقاب وتحقيق العدل عن طريق ظلم الظالم، وتأكل الوجبة الثانية والأخيرة المتفق عليها مع يوسف، فعلى الرغم من أنها قد بدأت تشك بصحة كلامه قليلًا إلا أنها تعلم أن لا أحد غيره سيستطيع أن يأتي لها بالقاتل لأنه الشر الأعظم ممن قتل أمها بنفسه.

في خلال فترة صراعها النفسي حاولت كثيرًا الانتحار للتخلص من تلك الكوابيس التي تزورها في منامها والهلوسة التي تزورها أثناء استيقاظها، لكن محاولاتها باءت بالفشل في كل مرة، وذلك الفضل يرجع للهلوسة، أو بمعنى أوضح يرجع لوالدتها التي كانت تظهر لها قبل انتحارها لتمنعها من ارتكاب تلك الجريمة في حق نفسها. ففي خلال تلك الفترة عاشت ميرنا كالأموات، ولكن في هذا اليوم قررت أن تكون من الأموات المنتصرين، وليس الأموات الخاسرين، وأيقنت أن لا مجال للهروب من كل هذا العبث وتلك الحياة المُظلمة سوى أن تتبع الشر الأعظم لتحقيق الانتصار على الشر الذي تريد النيل منه، وبعدها لن تأتي لها الكوابيس مجددًا، وربما لن تشعر بالذنب حيال معاملتها السيئة لأمها مرة أخرى، لأن بتلك الطريقة ستخبر أمها أنها تحبها.

وها هي الآن تقف أمام الحانة التي يعمل بها يوسف، تأخذ أنفاسًا متسارعة، لا تريد التسرع، لأن هذه الخطوة هي الأكثر خطورة في حياتها، فهل ستستطيع فعل ذلك؟! هل ستستطيع أن تتنازل عن إنسانيتها وشعورها بأي تعاطف تجاه البشر مقابل نيل حريتها من ذنبها الأبدي لكونها ابنة سيئة؟! أم سيكون ذنبها الأبدي هو أنها تنازلت عن إنسانيتها؟! وفي ظل تفكيرها في الخطوة القادمة سمعت صوتًا مختلطًا بالبكاء بجانبها وهذا الصوت تعلمه جيدًا، فلقد سمعت ميرنا تلك النبرة من قبل، حيث قال من يتحدث بجوارها بتأثر عميق: "جميعهم يستحقون الموت!!".

نظرت ميرنا بجانبها، لتجد ذلك الرجل المجنون بالعاهرة مريم الذي

رأته في أول مرة أتت إلى هذا المكان، جالسًا على الأرض بجانب بوابة دخول الحانة، يمسك في يده زجاجة من الخمر، يشرب وكأنه كان تائهًا في الصحراء ووجد تلك الزجاجة التي في يده لتروي عطشه من قساوة وسخونة الرمال. التفت ذلك الرجل لميرنا بحسرة، ثم قال بلهجة تعيسة: "حاولت أن أبتعد، ولكني في كل مرة كنت أبتعد عنها كان قلبي يؤلمني، عقلي يكرهها ولكن قلبي متعلق بها، كما لو أن قلبي بداخل جسدها ولا أشعر به سوى عندما تتلامس أجسادنا".

بنبرة بها حزن قالت له ميرنا: "أتحبها لهذه الدرجة؟!". مد لها مجنون مريم يده بزجاجة الخمر، لتأخذ ميرنا الزجاجة منه وتتذوق طعم الخمر للمرة الأولى، لتجد أن طعمه مر كمرارة حب هذا المجنون للعاهرة مريم، ليجيبها وهو ينفي ذلك الاعتقاد عن ميرنا قائلًا بصوت رجل حزين "لا أحبها". صمت، وسقطت الدموع من عينه، ثم تحولت نبرته من نبرة حزينة لنبرة بها كسرة وقلة حيلة، قبل أن يقول لميرنا: "أحبها". وضع يده على رأسه ونظر أرضًا، ليخبرها بتشتت: "لا أعلم".

ومن ثم تحول وجهه لوجه غاضب، ليكمل حديثه بلهجة عنيفة قائلًا: "لكني أتمنى أن أراها ميتة، أو أموت أنا". ضحك بجنون، ثم قال بصوت أعنف من الصوت الذي يسبقه: "أتخيل أنها مع ذلك الرجل قاتل النساء، أتخيل أنه يقتلع عينيها الآن، أتخيله يأتيني بعينيها كهدية حتى لا يتمتع أحد بالنظر لتلك العيون غيري، ففي جميع الأحوال هي لست لي، ولكن يكفيني أن تظل عينها أمام

عيني". غضبت ميرنا بشكل مبالغ به عندما سمعت أنه يشير إلى قاتل أمها ويتحدث عنه كما لو أنه بطل أو رمز مجددًا، ولكن هذه المرة لم تستطع أن تتمالك غضبها مثلما فعلت في أول مرة رأته فيها، لذلك ألقت بزجاجة الخمر عليه، فتحطمت زجاجة الخمر بجانبه، ثم قالت بنبرة بها غيظ وهي تشير له بإصبع السبابة بتحذير: "أنت من يستحق الموت يا أحمق".

تركته ودخلت الحانة، وعندما دخلت تفاجأت بنفسها، فهذه المرة هي ليست خائفة على عكس المرة الأولى حين شعرت بعدم الراحة والاطمئنان في المكان، فعلمت أنها قد بدأت تفقد ذاتها وتتحول لشخص آخر لا تعلمه، ولا تعلم إذا كان هذا الشخص الذي هي عليه الآن أفضل أم أسوأ، ولكن الذي تعلمه هو أن الشخص الذي تمثله الآن هو أعنف وأجن وأكثر اضطرابًا، بل وسعيدة وراضية بهذا، وذلك لاعتقادها أنها ربما كلما تغيرت كلما زادت فرصتها في الانتقام، وكلما تلاشى شخصها القديم زادت فرصتها في تحقيق ما يدور بداخل عقلها المريض، وهو اقتلاع عيون القاتل من جوفها كما فعل بأمها.

وجدت يوسف في مكانه الذي رأته فيه أول مرة، يجلس بابتسامته الهادئة ويصب الخمر للسكارى ببروده المعتاد، فذهبت وتحركت تجاهه، ثم جلست أمامه حيث أصبح لا يوجد فارق بينهما سوى الطاولة الطويلة، قبل أن تخبره بلغة الاستسلام: "أنت على حق، أنا حقًا بحاجة لمساعدتك، أنت ملجأي الوحيد الآن". ضحك يوسف ضحكة بها انتصار، ثم قال بنبرة متعجرفة وهو يمسك في يده كأسًا فارغًا وينظفه كعادته: "لقد كنت في انتظارِك، علمت أنكِ ستأتين".

قبل أن يرفع وجهه تجاهها ويلاحظ ملامح البغض على وجهها، فسألها متعجبًا: "لمَ أنتِ منزعجة؟!".

أخذت ميرنا نفسًا عميقًا ثم أخرجته ببطء، قبل أن تنظر إلى يوسف وتقول بملامح حادة وصوت هادئ: "كلما تحدث ذلك المجنون الذي يحب الفتاة التي تدعى مريم أثور غضبًا، أشعر أنه يصف قاتل أمي بالبطل". رمش يوسف بعينيه، ثم تحولت لهجته للهجة بها شفقة حيث قال لميرنا: "اسمه وائل، إنه مسكين ويجب أن تشفقي عليه". تعجبت ميرنا من كلمات يوسف، لكن عندما فكرت لوهلة علمت أن مختل عقليًا مثل يوسف لن يشعر بالشفقة سوى على مجنون مثل هذا المجنون الذي يدعى وائل، قبل أن ينظر لها يوسف مبتسمًا بابتسامة بها القليل من السخرية الحزينة قائلًا: "إنه لا يحبها، بل يعشقها، وهل يوجد مسكين على وجه الأرض سوى العاشق؟!".

اقترب من ميرنا، ثم أمسكها من ذقنها وقرص عليها قائلًا: "هل تعلمين معنى كلمة عاشق؟!". نظرت إلى يده الممسكة بذقنها بتعجب، قبل أن تقول بلسان متلعثم: "العاشق هو الذي يحب بجنون؟!". أعاد يوسف يده إلى موضعها الطبيعي، ثم نظر إلى كأس الخمر الفارغ مجددًا، وقال بتأثر بات واضحًا: "العاشق هو من تعلق قلبه، هو من كان يجب عليه أن يترك من يحب لأي سبب وعندما حاول لم يستطع فعلها، فقلبه معلق بمن يحب، ولا يوجد علاج للعشق".

أخرج سيجارة من جيبه وأشعلها، ثم أعطى واحدة لميرنا وأشعلها لها، قبل أن يكمل حديثه بينما يتأمل عينيها قائلًا بلهجة عميقة:

"وائل عاشق وليس محبًا، فإذا كان يحبها لكرهها لأن الجميع يحب لسبب، والحب يزول مع زوال سببه، أما العشق فلا يزول لأنه لا وجود لمسبب له، وفي حالة وائل فهو لديه كل المبررات ليكره مريم، يكفي أنها عاهرة وخائنة ولا تحبه، فعقله يكرهها ويذكره دائمًا أنها أسوأ شيء حدث له، أما قلبه يحرقه بنار العشق ويذكره دائمًا أنه عاشق ولا يستطيع الحياة دونها، فالعشق لا علاج له سوى موت العاشق أو المعشوق أو موت الاثنين معًا".

تأثرت ميرنا بكلماته، خاصة أن يوسف كان متأثرًا بشدة وهو يلقي عليها تلك الكلمات، لذلك سألته بفضول ولهفة: "هل عشقت من قبل؟!". نظر يوسف لكأس الخمر وكأنه لا يريد أن يظهر وجهه وهو يقولها حين اعترف: "نعم!! عشقت أكثر شيء أخشاه، عشقت عيونًا زرقاء، أعلم أنها ستقتلني يومًا ما". كادت الدمعة تسقط من عين ميرنا بسبب تلك المشاعر التي ظهرت على يوسف فجأة، حيث كانت تعتقد أنه كالشيطان، فبالتأكيد الشيطان لا يحب، ولكن عينه وهو يحكي عن من عشق قالت أن حتى الشيطان بإمكانه الوقوع في الحب. لكنها تعجبت قليلًا، بعدها ألقت عليه سؤالًا تأخرت كثيرًا في أن تسأله حيث قالت: "تقول أنك تخشى النظر للعيون الزرقاء، ولكنك تنظر لي في عيني طوال الوقت؟!". ضحك يوسف من سؤالها، ثم أجابها: "لا أعلم لماذا لا أخشى عينيكِ، ولكن ربما بسبب أن الشياطين لا تسكن بداخل عيون الأطفال، لا أرى بداخل عينيكِ شيطانًا!".

شعرت ميرنا بالحيرة حول ما يجب أن تشعر، فهل تشعر بسعادة لأنه وصفها بالطفلة أم العكس، وما يقصد بهذا؟ هل هذا مدح أم ذم،

وقد لاحظ يوسف حيرتها تلك، ليعود إلى موضوع العشق ويقول لها: "سأروي لكِ قصة عن العشق". أصابتها حالة من الفضول، فحدقت به مترقبة سماع القصة، قبل أن يخبرها يوسف بلهجته الهادئة التي تشبه لهجة الفلاسفة والحكماء قائلًا: "في يوم كان يتجول الأصمعي في الصحراء، فوجد حجرًا منقوشًا عليه بيت من الشعر، وكان هذا البيت لعاشق من العُشّاق، كان يستنجد من أجل دواء لعشقه، هل تعلمين ماذا كتب؟!". حركت ميرنا رأسها يمينًا ويسارًا بإشارة منها أنها لا تعلم، فأكمل يوسف حديثه بنفس الصوت الذي بدا كالتنويم المغناطيسي:

"أيا معشر العُشاق بالله خبروا ...

إذا حل عشق بالفتى ماذا يصنع؟"

صمت قليلًا بعدما قال بيت الشعر، قبل أن يكمل القصة قائلًا: "قرر حينها الأصمعي أن يجيب على العاشق وينقش على الحجر الرد فأجابه وكتب:

"يداري هواه ثم يكتم سره ...

ويخشع في كل الأمور ويخضع".

سحب يوسف نفسًا من سيجارته، بعدها أكمل القصة وقال: "ثم ذهب الأصمعي في طريقه، وعاد إلى الحجر بعدها بعدة أيام لربما يكون العاشق قد ترك رسالة أخرى، وهذا ما حدث بالضبط، حيث ترك له العاشق رسالة مأساوية وكتب على الحجر:

"وكيف يداري والهوى قاتل الفتى ...

وفي كل يوم قلبه يتقطع؟"

أمسك يوسف بكأس الخمر وراح ينظفه مجددًا، ومن ثم أكمل القصة قائلًا: "ربما شعر الأصمعي باليأس حينها لأنه يعلم تمامًا أن لا دواء للعشق، لذلك ترك للعاشق بيتًا عنيفًا من الشعر وكتب له على الحجر:

"إذا لم يجد صبران لكتمان سره ...

فليس له سوى الموت ينفع"

لاحظ يوسف ملامح الحزن على وجه ميرنا، لذلك ضحك في وجهها وراح يدافع عن الأصمعي، حيث أكمل حديثه وأخبرها: "ربما يكون الأصمعي قاسيًا في رسالته، كيف يخبر عاشقًا ويقول له إن لم تجد بدل الصبر صبرين فعليك بالموت فلا سبيل لنجاتك يا فتى، ولكنه على حق، فلا وجود لأي سبيل ليرتاح قلب هذا الفتى سوى الموت، سيظل العشق يأكل قلبه طوال حياته، سيظل العشق يحرقه ويعذبه حتى مماته، فلا سبيل سوى وفاته".

ترك يوسف الكأس ونظر لميرنا، التي كانت تتأمل يوسف وهي صامتة ولا تتحدث، تنتظر بقية القصة على الرغم من أنها توقعت النهاية، فجميع قصص يوسف تنتهي بنهاية مأساوية، لعلها تعتقد أن تلك القصة من تأليف يوسف ولا تعلم أنها حقيقية، لذلك ابتسم لها يوسف وحاول كسر الصمت، ولكن ما كسر الصمت فعلًا هو صوت الصراخ القادم من خارج الحانة، حيث كان الجميع خارج الحانة في

حالة فزع وخوف لا مثيل لها وكأنهم شاهدوا عفريتًا أو شيئًا من هذا القبيل، ترك يوسف مكانه وخرج مسرعًا من الحانة وبجانبه ميرنا، ليتفاجأ يوسف وتتفاجأ ميرنا بالمشهد المؤلم الذي رأوه أمامهم، حيث وجدوا وائل ساقطًا على الأرض منتحرًا، والدماء تنزف من رقبته. نعم.. لقد نحر مجنون مريم رقبته بواسطة قطعة من الزجاج المكسور من زجاجة الخمر التي ألقتها عليه ميرنا وكسرتها، وهذا ما جعل ميرنا تنظر له في صدمة، وكأنها تعاتب نفسها لأنها هي من أهدت له الأداة التي انتحر بها.

أما عن يوسف فكان ينظر له في هدوء وسكون تام، ثم قال لميرنا بحزن: "هل تريدين أن تعلمي نهاية القصة؟!". التفتت له ميرنا وبدأت الدموع في التساقط من عينيها، ليكمل يوسف القصة قائلًا بتأثر عميق: "عندما عاد الأصمعي مجددًا، وجد جثة العاشق منتحرًا بجانب الحجر، وترك آخر رسالة للأصمعي وقال:

"سمعنا وأطعنا ثم متنا ...

فبلغوا سلامي لكل من كان بالوصل يمنع

هنيئًا لأرباب النعيم نعيمهم ...

وللعاشق المسكين ما يتجرع"

حينها حزن الأصمعي حزنًا شديدًا وكتب على الحجر بجانب العاشق المنتحر آخر رسالة وقال: مساكين أهل العشق، حتى قبورهم عليها تراب الذل بين المقابر".

وبعدما أنهى يوسف حديثه وأنهى القصة، نظر لميرنا بملامح غاضبة وقال لها بنبرته الهادئة: "عودي إلى منزلك يا ميرنا، سأنتظرك غدًا في منزلي في التوقيت المعتاد، لدينا موعد مهم لإنهاء قصة العشق هذه إلى الأبد، غدًا لدينا موعد غرامي مع العاهرة مريم".

ذهب يوسف وترك ميرنا تنظر إلى العاشق المجنون بصدمة وقلب متقطع حزنًا، بل وزادت صدمتها عندما علمت أن مريم مع يوسف منذ البداية، وزاد رعبها عندما علمت أن غدًا لها ميعاد آخر مع طبق من اللحم البشري المطبوخ بأيدي يوسف، بل ومن المفترض أن تكون قطعة اللحم الجديدة التي ستدخل معدتها هي قطعة من العاهرة مريم.

الفصل الحادي عشر

المطهر

في الموعد المتفق عليه كالعادة، في تمام الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، تتحرك ميرنا في المنطقة التي يسكن بها يوسف بأقدام مرتعشة، وجسد مرتجف على الرغم من أن الطقس بارد ولكن ليس قاسيًا، تتمنى أن يفوت اليوم بالسيئ منه والأسوأ، لأنها لا تعتقد أن هنالك أي شيء إيجابي سيحدث في تلك الليلة، ففي المرة السابقة ذهبت وهي لا تعلم ما سيحدث، ذهبت وهي لا تعلم أنها ستأكل لحمًا بشريًا واعتقدت أن كل ما قاله يوسف هو مزحة، أما هذه المرة فهي تعلم تمامًا ما سترتكبه، وذاهبة بإرادتها الحرة، بل بإرادتها التي لا بديل لها سوى الحياة بعذاب أو الجنون أو الموت بقفزة من أعلى شرفة غرفتها لتنهي حياتها البائسة.

وصلت ميرنا لمنزل يوسف الذي كان بابه مفتوحًا كما لو أنه ينتظرها لتأتي، لم تفكر كثيرًا وأزاحت الباب بيدها، لتجد يوسف جالسًا على الأريكة فاردًا قدميه، يدخن سيجارته كعادته بينما يتأمل اللوحتين الجديدتين المرسومتين بريشته والموضوعتين على الحائط في الصالة حول التلفاز، دخلت المنزل ببطء، وبدأت تلقي نظرة على اللوحات، لتجد أن لوحة الكلب الهاسكي كما هي في مكانها فوق التلفاز ولم تتبدل أبدًا، لم يلفت أنظارها لوحة الكلب، بل باقي اللوحات هي سبب إثارة دهشتها.

تأملت اللوحة الأولى من اللوحات الجديدة المعلقة، لترى رسمة

غريبة لم تفهمها، وهي عبارة عن لوحة عمودية لثلاثة مدن أو أماكن متراصين فوق بعضهم البعض، لم تستطع أن تميز ما بداخل تلك المدن، فلقد كانت اللوحة صغيرة بعض الشيء، فاقتربت من الحائط لترى تفاصيل كل مدينة منهم بوضوح. فوجدت أن المدينة الموجودة أعلاهم يوجد بها قصور من ذهب تلمع كلمعان النجوم في المساء، يحرسها الكثير من الملائكة بأجنحتهم ناصعة البياض، وبين القصور تجري أنهار عذبة بها مياه زرقاء فاتحة كلون السماء التي لم يعكرها السحاب، ووُجد أيضًا سكان من البشر يرتدون الملابس البيضاء التي كادت تُصدر بريقًا عظيمًا نتيجة لدقة رسم يوسف، كما رسم سعادتهم وابتهاج قلوبهم بدقة تفوق معنى الدقة نفسه. لم يكن هذا كل شيء، فوجدت في هذه المدينة أشجارًا بها الكثير من الفواكه الطازجة بكل أنواعها، وتلك الأشجار متواجدة في حديقة شاسعة تمثل مركز المدينة بأكملها، لقد بدا الأمر لها على أن يوسف قام برسم المدينة المثالية أو الفردوس.

أما في منتصف اللوحة فتوجد مدينة ثانية أو مكان آخر غير ذلك المكان الشبيه بالفردوس، ويوجد هذا المكان أسفل المدينة الأولى مباشرة، وهو عبارة عن ظلام حالك به بشر معذبون يصرخون شفقة على أنفسهم، وأشد ملامح الألم والعذاب على وجوههم ظاهرة بقوة ووضوح، منهم من يبكي ندمًا على ما مضى، ومنهم من يصرخ حسرة، ومنهم من يتألم وجعًا، لكن يوجد أحدهم في الرسمة ربما استطاع أن يتسلق هذا الظلام بطريقة ما حتى أصبح نصف جسده متواجدًا في تلك المدينة التي توجد في أعلى مكان

في اللوحة والتي تشبه الفردوس، فنصفه الأسفل في الظلام ونصفه الأعلى في الفردوس بينما يحاول جاهدًا أن يصل بكامل جسده لأعلى لكي يُفلت من عذاب الظلام. وبالنسبة لما يوجد في آخر أسفل اللوحة فهو مكان أشبه بما يوجد أعلاها بالضبط، ولكن الفارق هو أن القصور لونها أسود ويخرج منها نيران ولهب ودخان، بينما الأشجار المتواجدة في الحديقة الشاسعة محترقة بأكملها، ومعلق على غصونها العديد من الثعابين السامة التي امتازت باللون الأسود، وهنالك حراس لهذا المكان أيضًا لكنهم كائنات أشبه بالكائنات الشيطانية، حيث أن أجسادهم امتازت باللون الأحمر ووجوههم كذلك، بل ويمتلكون القرون في رؤوسهم، ويضحكون بضحكات خبيثة وشريرة.

ولقد كان يوجد بشر أيضًا، وهؤلاء البشر ظهر على وجوههم البؤس الشديد، فبدو صامتين مستسلمين، واقفين أمام الأنهار بين القصور، يرتدون الملابس السوداء الممزقة، وكل منهم مستعد أن يلقي بنفسه داخل نهر من الأنهار التي مائها عبارة عن نيران وكبريت وأشياء تشبه الحمم البركانية الملتفة حول حواف كل نهر منهم. ربما لم تلفت انتباه ميرنا هذه اللوحة مثل اللوحة الثانية، والتي كانت عبارة عن امرأة ترتدي عباءة بيضاء، يوجد بجسدها العديد من أثر لجروح وكدمات كما لو أنها تعرضت للتعذيب بواسطة كرباج أو عصا أو ما شابه، تقف في تلك الغرفة المتواجدة في قبو المنزل، وبجانبها ذلك الكهل على الكرسي المتحرك ينظر لها بغيظ وحقد شديد، وتجلس ميرنا ويوسف على الطاولة الفارغة من الطعام، أما الثلاثي داون فهم

يقفون أمام المرأة ويحملون في أيديهم حجارة. لقد علمت ميرنا أن هذه المرأة هي العاهرة مريم التي ستراها في القبو، ولقد رأت تلك المرأة مسبقًا في رسومات يوسف، فهي المرأة التي كانت تنظر إلى خاطف الأطفال وهو يتقطع إربابًا من الثلاثي داون في رسومات سابقة رأتها معلقة على نفس الحائط، وقد لاحظت ميرنا أن يوسف يرسم الأشياء التي ستحدث أو متوقع أن تحدث كما لو أن غروره هو ما يجعله يفعل ذلك ليقتنع أنه يستطيع التنبؤ بالقادم، فهذا ما حدث في المرة السابقة حين رأت رسمة لها هي ويوسف والثلاثي داون وهم يأكلون الطعام على الطاولة بينما كانت رأس خاطف الأطفال موضوعة في منتصفها ومغطاة بقطعة من القماش الأبيض.

أما الغريب في الرسمة التي تتأملها هو أن الرجل الأصلع مُخيط الفم متواجد في اللوحة أيضًا، وهو ذلك الرجل الذي لم ترَه ميرنا حتى تلك اللحظة سوى في رسومات سابقة ليوسف، فوجدته هذه المرة مرسومًا في اللوحة وهو يقف بداخل المطبخ الذي بابه مفتوح بشكل بسيط، ويراقب ما يحدث وعينه تدل على التعاسة والندامة والبؤس بشكل لا يؤصف، تعجبت ميرنا من مظهر الرجل وسألت نفسها "لماذا لم يظهر هذا الرجل أبدًا في المرة السابقة الذي نزلت فيها القبو؟! وهل هو حقيقي؟!". ربما حيرتها تلك لأنها لا تصدق حتى الآن أن من الممكن أن يكون هنالك أحد بالفعل مخيط الفم.

قاطع يوسف تأمل ميرنا في اللوحات حين قال متسائلًا بينما يتأملها هو كذلك: "أتعجبك الرسومات؟!". نظرت ميرنا إلى يوسف وفي قلبها تريد أن تقول "لا". لكنها لا تستطيع إنكار إبداعه، حتى

ولو كان هذا الإبداع إبداعًا شيطانيًا، ففي اللوحة الأولى اعتقدت الفتاة أنه رسم الجنة والنار وما بينهما من عذاب، وأن الظلام في المنتصف يُمثل الأرض أو بمعنى أوضح حياة الإنسان على الأرض، فهي ترى أن اللوحة عبارة عن مدينة الجنة والنار والفاصل بينهما من حياة دنيوية. لم تنكر إعجابها باللوحة الأولى، أما اللوحة الثانية فلقد ارتعدت أوصالها مما رأت بها، لأنها تعلم أن هذا حقيقي، وتعلم أن مريم العاهرة ما زالت حية، فابتلعت لعابها في خوف سائلة نفسها: "هل هذه المرة سيقتلها أمامي؟! أم سأستمع لأصواتها وهي تموت بداخل المطبخ، أي نوع من الجنون سأعيش اليوم؟!".

لاحظ يوسف حيرة ميرنا، ليناديِ عليها بصوت مرتفع، فأفاقت ميرنا من تأملها مجددًا والتفتت له، ثم اقتربت منه وجلست بجواره على الكرسي بجانب الأريكة، لترى أن الطاولة أمام الأريكة بها العديد من الصور، وهم صور الضحايا الذين قام بقتلهم ذلك القاتل مقتلع العيون الذي تريد الانتقام منه. أمسكت ميرنا بالصورة الأولى والتي كانت لسيدة ربما في الثلاثينيات من عمرها وهي تحتضن ابنتها الصغيرة، وهم الاثنان سواء السيدة أو الطفلة من ضحايا السفاح، بل هم أشهر ضحاياه. ضحك يوسف وقال: "هذه السيدة كانت تعمل كعاهرة، تأتي إلى الحانة التي أعمل بها لتلتقط رزقها باحثة عن شخص ما يريد القليل من المتعة مقابل دفع الكثير من المال، لم تكن بذلك السوء، لقد فعلت كل هذا لأن ابنتها مريضة بمرض مزمن علاجه باهظ الثمن، فهي أرملة يائسة من الحياة". صمت قليلًا، ثم أكمل حديثه بسخرية: "هل كانت أمك ستفعل نفس الشيء لو أنتِ

مكان طفلتها؟!".

لم تجبه ميرنا، بل أمسكت بالصورة الثانية، لتجد شابة صغيرة ربما في العشرينيات من عمرها، ليخبرها يوسف: "كانت تأتي إلى الحانة أيضًا لنفس الشيء، لتقديم القليل من المتعة مقابل الكثير من المال، الفتاة أرادت المال لتكتسب حياة كريمة، ففي الحانة عاهرة وخارج الحانة في حياتها الطبيعة لعبت دور الملكة بالأموال المكتسبة من عرق جسدها بأكمله". تجاهلته ميرنا مرة أخرى، لتمسك بالصورة الثالثة، والتي هي صورة لأمها، فضحك يوسف وقال: "هل تعتقدين أنها عاهرة مثلهن؟!". نظرت ميرنا له بغضب شديد عندما قال جملته، حتى كادت تنفجر غضبًا، قبل أن يضع يوسف إصبعه على فمها قائلًا: "أنا أريدك فقط أن تفهمي شيئًا، جميعهن عاهرات إلا أمك لم تكن كذلك، وهذا يعني أن أمك هي الاستثناء".

تعجبت ميرنا من كلامه قائلة: "لا أفهم!". سألها: "ما هو الشيء المشترك بين جميع الضحايا؟". أخبرته بصوت حزين "نساء". ليحرك يوسف رأسه يمينًا ويسارًا بإشارة منه على أن الإجابة خاطئة، فحاولت ميرنا أن تصحح إجابتها فقالت بتلعثم "عاهرات؟!". ثم صمتت وقالت: "لكن بالتأكيد الطفلة لم تكن عاهرة!". ضحك يوسف من سذاجتها، ثم قال لها: "بالطبع لا، أعتقد أن الطفلة تم قتلها بالخطأ ولم يكن مُخطط قتلها من الأساس، لهذا السبب هي الوحيدة بينهم التي أُطلق على رأسها الرصاص، لا يهم!! ففي جميع الأحوال إجابتك خاطئة، لكني سأسهل لكِ سؤالي قليلًا، تلك الصور لم أستطع النظر إليهم أكثر من ثانيتين، هل فهمتِ ما هو الشيء المشترك؟!".

تأملت ميرنا الصور مجددًا، لتجد الشيء المشترك الذي تحدث عنه يوسف بالفعل في جميع الضحايا، وهو أن جميعهن يمتلكن عيونًا زرقاء مثل أمها، فنظرت له وقالت بصوت متشكك وعقل متشتت: "ما يعني هذا؟!". صمت يوسف، وأخرج سيجارة أخرى من جيبه وأشعلها، ثم نفث دخان سيجارته في وجه ميرنا وقال بصوته الهادئ: "هذا يعني أن القاتل يرى أن كل من يمتلك عيونًا زرقاء هم شياطين، وهذا ما أومن به أنا، هل تعلمين ما يعني هذا؟!". صمتت ميرنا في دهشة ولم تجب من ذهولها، ليخبرها يوسف بسخرية "هذا يعني أنني أبحث لكِ عن صديق.. وليس عدوًا، ولكن هذا الصديق استطاع أن ينتصر على الشيطان بداخل العيون الزرقاء، أما أنا فإنسان جبان أخشى حتى النظر إليهم، أعتقد أنني عندما أصل إليه سأجعله يعلمني كيف فعلها قبل أن أقتله".

صمت قليلًا وقال: "آسف، أقصد قبل أن تقتليه أنتِ". أكملت ميرنا في صمتها، قبل أن تظهر على وجهها علامات التعجب قائلة: "هل في تاريخك الدموي هذا لم تقتل أحدً ذا عيون زرقاء من قبل؟!". ليجيبها يوسف ساخرًا: "لا... ربما لأن الشيطان أقوى مني". ظلت ميرنا صامتة، حتى وضع يوسف يده على خديها وقال: "أمك الاستثناء، أمك ليست عاهرة، أعتقد أن أمك هي الهدف والمراد من كل تلك الجرائم منذ البداية". أخذ نفسًا من سيجارته، ثم نفخه في وجه ميرنا مجددًا وكأنه يريدها أن تركز قليلًا مع كلامه ثم قال: "ألم تتعجبي أن القاتل توقف عن القتل بعدما قتل أمك؟!".

الصمت والحيرة هما ما يصفان ميرنا، والصدمة كذلك، وكلما

لاحظ يوسف هذا كلما تكلم مجددًا، حيث بدأ في الحديث من جديد وقال: "القتل كالجنس، لا يتوقف القاتل عن القتل إلى عندما يصل للنشوة". ثم ضحك وقال: "وإن لم يتوقف فهو لديه مشكلة في القذف وعليه أن يذهب لطبيب ذكورة". شعرت ميرنا أنه يهين أمها بكلماته، فوجدت أنه طفح الكيل ثم صرخت في وجهه قائلة: "اصمت أرجوك". صمت يوسف، فراحت ميرنا تضرب جبينها بيدها وكأنها تفكر، ثم سألته: "ماذا يريد هذا القاتل؟ وماذا يقصد بوضع عيون كلاب هاسكي مكان عيون ضحاياه؟!".

وضع يوسف يده على ذقنه وقد بدا عليه أنه يفكر في إجابة، ثم نظر لميرنا وسألها: "ما المميز في الكلاب؟"، لتجيبه ميرنا على سؤاله بعين بها لمعة:

- الحب

- وما المميز أيضًا؟!

- الوفاء؟!

- وما المميز في الكلاب الهاسكي دونًا عن باقي الكلاب في العالم؟

- عيونهم الزرقاء؟!

- وما المميز والشيء المشترك بين الضحايا؟!

- عيونهم الزرقاء!!.

صُدمت ميرنا عندما قالت "عيونهم الزرقاء" وكأنها فهمت رسالة القاتل، والتي تبدو كرسالة فاروق جويدة حين قال "كان في عينيكِ

شيء لا يخون، لست أدري كيف خان". وهذا تمامًا ما أخبرته ليوسف، قبل أن يخبرها بعين ثاقبة: "وبما أن أمك هي الاستثناء يا ميرنا، فيؤسفني أن أقول لكِ أن أمك هي العيون التي خانت والتي تم تبديلها بعيون كلب هاسكي، ربما تمنى القاتل أن تكون عيون أمك وفية تصدر شعاع حب صادق كعيون كلاب الهاسكي الزرقاء، فعيون الكلب الهاسكي وعيون أمك لونهما أزرق، ولكن ربما أمك تخون أما الكلب الهاسكي لم ولن يخون أبدًا".

لم تستطع ميرنا الإيمان بكلمات يوسف، فقالت بصوت غاضب وعين على وشك البكاء: "كيف لأمي أن تربطها أي علاقة بقاتل؟". نظر لها يوسف بغضب يبادل غضبها، ثم أجابها بلهجة ليست هادئة هذه المرة بل لهجة بها خشونة وقساوة: "لم يكن القاتل قاتلًا، ولم تكن مريم عاهرة، ولربما لم تكن أمك الملاك التي رأتها عيناكِ يا ميرنا". حاول يوسف أن يتمالك نفسه، فتأمل ميرنا بعين الشفقة، ثم عاد صوته الهادئ، قبل أن يضع يده على خدها ليمسح دموعها التي راحت تتساقط، ليقول لها: "أعدك، سأصل للقاتل، لا تحزني!، كل شيء مجرد فروض قمت بوضعها الآن، ربما يكون كل شيء خاطئ، ربما أنا ذلك الغبي الذي لم يستنتج أي شيء بشكل صحيح، وربما أكون قد أصبت التوقع، سنعلم عندما أصل إلى القاتل وأجعلكِ تواجهينه".

بدأت ميرنا تهدأ قليلًا بسبب كلمات يوسف، خصيصًا عندما قال أن لربما لم يكن شيء مما قاله صحيح، ثم بدأت تمسح بكائها بملابسها، وعندما هدأت ابتسم لها يوسف وقال: "هيا بنا، لنذهب إلى

القبو، مريم في انتظارنا". تحولت مشاعر ميرنا من الحزن والصدمة والغضب إلى الرعب في لحظة، قبل أن يمد لها يوسف يده، فأمسكت ميرنا بيده، وذهبوا في طريقهم إلى غرفة النوم، وفتحوا باب الدولاب الذي سيصل بهم إلى القبو، ثم نزلوا السلالم سويًا، لكن قبل أن ينزلوا سأل يوسف ميرنا سؤالًا غريبًا، حيث قال بسخرية: "هل كانت أمك تحب الكلاب الهاسكي؟!". لتجيبه ميرنا بغضب: "مريم بانتظارنا". ضحك يوسف وقهقه، ثم نزلا إلى القبو.

الفصل الثاني عشر

متلازمة العبد

نزلا القبو، لتجد ميرنا أن الطاولة الطويلة كما هي، والثلاثي داون يجلسون على كراسيهم، والكهل المشلول جالس على كرسيه المتحرك بنفس المكان الذي كان يجلس به في المرة السابقة، وهناك كرسيان فارغان على الطاولة، وهما الكرسيان الخاصان بميرنا ويوسف. جلست ميرنا على الكرسي الخاص بها، أما عن يوسف فاقترب من ذلك الكهل العجوز قبل أن يذهب إلى كرسيه، وقال له بهدوء "هل ما زلت تريد أن تراها ميتة؟!". أغلق الرجل عينيه بحزن، وأومأ رأسه بتعاسة، فابتسم يوسف له بابتسامة ماكرة، قبل أن يخبره بأمر: "إن ماتت ستأكل من لحمها!". نكس الرجل رأسه وهو في حالة ذل، قبل أن يعيد رأسه تجاه يوسف، ثم أومأ مرة أخرى علامة على موافقته.

وضع يوسف يده على رأس الكهل المشلول وقال بشموخ مضطرب: "هذا هو ابني". ثم ذهب باتجاه كرسيه وجلس مكانه أمام ميرنا. أما عن ميرنا من الناحية الأخرى فزاد الارتباك بداخل قلبها، ولكنها رسمت ابتسامة على وجهها بعدما سمعت جملة "هذا هو ابني". لكن سرعان ما عادت ملامح الحيرة والتشتت على وجهها مجددًا لأنها لا تفهم شيئًا، فهل لهذا الكهل علاقة بمريم؟!

لاحظ يوسف حيرتها، ليجيبها على سؤالها الذي لم تسأله قائلًا: "اسمه فؤاد، إنه زوج مريم". ثم ضحك وقال: "لم يكن زوجها

فحسب بل عاشق لها أيضًا، تمامًا كالمسكين وائل". استطاع يوسف أن يُلفت انتباه ميرنا عندما تحدث عن العشق مجددًا، فنظر لها بنظرة ثاقبة وقال: "إن القصة لها ثلاثة أضلاع، كالمثلث تمامًا، وهذا المثلث رأسه مريم، إنه مثلث ذو حالة فريدة يدعى بمثلث العشق".

أشار يوسف بإصبعه إلى الكهل العجوز وأكمل حديثه لميرنا قائلًا: "وائل كان عاشقًا مات لأجلها، أما فؤاد فهو عاشق لا يريد سوى موتها، فالعشق سلاح ذو حدين، سلاح قتلك أو جعل منك قاتلًا أو راغبًا في القتل". بذهن متشتت قالت ميرنا ليوسف: "أنا لا فهم شيئًا". ليجيبها يوسف ويقول لها "ستفهمين عندما أروي لكِ قصة مريم". ثم صمت قليلًا وأخذ نفسًا عميقًا، ليبدأ في قص القصة على ميرنا.

***

«علمت مريم مبكرًا أنها لا بد أن تنتزع من هذا العالم المُظلم كل شيء، فلا مجال للتنازل عن شيء، فيكفي كل ما خسرته في حياتها، لم تعش مريم طفولتها، خصيصًا وأن والدها قد مات وهي في السادسة من عمرها، وذلك ما جعل والدتها تتزوج من كهل لكنه ثري، لأنها لم تستطع التكفل بمصاريف ابنتها الصغيرة. كانت مريم كأمها تمامًا، لقد وهبهما الله بهبة أحيانًا يصفها البعض بالنعمة الكبيرة والبعض الآخر يصفها بالنقمة، وهذه الهبة هي الجمال الساحر، فكان كل من ينظر إلى والدة مريم يعشقها بسبب جمالها الذي لا يوصف سوى بجمال كجمال النداهة في الأساطير المصرية، فنظرة منها تستطيع أن تجذب أي رجل لها، وتستطيع أن تجعل جميع النساء

يحقدن عليها غيرة منها، واكتسبت مريم تلك الهبة أو تلك النقمة من أمها، فلا أحد يستطيع أن يُفلت من سحر جمال مريم، لا أحد يلمس مريم إلا وأصبح مدمنًا لتلك اللمسة، لا أحد ينظر في عيني مريم إلا ويُسحر بهما، لا أحد يستطيع النظر إلى جسدها المثالي إلا وهو متخيل نفسه بجانبها على سريره، حتى وإن كان جسدها هذا مغطى بملابس مصنوعة من فرو الدب القطبي.

أخبركِ هذا بيقين وصدق، فحتى أنا لا يمكنني إنكار تأثيرها على الرجال، فلقد كنت على وشك الوقوع في سحرها يومًا ما، لكني حاولت تجنبها خوفًا من أن تصيبيني بما استطاعت أن تصيب الجميع به، ما علينا.. فلنكمل القصة.

لقد ماتت والدة مريم بعد زواجها من ذلك الرجل الثري بعامين، فتكفل هو بمصاريفها وظلت في بيته تأكل وتشرب كالخِراف، لم يكن أبًا لها أو ما شابه، لكنه فعل هذا ليشعر وكأنه قد اكتسب عبدة له، وبالفعل كانت كالعبدة له، فهذا المعتوه لم يتوقف فقط عن جعلها عبدة تنفذ له أوامره بالسخرة، بل جعل منها عبدة للجنس عندما أصبح عمرها اثني عشر عامًا فقط كما لو أنه يقول لها أنا أدفع فعليكِ أن تدفعي، لا تتعجبي يا ميرنا فهنالك الكثير من المرضى الذين يستمتعون باغتصاب الأطفال.

ظل الحال على ما هو عليه حتى أصبحت مريم في سن العشرين، ربما سيخطر في بالك سؤال وهو لماذا لم تهرب طوال هذه الفترة، في هذه الحالة سأجيبكِ بجملة واحدة وهي جملة أشبه بـ (متلازمة ستوكهولم)، لكني سأخترع مصطلحًا جديدًا وأطلق عليه (متلازمة

العبد). وهو شيء يصف حالة الشخص الذي اعتاد العذاب من السجان فحبه وتعلق به، بل وأصبح يشعر أن الحياة بدونه ستصبح مرعبة حتى وإن كان ذلك الشخص مولودًا من رحم الرعب، وهذا حال مريم التي طالما خافت الهروب، فهي لا تعلم كيف يبدو العالم في الخارج، فظلت مكانها مع زوج أمها الذي جعل منها عبدة للجنس، بل أصبح الأمر عادة بالنسبة لها، وأصبحت مع مرور الوقت تستمتع بممارسة الجنس معه، وهذا قد يُذكرني بشخص أسود أتى إلى الأرض من رحم سوداء في زمن العبودية، وقضى حياته بأكملها كعبد، وعندما مات سيده ونال العبد حريته بكى حزنًا، ثم ركض مسرعًا باتجاه الكرباج ليعطيه لجثة سيده بينما يقول للجثة: "اجلدني، أخبرني أنك حي أرجوك". فمن اِعتاد كونه عبدًا ظن الحرية فخًا، ومن اِعتاد كونه عبدًا ظن أن الحرية عقاب أقسى من الموت، بل يرى أن الحرية عبودية.

الأمر أشبه بمن عاش حياته بأكملها في ظلام حالك ولم تشاهد عينه نورًا من قبل، وعندما وجد شعاعًا من النور خاف وأغلق عينيه، لأنه لا يعلم ما هذا الشيء العجيب الذي يراه. وهذا كان حال مريم عندما مات زوج أمها وهي في سن العشرين عامًا، خصيصًا بعدما ورثوا أشقاءه جميع ممتلكاته، فلم تكن الفتاة تعلم أين تذهب، وما هي طبيعة العالم في الخارج، فحزنت حزنًا كاد يجعلها تفكر في إنهاء حياتها، لقد حزنت على موت من جعلها لم تستطع أن تلتقط ملمحًا واحدًا للحياة. لكن قبل موت زوج أمها كان دومًا ما يزوره صديقه المقرب، وصديقه هذا هو فؤاد، ذلك الكهل المشلول الجالس

معنا الآن، لم يكن مشلولًا حينها، لكنه في ذلك الوقت سقط في فخ العشق، فبدأ سحر مريم يعمل، وعشقها فؤاد عندما رآها، لم يستطع مقاومة جمالها الأخاذ وتمنى أن تصير من ممتلكاته، فـفؤاد هو ذلك الكهل الذي لم يتزوج طيلة حياته، بل ظل يصنع في ثروته حتى أصبح عجوزًا وأيقن أنه قد نسي شيئًا مهمًا وهو أن يجعل امرأة تنتظره على السرير في المساء بعدما ينتهي من عمله.

وهذا ما جعل فؤاد يُسرع في اتخاذ القرار وهو الزواج بالفتاة المثالية مريم بعدما مات زوج أمها الطاغي، وذلك ما حدث بالضبط، فلم تتردد الفتاة لوهلة في الموافقة والقبول به زوجًا، على كل حال فمعلوماتها عن الحياة بسيطة، فما تعلمه هو أنها خادمة طوال اليوم وجسد يُشبع رغبات رجل كهل بحال ميؤوس منها في الليل. لكن فؤاد لم يكن ذلك الطاغي المتحكم بل أعطاها الثقة والحب التي كانت بحاجة لهما منذ طفولتها، وأصبح لها أبًا حنونًا، وزوجًا صالحًا، لقد فعل كل شيء ليرضي رغباتها الحياتية قبل الجنسية، لقد جعلها ترى الحياة بشكل آخر، فعلمت مريم ما معنى الحياة وما هي الحياة، وعلمت أن الحياة ليست بتلك التفاهة كما تخيلت من قبل أنها مجرد اهتزاز السرير مع اهتزاز جسدها، بل العكس تمامًا، فرأت أن اهتزاز السرير مع كهل لا يُشبع رغباتها الجنسية بشكل كامل هو آخر شيء يجب أن تفكر به.

ومع ذلك كانت مريم مطيعة له، وتُشبع رغباته الجنسية المكبوتة دائمًا دون كلل أو ملل أو حتى شكوى، وبالرغم من أنها شعرت بالأمان وهي معه إلا أن شعورها الآخر عندما تكون بجواره على

السرير ظل يلاحقها، فكلما ارتمت بين ضلوعه على السرير تذكرت زوج أمها فورًا، وذلك ربما لأنهم يشبهون بعضهم البعض، فهم الاثنان عجوزان يضاجعان شابة يافعة، وفي تلك الحالة أنا أتفهم موقفها لأني مثلها، فكلما نظرت إلى عيون زرقاء يتملكني الخوف الشديد بل وينقبض قلبي، لأنني أتذكر كيف أكل الكلب أمي بأمر من صاحب العيون الزرقاء.

لم يكن فؤاد الشخص المثالي بالتأكيد، فهو رجل أعمال طاغٍ وظالم وعنصري في الحقيقة، ولكنه شخص سيئ مع الجميع إلا مريم، فلقد اعتاد أن ينسى نفسه ويتحول لطفل صغير يفعل ما تشاء وهو معها، بل وكرس حياته لها وظل يفعل كل شيء ليرضيها ويرى سعادتها، حيث كان لمريم كل شيء يجعل الإنسان مبتهجًا في الدنيا متاحًا لها، ومثال على ذلك فقد جلب لها فؤاد سيارة باهظة الثمن لا يلمسها سوى الأغنياء، ولكني لن أتحدث عن السيارة اليوم، بل سأخبركِ عن سائق السيارة وهو الضلع الثالث في مثلث العشق، (وائل المُنتحر).

لكِ أن تتخيلي يا ميرنا أن هناك شابًا يرافق مريم طوال اليوم وفي كل خطوة، بالتأكيد وقع في سحرها هو أيضًا وأصبح عاشقًا لها ولم يستطع المقاومة، وقد لاحظ وائل أنها لا تحب فؤاد، بل ولاحظ أنها لا تعلم ماذا يعني الحب من الأساس، وأنها تتعامل مع زوجها بطريقة ليست كطريقة الزوجة لزوجها، وهذا ما جعل وائل يحاول أن يكتسب قلب مريم بكلامه المعسول المزين بروح الشباب وإغرائها بكونه شابًا وسيمًا وخصيصًا بسبب كونه شابًا، لأن هذا هو السبب

الوحيد الذي جعل مريم تشعر بالانجذاب للسائق وائل، فتلك المشاعر التي أهداها لها وائل لم تشعر بها الفتاة مسبقًا من الكهل فؤاد، فلقد علم وائل كيف يجعلها تحيا شبابها وذلك على عكس زوجها، ولذلك أعجبت مريم بوائل لأنه جعلها ترى الدنيا بنظرة شابة بعيدة كل البُعد عما عاشته، وهذه هي أول إشارة على أن الفتاة قد بدأت بالتعافي تدريجيًا من (متلازمة العبد).

ومع مرور الوقت، وبعد محاولات كثيرة من وائل لجعلها تحبه، اعترف وائل بحبه وتعلقه الشديد بها، فأخبرته مريم أنها تبادله الحب، أما عن الحقيقة فهي لم تحبه، بل أرادت تجربة الحب مع شاب ولم تجد أمامها سوى وائل، فبدأت قصة الحب الزائفة بينهما ، حتى تطورت علاقتهما كالمعتاد وأصبحت شيئًا مُحرمًا حين اصطحبها وائل إلى شقته لممارسة الجنس، وقتها شعرت مريم المرأة المتزوجة أنها لم تكن متزوجة، فهي لم تشعر من قبل بقوة وعنفوان الشباب. بالتأكيد لم يمارسوا الجنس مرة واحدة فقط، لكن الشيء الأهم هو أنها كلما ذهبت بإرادتها لأحضان وائل على سريره، كلما كرهت زوجها فؤاد، وبسبب كرهها لفؤاد الذي قد يبدو غير مبرر بدأت مريم ترى فؤاد على السرير بجانبها كزوج أمها تمامًا، بل زاد الأمر سوءًا وأصبحت تتخيله زوج أمها وهي تنظر له بينما يكون نائمًا فوقها ويضاجعها.

في ذلك الوقت كان وائل من أهم زبائن الحانة، يأتي دائمًا برفقة مريم، وهذا جعل الفتاة التي تكتشف العالم ترى الحياة بشكل آخر وجديد، ففي الحانة رأت مريم أن الجميع يريدون كل شيء، ورأت

العاهرات يأتون للحانة لاصطياد الرجال المخمورين لممارسة الجنس معهم، وسمعت كلامهم عن الجنس وهم يتحدثون سويًا ويضحكون، فشعرت بالتعجب قليلًا لأنهم يمارسون الجنس بمقابل المال، أما هي فعندما فعلت هذا مع وائل كان بمقابل أن تشعر أنها امرأة فقط، فلم يلعب المال دورًا هامًا في حياتها، ولكنها علمت أن المال مهم جدًا من خلال حديث العاهرات، بخاصة عندما يتحدثن حولها عما يعانين، فتستمع إلى هذا الحديث بالصدفة وينقبض قلبها، مما جعلها ترتعب وتخشى المستقبل، لذلك استغلت عشق زوجها لها، وبطريقة ثعبانية اكتسبتها من حديث العاهرات مع بعضهن البعض استطاعت أن تجعله يتنازل لها عن كل ما يملكه من ثروة.

قد يبدو الأمر غريبًا، خاصة أن شخصًا مثل فؤاد فاحش الثراء، مما يعني أنه ذكي جدًا على أن يقع في فخ مثل هذا، ولكن إنه العشق ما جعله غبيًا، ففؤاد عاشق، ومن هو العاشق إلا أعمى لا يرى غير عشقه، لذلك تتحول حياته من شخص يحيا لنفسه لشخص يحيا لمعشوقه، فيفقد حريته ويتحول تدريجيًا لكلب مطيع لمن يعشق. وبما أن العاشق أعمى وغبي كما اتفقنا، فكان فؤاد دون علم أنها تخونه ولم يتوقع هذا أبدًا، فهو قدم لها كل شيء يستطيع تقديمه، فأعتقد أن مريم التي يعشقها لم تشعر بالكره تجاهه مطلقًا، أما هي فخانت عشقه لها وثقته بها. فما حدث بعدها هو أنها تركته وذهبت لتعيش حياتها، ليصاب فؤاد بالشلل التام بعدما استوعب الصدمة، ولم يعد قادرًا على فعل شيء سوى تحريك رأسه عندما علم بما فعلته مريم، حين علم أنه خسر ثروته والمرأة التي عشقها، وقد علمت مريم بأمر

إصابته بالشلل لكنها لم تهتم. وها قد أصبحت مريم تمتلك أموالًا لا تُعد ولا تُحصى، لكنها تريد كل شيء وليس الثراء فقط، أرادت تلك القسوة والمتعة التي يروي عنها النساء من العاهرات في الحانة، فبدأت بالبحث عن أشخاص آخرين غير وائل ليشبعوا رغباتها، وبسبب جمالها الساحر فكان أي أحد تتمناه يصبح خادمًا تحت أقدامها، فهي النداهة والرجال هم من تم النداء عليهم، وهي المرأة التي يتمناها جميع الرجال.

بدأت في الهروب من وائل الذي عشقها وربط حياته بها، حتى وظيفته كسائق لها خسرها بسبب تنافرها منه، لقد أصبحت تخشاه وتخاف منه ولا تريده في حياتها بسبب جنونه المبالغ به نتيجة رفضها له، ولأنها أصبحت ناضجة كفاية لتعلم أن وائل بالنسبة لها لم يكن حب بل هو مجرد هروب من متلازمة العبد، ففي جميع الأحوال امرأة مثل مريم لم ولن تحب أبدًا. ومنذ ذلك الحين وأصبحت مريم تأتي إلى الحانة لتأخذ رجلًا يقضي معها ليلة في منزلها، بل وهي من كانت تدفع الأموال أحيانًا للرجل الذي يشبع رغباتها بشكل كافٍ، لكن ليس هذا الشيء الشنيع الوحيد الذي اعتادت فعله بل هنالك شيء آخر، وقد علمت هذا الشيء عندما أتت لي في يوم لتخبرني أنها تريدني أن أضاجعها، سأروي لكِ عما حدث في تلك الليلة بالضبط.

لم تكن هذه أول مرة تخبرني بها مريم برغبتها في ممارسة الجنس معي، لكني دائمًا ما كنت أرفض، وهذا ما أدى إلى جنونها، فأنا أعلم أن المرأة المثالية التي يتمناها جميع الرجال إذا رأت رجلًا خارج القطيع ولا يريدها تتوتر وتغضب، ثم تفقد الثقة بنفسها، ثم تعمل

جاهدة في تغيير طريق ذلك الرجل لكي يمشي مع القطيع، ربما هذا لا يلومها، بل يلوم قطيعها الجائع الذي جعلها تشعر كما لو أنها تمتلك القدرة على التحكم في خط سير الجميع.

في ذلك اليوم اقتربت مني وقالت: "ألم تأتِ لقضاء ليلة واحدة معي يا يوسف؟، أنا أشتهيك". حاولت ألا أنظر إليها، ولكنها ظلت مُصرة على أن أتحدث معها، فأمرتني بصب كأس من الخمر لها ففعلت، ثم راحت تشرب من كأس الخمر بشراهة، بعدها نظرت إلى وائل وهو جالس بعيدًا على طاولة وحيدًا، والذي صفعته على وجهه قبل أن تأتي لي لتجعله يبتعد عنها. نظرت لنظراتها إلى وائل وأخبرتها بشفقة: "أنه عاشق، لا لوم ولا عتاب عليه". وقتها تفاجأت والتفتت لي بدهشة قائلة "أخيرًا تحدثت يا رجل، أنتَ لم تخبرني بشيء منذ اليوم الذي عرفتك فيه سوى أنك تأكل لحوم البشر". بعدها ضحكت بسخرية، ثم وضعت يدها على خدي لتكمل حديثها قائلة: "أحب غموضك، وأحب حب الجميع لك هنا، أخبرني لماذا تنفر مني؟!". بعدما قالتها نظرت لي بإغراء، لذلك أمسكت بيدها ووضعتها جانبًا لأخبرها: " أنا رجل لا يحب الحديث مع العاهرات".

غضبت مريم كثيرًا عندما وصفتها بالعاهرة، لتخبرني بغضب: "أنا لست عاهرة يا يوسف". صمتت قليلًا، ثم أخذت نفسًا عميقًا وقالت: "سأخبرك بقصتي ومن ثم احكم عليّ، ربما تجد أنني لست عاهرة وتأتي لقضاء ليلة معي، هل تعلم؟! أنا أنوي الطلاق من زوجي، ألا تريد أن تحل محله؟!". ابتسمت لها، ولكن ليس بسبب عرض الزواج بل بسبب أنني سأستمع قصة جديدة وهذا يغريني أكثر من أي

شيء.

فرحت مريم بسبب ابتسامتي لها، ثم أخبرتني بتلك القصة التي رويتها لكِ يا ميرنا، وطوال سماعي لقصتها لم أجد ذلك الشيء المثير الذي أدهشني، والذي ربما يجعلني أرى أنها قد تستحق التطهير أو تستحق أن تكون ضحية من ضحاياي، لكن بعدما أخبرتني القصة قالت لي شيئًا غريبًا جدًا جعلني أعيد التفكير، والشيء هذا رأيته شنيعًا، وهو أن كل رجل تقضي معه ليلة جنسية مثالية، كانت تفعل هذا أمام زوجها المشلول!!.

نعم.. ما سمعتيه صحيحًا، لقد ظل فؤاد يراها وهي تمارس الجنس مع الرجال الغرباء طوال هذه الفترة، وذلك لأنها أصبحت ترى فؤاد كزوج أمها تمامًا، ففعلت ذلك من تلقاء نفسها أمام الشخص الذي تتخيله زوج أمها لتخبره أنها حرة أخيرًا، فلم يكن ذنب فؤاد إلا أن رؤيته تجعلها تتذكر نفسها عندما كانت مصابة بـ (متلازمة العبد).

أخبرتني بعدما قالت لي عما تفعله: "ألا يستحق هذا، أنه كهل لا قيمة له، قام بشراء امرأة فائقة الجمال مثلي بأمواله، وكأن الأغنياء يستطيعون شراء كل شيء حتى البشر، لقد قام بشرائي يا يوسف، والآن هو يدفع ثمني، أنه يذكرني بزوج أمي، في جميع الأحوال كلما نظرت إلى رجل كهل رأيت أمامي زوج أمي وتذكرت كيف كانت حياتي جحيمًا معه".

حينها فكرت مجددًا في عرضها بقضاء ليلة معها، فأخذت أتفحص وأتمعن جسدها وأنا أمثل أن الشهوة قد سيطرت على كياني، ثم

أخبرتها بينما أحملق بمؤخرتها: " لا أعلم إذا أنا مكانه هل كنت سأحاول شرائك أم لا، في جميع الأحوال إذا وجدت أمامي مؤخرة مثل هذه سأدفع الكثير لأجلها، وبخاصة أن سعرك حينها كان رخيصًا جدًا، لقد واقفتي على الزواج به دون تفكير، أخبريني يا مريم!!... إذا كنت أنا الشخص الذي عرض عليكِ الزواج حينها، هل كنتِ ستقبلين بي زوجًا".

قلت جملتي، ثم تأملت صدرها، لتخبرني بنبرة جعلتني بدأت أشعر بالشهوة حقًا: "لن أستطيع رفضك أبدًا يا عزيزي، أنتَ من رفضني كثيرًا".

ضحكت وأخبرتها بينما أعدت أنظاري لمؤخرتها " أعتقد أن لدي موعد غرامي مع مؤخرتك". فرحت مريم بشدة، وكأنها قد انتصرت أخيرًا على الشخص الذي يتحرك بعيدًا عن القطيع، ثم أخبرتني بينما كادت شفتاها أن تلامس شفتاي: "ماذا تريد من مؤخرتي؟! هل تريد أن تأكلها؟!". وضعت يدي على شفتيها، وبعين ثاقبة وصوت به شموخ مختلطًا بالشهوانية أخبرتها: "بالطبع، هل نسيتِ أنني من آكلي لحوم البشر، ستكون وجبتي المفضلة التي لم ولن أتذوق مثلها".

قبل أن أخبرها قائلًا "ولكن لدي شرطًا وحيدًا، لن آتي إلى منزلك لنمارس الجنس أمام زوجك، بل ستأتي أنتِ وزوجك إلى منزلي، أنه مشلول وأنتِ تتحكمين بتحركاته بواسطة كرسي متحرك أليس كذلك؟!، فمن السهل أن تأتي به إلى منزلي وسنفعلها أمامه لجعله يدفع الثمن أكثر".

حينها لم تتردد للحظة واحدة، فوافقت على شرطي، ثم أعطيتها العنوان، وها هي وزوجها في منزلي منذ ذلك الحين حتى الآن!!.

وهكذا أكون قد أنهيت قصة العاهرة مريم، والتي هي رأس لمثلث العشق، وذلك المثلث به ضلعان مختلفان عن بعضهم البعض، فهناك عاشق اختار أن يكون الميت للخلاص من عذاب نار العشق مثل المنتحر وائل، وهناك عاشق اختار أن يموت من يعشقه، وذلك بسبب أن من يعشقه خانه وخان ثقته واستغل كونه كفيفًا بظلام العشق، وهنا أقصد الكهل المشلول فؤاد.

لمَ أرى التعجب في عينيكِ يا ميرنا؟!، أعلم أنكِ تريدين أن تعلمي أين هي مريم؟!، أنها في المطبخ منذ يوم اختفائها، حتى عندما أتيتِ للمرة الأولى هنا كانت متواجدة بداخل المطبخ أيضًا، فهي لم تفارق المطبخ منذ اليوم الذي أتت فيه إلى منزلي».

الفصل الثالث عشر

سكين الرحمة

أنهى يوسف قصة مريم، ثم نظر إلى ردة فعل ميرنا التي راحت ملامح التشوش تظهر على وجهها بعض الشيء، قبل أن يتحدث يوسف مجددًا ويقول بنبرة منزعجة: "طوال حياتي وأنا أعلم أن الألم عقاب يمحي الذنب، فلقد عشت الألم وتحملته منذ الطفولة حتى وصلت لتلك المرحلة، ولذلك أنقذ الآخرين من ذنوبهم عن طريق الألم، ألم نفسي، وألم جسدي حتى الموت يطهر الروح ويجعلها حرة ونقية، لكني أحيانًا أرى أن هنالك أشخاصًا لا يستوجب أن يكون ألمهم جسدي حتى الموت، فأقدم لهم خدمة عظيمة وهو أن أجعلهم يشعرون بالألم النفسي والجسدي دون أن يزور ملك الموت منزلي، أفعل هذا مع الأشخاص الذين ارتكبوا ذنوبًا عظيمة ولكنهم لم يقتلوا أحدًا أو لم يتسببوا في قتل أحدًا، مثل مريم تمامًا، فلقد كنت أرى أن ربما الكثير من العذاب الجسدي برفقة العذاب النفسي لمريم سيجعل ذنوبها تسيل من جسدها النجس مع الدماء دون قتلها، لكن هذه المرة بسبب ذنوبها هناك شخص قد أنهى حياته؟! فهل مريم هي القاتلة؟! هل ترين أنها تستحق الحصول على أقسى تطهير يا ميرنا، هل ترين ذنوبها كافية لأقوم بتقطيعها حتى الموت ثم آكلها؟!".

كان الصمت لغة ميرنا في الرد على يوسف، فهي لا تعلم بما يجب أن تقول، قبل أن يضحك يوسف وينظر للثلاثي داون ويصفر بفمه،

ليقوم الثلاثي داون عن كراسيهم ذاهبين باتجاه المطبخ، ثم قاموا بفتح باب المطبخ ودخلوا يمكثون بداخله ثوانٍ معدودة، بعدها خرجوا منه وهم ممسكين بمريم، لقد كانوا يسحبونها من سلسلة ملتفة حول رقبتها وكأنها كلب مصاب بالسعار ويهدد كل من في الغرفة، أما عن مريم فكانت امرأة ساحرة الجمال ذات عيون سوداء رسمتها كرسمة عيون القطط حيث تستطيع أن تسحر بها أقوى الرجال، لديها الجسد المثالي الأبيض كالحليب، الممتلئ في المناطق التي يحبها الرجال ممتلئة، ترتدي عباءة بيضاء ولكن العباءة مشققة في كل اتجاه كما لو أنها تعرضت للجلد بكرباج أو عصا، وهنالك دماء جافة ومتجلطة في أماكن تلك الشقوق، بل وندبات وجروح كثيرة، وهذه الجروح منهم الجروح السطحية، ومنهم الجروح العميقة التي تم صنعها بواسطة سكين أو سلاح أبيض.

ظهرت ملامح الغضب الشديد على وجه الكهل فؤاد عندما شاهد مريم، بل كاد ينهض من كرسيه المتحرك من شدة بغضه لها، لكنه بالتأكيد لم يستطع، فملامح وجهه تحدثت نيابة عنه، حيث أنه عقد حاجبيه بغيظ، ثم أخذ يعض شفتيه بغِلّ، بعدها راح يضغط على أسنانه بقوة، بينما تتحرك عيناه باتجاه جسدها بالكامل بنظرات تبدو كنظرات الفهد الذي يريد أن ينقض على فريسته ليقطع رقبتها بواسطة فكه الحاد المُسنن.

أما عن مريم، فظهر عليها التعب الشديد مما تعانيه من الألم، ولم يظهر على عينيها سوى شيء واحد وهو الترجي، وذلك الترجي فهو لميرنا التي استمرت مريم في الحملقة بها بخوف وكأنها تريد أن

تخبرها: "أنقذيني منه". لكنها لا تستطيع الحديث خوفًا من يوسف.

أما عن ترجيها لميرنا فلم يفِ بالغرض، لأن ميرنا لم تهتم بالمشهد المرعب هذا بقدر اهتمامها بما رأت خلف باب المطبخ، وذلك الذي رأته في الصورة التي رسمها يوسف بالضبط مع اختلاف بسيط، حيث رأت ذلك الرجل الأصلع ذو الفم المُخيط جالسًا القرفصاء، ولكنه لم يكن تعيس كالرسمة، بل راح يترقب ويتربص لميرنا بغيظ شديد وكره عظيم وكأنها قتلت عزيزًا له.

صُدمت ميرنا وأصابتها حالة من الذهول عندما رأت الأصلع في الحقيقة، فمهما تخيلت يوسف وما يفعله من أشياء شنيعة إلا أنها لم يخطر في بالها أبدًا أن هناك شخصًا من الممكن أن يكون مُخيط الفم سوى في أفلام الرعب، فعقلها حتى تلك اللحظة غير واعٍ لمظهر هذا الرجل، ولذلك بالرغم من أن مريم تقف أمامها مُعذبة عذابًا أليم، إلا أنها أول شيء قالته ليوسف هو: "هل هذا الأصلع مُخيط الفم حقيقي؟! أم ما رأيت مجرد خيال صنعه عقلي؟!".

ضحك يوسف من سؤالها، ثم قال وهو يتأمل مريم بعين خبيثة بينما هي واقفة أمام الطاولة تبكي: "أنه الخادم".

شعرت ميرنا بالتعجب فرفعت حاجبيها بحيرة سائلة: " ولماذا فمه مُخيط؟!".

أكمل يوسف حديثه بنفس الضحكة وبنفس نظرته إلى مريم قائلًا: "لقد قُمت بتخييط فمه لأنه ثرثار يتحدث كثيرًا، أتمنى أن تفهمي قصدي يا ميرنا!!".

فهمت ميرنا أنه يريد أن يأمرها بالصمت ولكن بأسلوبه المتلاعب الهادئ المختلط بالعنف كعادته، لذلك أنصتت لحديثه وصمتت كما لو أن فمها هو المُخيط.

وعندما أطاعت ميرنا أمر يوسف وصمتت أكمل يوسف حديثه، ليبدأ الكلام وهو ظاهر على وجهه تأثرًا عميقًا، حيث قال: " ذهبوا إليه وهم ممسكين بزانية، وأخبروه قائلين (يا معلم، أخبرنا ماذا يجب أن نفعل) منتظرين أن يخبرهم بأن يرجموها، ولكنه نظر إلى الأرض، وكتب أمام كل واحد منهم بإصبعه على التراب خطيئته، وقال لهم (من منكم بلا خطيئة فليرجمها بالحجر أولًا)، حينها ذهب الجميع في حال سبيله، وعفوا عنها، أما عن المسيح فعفى عنها هو أيضًا وتركها تذهب".

صمت قليلًا، ثم انحنى بظهره ليخرج حقيبة بها الكثير من الحجارة كانت متواجدة أسفل الطاولة، ثم أكمل حديثه بنفس الطريقة العميقة التي كان يتحدث بها قائلًا:" لا أعلم لما قال المسيح (من منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر أولًا) لا أفهم لماذا عفى عنها وجعل الجميع يعفوا عنها، ولكن هيا لنطبق ما حدث في الماضي الآن".

عاد يوسف للخلف قليلًا بكرسيه، ثم قام بوضع قدم تعلو الأخرى على الطاولة، قبل أن ينظر إلى ميرنا بوجه خبيث يفكر في شيء ما، ليقول لها سائلًا: "هل يمكنك أن تخبريني إذا كان يوجد أحد بلا خطيئة في تلك الغرفة أم لا؟".

تعجبت ميرنا سؤاله، لتجيبه بيقين تام: "قطعًا لا يوجد أحد بلا

خطيئة". ابتسم لها بسخرية قبل إكمال حديثه قائلًا: "هل تعلمين من هو الخاطئ؟! الخاطئ هو من فعل ذنب ما بإرادته وبكامل قواه العقلية، هو شخص ناضج يعلم ما هو الطريق الصحيح، وما هو الطريق المخطئ ولكنه اختار الطريق المخطئ بكامل إرادته وبعد تفكير عميق، لذلك نحن نحكم على الناضج عندما يخطئ، أما الطفل الصغير محدود العقل ففي الغالب لا نحاسبه على أخطائه لأنه لا يعلم إذا كان ما فعله خطأ أم شيئًا صحيحًا".

ضحك بخبث ثم صمت، لأنه لاحظ من خلال نظرات ميرنا أنها تعلم تمامًا فيما يفكر، خاصة أنها بالفعل رأت اللوحة في الأعلى، قبل أن يسألها بنفس اللسان الماكر: "من هنا يمكننا أن نصف عقله بعقل الطفل".

تسارعت أنفاس ميرنا وضاق صدرها، ثم ابتلعت لعابها خوفًا، قبل أن تلقي بنظرات سريعة على الثلاثي داون بعين مفزوعة متسعة عن آخرها، ليصفق يوسف لها ويقول: "أحسنتِ، هذا بالضبط ما أفكر به".

في ذلك الحين قام من كرسيه، ومسك بحقيبة الحجارة، ثم ذهب باتجاه الثلاثي داون الجالسين بجوار بعضهم البعض، ووضع حقيبة الحجارة بينهم ليخبرهم بينما يربت على رؤوسهم بلطف: "أظن أن هذه رسالة لكل من يعتقد أن لا دور له ولا قيمة في الحياة، فحتى المصابين بمتلازمة داون أصبح لهم هدف الآن، فهم من يستطيعون الرجم".

ضحك الثلاثي داون بضحكاتهم المجنونة، قبل أن يمسك كل واحد

منهم بعدد كافٍ من الحجارة، ومن ثم قاموا برجم مريم.

شعرت ميرنا أن قلبها ينبض بسرعة، بل وشعرت بانقباض قلبها وهي تستمع إلى صراخات مريم، قبل أن يصيب أحد الثلاثي رأس مريم بحجر، فباتت تنزف وأصيبت بالدوار، ثم سقطت على الأرض بعين باكية تنظر إلى ميرنا وكأنها ما زالت تترجاها لتنقذها منهم.

ذهب يوسف باتجاه الشخص الذي أصاب مريم في رأسها والذي كان الغلام من الثلاثي داون، ثم نظر له بنظرة غاضبة وكأنه انزعج مما فعل، وذلك ما جعل ميرنا تشعر وكأنه بدأ في الشعور بالشفقة تجاه مريم، لكن نظرته الغاضبة تلك لم تكن بسبب شعور بالشفقة أبدًا، بل بسبب أن الإصابة كانت في الرأس، حيث قال له بصوت به نبرة عتاب: "إياك أن تصيب أحدًا في رأسه إذا كنت تريد أن تستمتع بصرخاته، لأن الإصابة في الرأس أحيانًا تُفقد المصاب الشعور بالألم، هل تفهم!!".

أومأ الغلام من الثلاثي داون برأسه، ثم عادوا جميعهم إلى الرجم مجددًا ،أما من الناحية الأخرى فلم تعد مريم تصرخ، بل أصبح وجهها فقط ما يدل على أنينها، نعم.. أنه الألم الصامت الذي عادة ما يحدث للإنسان عندما يعتاد جسده استقبال الضربات.

شعرت ميرنا بالأسى والحزن الشديد عليها، لتطلب من يوسف بصوت خائف ومرتعش قائلة: "هل يمكنك أن تتوقف؟!".

رفع يوسف يده بإشارة بها أمر للثلاثي داون كي يتوقفون، قبل أن ينظر لمريم الملقاة على الأرض والتي راح النزيف من رأسها يصبح

غزيرًا، ثم قال لها: "انتحر وائل، هل تشعرين بالذنب يا مريم؟". وعلى الرغم من أن مريم بالكاد تستطيع التحدث، إلا أنها أومأت برأسها وهي ملقاة على الأرض، وقالت بصوت استطاع يوسف سماعه بصعوبة: "أشعر بالذنب". ثم ابتلعت لعابها وحاولت التنفس بمشقة، قبل أن تقول وهي تنزف بالدموع: "أشعر أنني القاتلة، هل هذا ما سيجعلك تقتلني وتخلصني من هذا العذاب، نعم، أنا أشعر بالذنب يا يوسف".

ضحك يوسف، قبل أن يلتفت إلى ميرنا ويقول بصوته الهادئ "القرار ليس بيدي، بل القرار الحاسم لميرنا، هي من ستقرر إذا كنتِ تستحقين الموت أم لا".

شعرت ميرنا بالصدمة، فحملقت بعين مذعورة بيوسف، ثم قالت بلسان متشكك متلعثم: "ما.. ما.. ماذا تقول؟!".

اقترب يوسف من ميرنا ونظر في عينيها مباشرة ثم قال بسخرية "فؤاد يرى أنها تستحق الموت، وأنا لا أعلم حتى الآن، فالقرار قرارك يا ميرنا، إذا رأيتِ أنها تستحق الموت سيتم تطهير روحها حالًا بداخل المطبخ، إنها الديمقراطية".

عاد يوسف للوراء، ثم صفق بيده بإشارة منه للثلاثي داون أن يعودوا للرجم، فسارع كل من الثلاثي داون برجم مريم مجددًا، فزادت سرعة نبضات قلب ميرنا مع صوت صراخ مريم المرتفع، وكلما ارتفع صراخ مريم كلما زادت سرعة أنفاس ميرنا، وسال العرق على جبينها، فهي لا تعلم ماذا يجب أن تفعل، لقد سئمت أنينها

ومظهرها وهي تتألم وتريد أن يتلاشى ذلك المشهد بأي طريقة، لكنها ترى أن الطريقة الوحيدة التي من الممكن أن يتلاشى بها ذلك المشهد هو موت مريم، فهذه المرة على ميرنا أن تتخذ القرار، إذا كانت مريم تستحق الموت أم لا؟!.

ظلت مشتتة بينما تحملق بيوسف وتتأمل نظراته الشهوانية لمريم وهي تعاني وكأنه يشتهي ويستمتع بآلام الآخرين عندما يتذوقونه حقًا، زيادة على ذلك صراخ الثلاثي داون المجنون الذي كاد أن يفجر رأس ميرنا نتيجة لألم الصداع، لم تحتمل ميرنا ما ترى لذلك صرخت بصرخة عنيفة وقالت ليوسف: "توقف!!".

لم يهتم يوسف بما قالت ولم ينظر لها حتى، بل ظل الثلاثي داون يرجمون مريم، حتى قالتها ميرنا بترجي: "توقف أرجوك، لا أستطيع التحمل أكثر من ذلك!!".

في هذه المرة اهتم يوسف، ولكن الرجم من الثلاثي داون ظل مستمرًا، أما عن يوسف فقال لها: "سأتوقف حين تقررين، هل تستحق مريم الموت؟!".

في تلك اللحظة خرجت مريم عن صمتها وتحدثت بنبرة بها أنين وترجي، فقالت لميرنا: "أخبريه نعم!! أرجوكِ، لن يرحمني إذا قلتِ لا، أنتِ لا تعلمي ماذا حدث لي".

ابتلعت مريم لعابها، ثم حاولت النهوض جاهدة لكنها سقطت وهي تنهض بسبب ذلك الحجر الذي رماه أحد الثلاثي داون وصُدم بركبتها، قبل أن يرفع يوسف يده بأمر منه للثلاثي داون أن يوقفوا

الرجم، فأطاع الثلاثي داون أمر يوسف، ثم نهضت مريم بصعوبة بالغة وجسد مليء بالدماء ورأس تنزف بغزارة، وعين تبكي ألمًا وصدر بالكاد يستطيع سرقة بعض الأكسجين من الهواء، وعندما استطاعت الوقوف بأقدام غير متزنة أشارت إلى يوسف بأصبعها وأكملت حديثها قائلة بصوت خائف ولكنه مختلط ببعض من الجراءة والقوة: "هل تعتقدين أن هذا المعتوه سيتركني، لقد سئمت العذاب".

نظرت أرضًا، ثم نظرت إلى الثلاثي داون وقالت: " هؤلاء المجانين يعذبونني بأبشع الطرق بأمر منه، لم أعد أحسب الوقت الذي تعذبت فيه، لقد مر أكثر من شهر".

صمتت، وتنهدت، ثم أكملت حديثها: "الأمر لا يتعلق بالتعذيب بالنسبة لي، بل ذلك المكان الذي سُجنت بداخله طوال هذه الفترة".

أشارت بإصبعها إلى المطبخ ومن ثم أكملت حديثها: " هذا المكان لا تفوح منه سوى رائحة الدماء والموت، ولا يخرج منه سوى أصوات الموت".

نظرت للكهل فؤاد وأخبرته بنبرة منكسرة: " ألم تستمع لأصوات الموت وأنتَ في الخارج هنا؟! أخبرني يا فؤاد هل استطعت أن تحتمل أصواتهم وهم يموتون؟! أنا شاهدتهم!!".

أخذت نفسًا عميقًا ونظرت لميرنا، ثم قالت بأسى: " هذا المكان لعنة، لقد رأيت بعيني بشر يموتون بأبشع الطرق، وبأقسى أسلوب، لن أستطع التحمل أكثر، لم أعد أحتمل أن أشاهد الناس تموت، لم أعد

أحتمل ذلك العذاب النفسي الذي وقعت به مع هذا المريض، أصبحت أتخيل نفسي طوال الوقت وأنا مكانهم وأن هذا المريض يقطع من جسدي، لم ولن يفارق أصوات زفيرهم الأخير عقلي أبدًا سوى بموتي".

صمتت، وراحت تبكي بحرقة ثم قالت: " أريد أن أكون مكانهم، أريد الموت والخلاص من هذا العذاب، ولذلك أقول لكِ بصدق يا ميرنا، أرجوكِ أخبريه أنني أستحق الموت".

شعر يوسف بالغضب بسبب إهانة مريم له، فاقترب منها ببطء، فخافت مريم وحاولت العودة إلى الوراء ولكن حركتها البطيئة لم تساعدها، ليصل يوسف لها ويخبرها بابتسامة خبيثة على وجهه: " لا تقلقي، سأمزح معكِ مثلما يمزح الأصدقاء سويًا".

ثم صدم ساقها بقدمه من الخلف، لتسقط مريم أرضًا مجددًا، حينها ضحك يوسف مع سقوطها وأدار وجهه وجسده للثلاثي داون وهو فارد ذراعيه كالأجنحة، وبنفس الابتسامة الخبيثة قام بالتصفير للثلاثي داون لكي يعودوا للرجم مجددًا.

زادت حيرة ميرنا لأنها دون علم بما عليها أن تفعل، فذرفت عينيها بالدموع وكأنها تشعر بالندم أنها أتت لهذا المكان مجددًا، ومع كل رجمة على جسد مريم يرتجف جسد ميرنا وكأنها هي من تتلقى الضربات وليست مريم، ولكن قرارها قد اتخذته عندما ظلت مريم تتوسل لها وهي تُرجم وتقول بصراخ: "أخبريه أنني أستحق الموت، أخبريه أنني أستحق الموت، أنا أستحق الموت، لقد مات وائل بسببي،

وأصيب فؤاد بالشلل بسببي، أخبريه أنني أستحق الموت يا ميرنا، أرجوكِ!!".

لم تحتمل ميرنا ذلك الضغط النفسي، فقامت من مكانها وهي تصرخ بصوت مرتفع كصوت صراخ مريم، لكنها كانت تصرخ في وجه يوسف حيث قالت: "أنها تستحق الموت يا يوسف، يكفي هذا الهراء".

رفع يوسف يده بإشارة منه للثلاثي داون ليتوقفوا عن الرجم، ثم جلست ميرنا مكانها وهي في حالة صدمة، لا بد أن الفتاة لا تصدق أنها قد حكمت على إحداهن بالموت، ولكن بداخل عقلها كانت تحاول التبرير لنفسها لما فعلت، بل باتت تقول بداخل عقلها أنها حاولت إنقاذها فقط، ومن ثم عقلها يزيد من التبرير ويخبرها بأنه ليس إنقاذ بل مريم تستحق ذلك، حيث كان عقلها يخبرها: " أنها قاتلة، والقتل ليس مقتصرًا على إراقة الدماء فقط، فهناك قاتلي القلوب وهم أبشع ممن يحمل في يده سلاح ناري أو سلاح أبيض".

لكنها لم تصدق أي تبرير صنعه عقلها لها، وظلت صامته ومصدومة مما فعلته نتيجة لهذا الضغط النفسي التي وضعها يوسف بداخله دون أي إرادة منها.

أما عن يوسف فضحك، واقترب من ميرنا، ليُصدمها بصدمة جديدة، حين أخرج من جيبه سكين وأعطاه لها، ثم أخبرها ببرود أعصاب: "سأفعل بها ما أفعله بكل شخص، ولكنكِ ستدخلين معي المطبخ، أنتِ من سيقرر متى ستموت، خذي هذا السكين من يدي،

هذا السكين يمكنك أن تطلقي عليه سكين الرحمة، أنتِ من سيطعنها الطعنة الأخيرة، أنتِ من سيقرر متى سينتهي عذابها ومتى ستتحرر روحها".

مسكت ميرنا السكين وهي غير مستوعبة لما قال، فلقد كانت تنظر لـ(سكين الرحمة) بفزع وتعجب، ومن ثم تنظر ليوسف بترجي وكأنها تريد أن تخبره: "لا تفعل ذلك بي". حتى أصبحت يدها التي تحمل السكين ترتعش بشدة وكادت أن تُسقط السكين.

ترك يوسف ميرنا وذهب باتجاه مريم، ليمسك بها من شعرها، ثم قام بسحلها على الأرض التي تزينت بدمائها، قبل أن يذهب بها تجاه المطبخ ويقوم بفتح بابه ليدخلوا سويًا استعدادًا للتطهير.

أما عن ميرنا فظلت مكانها، حتى اقترب الثلاثي داون منها وقاموا بسحبها للذهاب إلى المطبخ، لم تستطع المقاومة وتحركت بإرادتهم وليس بإرادتها كما لو أنها دمية يستطيع المرء أن يحركها أينما يشاء، ففي جميع الأحوال هي ما زالت مفزوعة، تنظر إلى السكين في يدها بدهشة وقد توقف عقلها عن التفكير.

وحين دخلت المطبخ ونظرت يمينها سقط السكين من يدها، لا بد أنها قد رأت الفزع الذي روت عنه مريم قبل دقائق، لا بد أنها رأت الموت، بل رأت ما هو أقسى من موت.

ومن الناحية الأخرى كان بجوارها الرجل الأصلع ذو الفم المُخيط ينظر لها بكره وحقد شديد، حتى لاحظ يوسف ذلك وقال بصوت هادئ وعنيف في الوقت ذاته: "أعتقد أنه كان يجب علي أن أقوم

بتخييط عينيك وليس فمك".

خاف الأصلع وبعد عن ميرنا، ثم قام بإغلاق باب المطبخ، حيث أصبح لا وجود لأحد خارج المطبخ سوى الكهل فؤاد الذي لا بد أنه على موعد جديد لاستماع سيمفونية شيطانية تدعى بـ(أصوات الموت).

الفصل الرابع عشر

أصوات الموت

يجلس فؤاد على كرسيه المتحرك، يستعد للاستماع إلى تلك المعزوفة اللعينة التي استمع لها كثيرًا منذ أن بات ضيفًا في منزل يوسف، أنه على أتم استعداد لسماع (أصوات الموت)، وذلك ما جعل عينه تذرف بدمعة، وباتت تجاعيد وجهه واضحة كأمواج البحر نتيجة لملامح الحزن الذي احتل كيانه، لقد كان مقهورًا، وتلك القهرة سببها أن المعزوفة الشيطانية ستعُزف بأصوات المرأة التي أحبها بكامل فؤاده، ستعُزف بصوت صراخها، صوت أنينها وعذابها، زيادة على ذلك صوت آخر يزين تلك الأصوات وهو لرجل غريب الأطوار يُدعى يوسف بينما يضحك ويسخر من معاناتها.

لم يندم فؤاد لإصراره على قتل مريم، بالعكس تمامًا، حتى وإن كان إصراره طوال هذه الفترة عن طريق تحريك رأسه عندما يسأله يوسف: " هل تريدها أن تموت؟!".

فلقد رأى في يوسف مُخلصه من عذابه الأبدي ومن نيران الانتقام التي تحرق قلبه، وعلى الرغم من ذلك فهو يكره يوسف، بل يراه مريضًا ومجنونًا مما يفعله بالبشر، حتى أنه يشعر بالشفقة على مريم لأنه يعلم تمامًا أنها تعذبت بشكل لا يتحمله قلب سوى قلب يحمل من القساوة ما يكفي لقتل العالم بأكمله، ورأت مشاهد بداخل المطبخ لا يتحملها عقل سوى عقل مريض، كعقل يوسف.

ربما كان سيسامحها إذا علم أن يوسف سيتركها بعدها، ربما كان

سيكتفي بالعذاب النفسي والجسدي الذي عانته، لكنه يعلم تمامًا أن يوسف لن يتركها تذهب إلا عندما يشعر بالملل، ويعلم أيضًا أن يوسف شخص يستمتع بشعور الآخرين بالألم، وأينما وُجدت المتعة انعدم الفراغ والملل.

ولكنه سرعان ما يغير وجهة نظره حيال مسامحة مريم، سرعان ما يرفض عقله تلك الفكرة من الأساس، فلا زالت مشاعر الكهل متشتتة، ولا شيء يريح عقله من هذا التشتت سوى علمه بأنه سيرتاح أخيرًا من عذاب قلبه الذي عشق مَن جعله جالسًا على كرسي متحرك.

وها قد بدأ فؤاد في الاستماع لأصوات الموت، حيث اخترق أذنه أمر يوسف من داخل المطبخ وهو يقول لمن يرافقونه: "احملوها وضعوها على الطاولة" ليُنصت بعدها إلى أصوات لخطوات تتحرك بعشوائية، قبل أن يستمع لاصطدام عنيف على الطاولة، وهذا الاصطدام بالتأكيد هو الناتج عن مريم التي تم رميها على الطاولة ليبدأ يوسف بالتطهير.

لم تتعدَ اللحظات حتى بدأت أنغام السلاسل التي ستُقيد بها مريم تطرب في المكان بأكمله، وهم أربع سلاسل بالضبط، فلا بد أنها تُقيد الآن من أطرافها الأربعة، ومع أنغام السلاسل استمع فؤاد لصوت أنفاس متسارعة خائفة ومفزوعة، أنفاس لشخص مرتعب مما هو قادم، ومن ثم صرخت مريم بصرخة كصرخة الحزين على فقيده الميت عند استماع الخبر، وتلت تلك الصرخة صوتًا لصفعة دامية، والتي عقبها أمر يوسف لمريم عندما قال بنبرة بها قسوة: "اصمتي".

فلا بد أن الصفعة كانت على وجه مريم.

مرت دقائق، حتى اختفت نغمات السلاسل، واختفى صراخ مريم كذلك، لكنها تكلمت بنبرة مرتعشة وقالت: "أرجوكِ يا ميرنا، أنقذيني من عذابي الآن".

لم يستمع فؤاد لأي رد من ميرنا، فعلم أنها ما زالت غارقة في صدمتها بداخل المطبخ، أما عن يوسف فقد أكد للكهل فؤاد تخمينه حين قال بسخرية: "مازال عقلها غير واعٍ بما يحدث، لن تجيبك، اصمتي، وفري طاقتك وصراخك لما هو قادم".

ثم أكمل حديثه بلهجة بها جحود وتعالٍ وأمر: "ألن تجلبوا لي المنشار؟!". قالها يوسف، ثم استمع فؤاد لأقدام تركض بالداخل، وكأن من يساعد يوسف بالداخل والذين هم الثلاثي داون يتسارعون لجلب له المنشار.

بعدها لم تتعدَ الخمس دقائق حتى اخترق أذن فؤاد صوت لمنشار كهربائي، قبل أن يعود الصراخ مجددًا، وكان هذا الصراخ هو صراخ مريم، والذي بدا عنيفًا جدًا حيث كاد أن يجرح حنجرتها، ولا شيء يُعطل صراخها هذا غير توسلها وهي تقول لميرنا بنبرة مروعة مهلكة للأعصاب: "اقتليني".

أما عن ما استمع له فؤاد بعدها فهو صوت لطرقة قوية على الباب الحديدي الخاص بالمطبخ والذي اهتز بهزة عنيفة حينها، فخمن أن ما حدث هو عبارة عن اصطدام ميرنا بالباب، فهي أقرب شخص للباب وقد رأى هذا قبل غلقه، مما جعله يتوقع أنها لربما لم تحتمل

ما ترى، فصارت أقدامها هشة وسقطت بينما كانت ساندة بظهرها على الباب الحديدي بخوف، قبل أن يصدر بعدها هذا الصوت الناتج عن الاصطدام، فيهتز الباب الحديدي بتلك القوة. بدأوا الثلاثي داون في الضحك بهيستيرية، ليخبرهم يوسف بسخرية: " لنقطع جزءًا من اللحم المختلط بالأدرينالين".

راح الصراخ يعلو بداخل المطبخ بعدما قال يوسف جملته، فأخذت مريم تصيح بأعلى صوت نتيجة لهلعها وخوفها مما سيحدث، ولكن هذا ليس صوت الصراخ الذي يعشقه يوسف، فهذه ليست معزوفة الموت بل معزوفة تمنيه، لا يهم.. فلم يطل ذلك كثيرًا، فلقد أيقن فؤاد بعدها بثوانٍ أن يوسف قد بدأ في أن يقطع من لحم مريم بالفعل!!.

علم فؤاد هذا عندما تحول صراخها إلى صراخ الألم والعذاب، فصارت تصرخ صراخ المرأة التي يخرج جنينها من رحمها، وبدت أصوات الدماء الساقطة على الأرض كأصوات السائل الذي يتساقط من رحم المرأة حين يخرج الجنين بسلام، ولكن الفارق هنا هو أن جنينها الذي سيخرج هو روحها.

عاد ضحك الثلاثي داون الهيستيري مجددًا، لكنه مرافقًا لبكاء ميرنا خلف الباب، قبل أن يهتز الباب الحديدي بعنف نتيجة لعدة طرقات عنيفة عليه، وكأن ميرنا تطرق على الباب بشكل عنيف بسبب قلة حيلتها في فعل شيء لإنقاذ مريم التي تستنجد بها بينما يتم تقطيعها وتقول: "أنقذيني". لتصرخ ميرنا بجنون ردًا عليها قائلة بنبرة بها ذعر: "لا أستطيع!!".

ليزداد بكاء ميرنا قائلة بلهجة منكسرة حزينة بها قلة حيلة: "أنا آسفة". لتطرق بعدها على الباب مرة أخرى بعدة طرقات سريعة متكررة متتالية وقوية للغاية، فبسبب قوة تلك الطرقات لم يعلم فؤاد أي جزء من جسدها الذي يصطدم بالباب، هل يدها؟!، أم أنها تصدم رأسها بالحديد حتى تفقد وعيها لكي لا تشاهد هذا المشهد!!.

توقف صوت المنشار، فعلم فؤاد من الخارج أنه قد تم بتر أول قطعة من مريم، فبدأ يتنفس بهدوء، قبل أن يستمع إلى النبرة المرعبة بالنسبة له، وهي نبرة يوسف الذي يخافه رغم علمه بأنه لن يؤذيه، حيث قال يوسف وهو يضحك ساخرًا: "ميرنا، التقطي ذراعها". ليحدث بعدها صوت لدبة على الأرض، وهو بالتأكيد الذراع الذي ألقاه يوسف، لتصرخ ميرنا فزعًا، ثم يحدث اصطدام قوي بالباب الحديدي للمطبخ، والذي يدل على أن ميرنا بسبب رعبها من مظهر الذراع المبتور حاولت النهوض، لكنها لم تستطع التحكم بأقدامها نتيجة لهشاشتها، فسقطت على الباب مجددًا من قوة ما أصابها من هلع.

راح صوت بكاء ميرنا يصبح أكثر وضوحًا وبات أعلى، قبل أن تقول ليوسف بلهجة حزينة على حال مريم التي ما زالت تتألم بنبرة بالرغم من ضعفها إلا أنها هي المسيطرة بداخل المطبخ: "يكفي هذا، أرجوك خلصها من عذابها ". ليجيبها يوسف بجملة أزادت من الضغط النفسي عليها، حيث قال بلهجته الهادئة الواثقة: "سكين الرحمة في يدك، يمكنك وضعه على رقبتها في أي وقت". بنغمة بها قلة حيلة وإحباط ممتزجة مع البكاء الحارق أجابته ميرنا: "لا أستطيع".

ليستمع فؤاد بعدها للفتاة التي عشقها يومًا ما من داخل المطبخ وهي تتوسل لميرنا بصوت بالكاد مسموع نتيجة التعب وتقول:" تشددي وتشجعي". ثم راحت تتألم، لتكمل حديثها لميرنا قائلة: "تستطيعين". قبل أن تتوقف عن الحديث بعدما تفوهت بما تشاء قوله، ليقل الضوضاء والصخب بداخل المطبخ ويصبح هادئًا ولا يوجد به سوى ضوضاء الأنين الصادر من مريم، والبكاء الناتج عن ميرنا.

وقتها بدأ فؤاد في أن تتساقط دموعه هو أيضًا خارج المطبخ، بل وزادت سرعة نبضات قلبه، وكأن ما يتم تقطيعه بالداخل ليست مريم بل قلبه النابض، ويزين دموعه الساقطة على خديه صوت الدماء التي تتساقط من مريم على الأرضية بداخل المطبخ، والتي كانت كأمطار الشتاء حين تتهاطل على الأرض بكثافة، وكأن هذا الصوت يعبر عن حال فؤاد في تلك اللحظة، كالشتاء البارد الكئيب بسمائه التي تبكي.

عادت نغمة المنشار من جديد، وعاد الصراخ والعويل بداخل المطبخ، ولكن لم تكن مريم هي من تسببت في الإزعاج هذه المرة بل ميرنا من فعلتها، ميرنا التي بدت وكأنها أصيبت بالصرع حينما استمعت لنغمة المنشار، بل وراحت الطرقات على الباب الحديد تعود مجددًا، ثم عادت مريم للحديث لكنها أصبحت مسموعة إلى حد ما، حيث قالت بترجي وضعف: "اقتليني".

لم يستمع فؤاد لإجابة من ميرنا، بل ما استمع له هو أن عويلها أصبح مرعبًا ومروعًا ويقبض القلب، وربما يكون وجهها قد احمر

بالداخل نتيجة لتلك الصراخات التي من الممكن أن تنفجر الأذن بسببها، زيادة على ذلك فالطرقات على الباب الحديدي أصبحت أقوى وأعنف، حيث أنه تخيل أن يدها من الممكن أن تكون جُرحت أو قد تم كسر عظامها من قوة طرقها على الباب.

ولكن تخيلاته بأكملها توقفت فجأة حين استمع ليوسف وهو يقول: "لنقطع ساقًا من ساقيها!!". لتجيبه مريم برد عنيف ومكابر رغم الألم الذي تعانيه: "أنت معتوه". ليصدر بعدها صوت بصقة من داخل المطبخ، فلا بد أن مريم قد بصقت على وجه يوسف.

غضب يوسف، حيث لاحظ فؤاد نبرته التي تغيرت لتصبح غليظة، لكن على الرغم من ذلك إلا أن نبرته ما زالت محافظة على هذا الهدوء والبرود المريب، ليجيبها بلهجة ساخرة بها غيظ واضح قائلًا: "أعتقد أنه من الأفضل أن أقطع لسانك أولًا ثم ساقك". ثم قال بلغة بها أمر: " ضع المنشار على الأرض!!".

علم فؤاد حينها أنه أعطى المنشار للفتى من الثلاثي داون، وعلم أيضًا أنه سيمسك بسكين الآن ليقوم بقطع لسانها، وقد علم أن السكين ظهر أمام عينين مريم حين بدأت مريم بالبكاء قائلة بفزع وترجي وصراخ ضعيف: "اقتليني الآن يا ميرنا، أرجوكِ".

وكانت هذه آخر جملة قالتها مريم بلسانها، لأنه بعدها قال لمن يساعدونه فيما يفعله بلهجة متعجرفة مختلطة بالكره العظيم: "افتحوا فمها". في ذلك الحين راحت أصوات الخطوات العشوائية السريعة تحتل المطبخ، وكأن الثلاثي داون يلتفون حولها لفتح فمها،

ثم توقفت الخطوات، وبدأت مريم بالعويل والصراخ بينما تحاول الكلام بكلمات غير مفهومة، فلا بد أنه فتح فمها رغمًا عنها حتى أصبحت لا تقدر على النطق ببعض الحروف، لكن لا يوجد فارق على كل حال.. لأنها بعد لحظات قليلة ستصبح غير قادرة على نطق جميع الحروف!!.

خمن فؤاد من خلال نبرتها الغير مفهومة أنها ما زالت تتوسل لميرنا حتى تفعلها وتتشدد لتقتلها، أما عن ميرنا من الناحية الأخرى فكانت تفهم نبرتها الغير مفهومة أيضًا، لأنها لم تنطق سوى بجملة واحدة مختلطة بالبكاء الشديد حيث تقول: "لا أستطيع".

زادت قوة الصراخ، فلا بد أن يوسف قد بدأ بقطع اللسان، حتى توقف الصراخ وأصبح الصوت عبارة عن غرغرة، وهذا يعني أنه بالفعل تم قطع اللسان، ويعني أيضًا أن الدماء الخارجة نتيجة لقطع لسان مريم متواجدة بداخل حلقها، مما تسبب في صوت الغرغرة الخارج منها، وقد حدث كل هذا قبل أن يقول يوسف بسخرية بينما يضحك ضحكًا شديدًا: "التقطي اللسان يا ميرنا". بالتأكيد ألقى اللسان عليها، وقد أيقن فؤاد أن اللسان لم يصل لميرنا بل سقط على الأرض بجانبها، لأن الصوت الذي رن في أذن فؤاد كان كصوت قطعة من اللحم اللزجة الساقطة على الأرض.

بغضب وبنبرة مرتعشة قالت ميرنا: "يكفي هذا!!"، ثم راحت نبرة الغضب تختفي بعدها بثوانٍ وعادت لبكائها نتيجة لذعرها، بل وصرخت نيابة عن مريم عندما عاد المنشار الكهربائي يعمل واحتلت نغمته المكان بأكمله مجددًا، فنغمة المنشار تعني أن يوسف سيبدأ

في قطع الساق ولم يترك ولو دقيقة واحدة لمريم حتى تلتقط أنفاسها التي على وشك أن تتوقف نهائيًا!!.

توقفت ميرنا عن البكاء والصراخ فجأة، وأصبح هنالك لحظات من الصمت، حيث لا يخرج من الغرفة سوى صوت المنشار المزعج وأنين مريم، قبل أن يتكلم يوسف بنبرته الهادئة قائلًا: "يمكنك قتلها الآن".

لم تجبه ميرنا، بل ظل الصمت يعُم المكان، وظل أنين مريم ونغمة المنشار كما هما، قبل أن يبدأ الثلاثي داون في الضحك بضحكاتهم المستفزة التي ترتعد لها الأوصال، ليأمرهم يوسف بأن يصمتوا بلهجة غاضبة، ثم يخبر ميرنا متسائلًا: "هل ستقتلينها أم أبدأ في قطع ساقها".

بنبرة خافتة ساكنة وباردة بعض الشيء، بل وبها خيبة أمل أخبرته ميرنا: "لا أستطيع".

أما عن مريم فأستمع فؤاد لها وهي تحاول أن تنطق دون جدوى، فحديثها غير مفهوم نتيجة لقطع اللسان، لكنه علم من الخارج أنها تتوسل لميرنا مجددًا لكي تقتلها، لقد كانت تبكي بحرقة وهي تحاول الحديث ولم تستطع، وهذا ما جعل فؤاد يبكي أيضًا، قبل أن يتذكر أنه لا يستطيع الحديث كذلك بسببها، لتتحول ملامح وجهه من ملامح حزينة إلى ملامح بها انتقام وقسوة، وعلى الرغم من أن دموعه لم تجف بعد وما زالت تسيل على خديه، إلا أنه لا يستطيع تحريك يده ليمسح تلك الدموع التي خانته ونزلت حزنًا على مريم.

راحت مريم تصرخ خوفًا مرة أخرى في محاولة منها أن تتحدث

دون أي فائدة، كان صوتها يبدو وكأنها تريد أن تقول كلماتها بسرعة رهيبة، تريد أن تخبر ميرنا لتسرع بقتلها لأن المنشار يقترب منها، ولكن الكلمات لم تخرج، فلم يخرج سوى أصوات الفزع والرهبة والهلع مما هو قادم، حتى تحولت نبرتها إلى نبرة بها ألمًا عظيمًا، فعلم فؤاد في تلك اللحظة أن يوسف قد بدأ في بتر الساق.

لم يهدأ يوسف ولو لثانية، حيث أنه بينما يبتر الساق ظل يتحدث لميرنا ليثير غضبها ويجعلها تثور وتنفجر، بل وأخذ يضغط عليها بألاعيبه النفسية قائلًا: "لا أعلم ما الذي تنتظرينه لتقتليها، هل أنتِ مستمتعة بما تشاهدينه؟!، لا أعلم حتى الآن لما الانتظار؟!، ما الذي يجب أن يحدث لكي تقتلي لأول مرة؟!، لقد تم قتل أمك وتبديل عينيها بعينين لكلب هاسكي، وبعدها أكلتِ لحمًا بشريًا، ثم رأيتِ رأس خاطف الأطفال أمامك على الطاولة، لينتهي بكِ المطاف بانتحار وائل أمامك ذبحًا؟! ما يجب أن تري مجددًا حتى يقوى قلبك وتقتليها؟!".

لاحظ فؤاد الصمت الرهيب من ميرنا وكأنها غير متواجدة، حتى بدأ يوسف في إثارة غضبها مجددًا قائلًا: "أخبريني كيف ستقتلعين عيون قاتل أمك وسكين الرحمة في يدك لم يتلوث بعد؟! هل هذا معقول؟! بالطبع لا؟!".

ما زال لا يخرج من الغرفة سوى صمت من ميرنا وصراخ الألم من مريم، ولهذا السبب أكمل يوسف حديثه وقال: "تخيلي أن من أبتر ساقه الآن هو قاتل أمك".

ظل الحال على ما هو عليه ولم يخرج من ميرنا أي صوت ولو مجرد همسات غير مسموعة، لذلك بدأ يوسف يسخر منها ويقول: " قاتل أمك على الطاولة يا ميرنا، هيا لتقتليه".

نبرة غريبة من مريم خرجت وهي تصرخ، أنها تتمنى الحديث بلسان مقطوع، وتلك النبرة بها نغمة مميزة، نغمة يستطيع المرء أن يفهم ما تريد قوله بها، أنها فقط تريد أن تخبر ميرنا وتقول: "اقتليني".

في تلك اللحظة استمع فؤاد لصرخة عنيفة دامية وقاسية من ميرنا، وكأنها قد خرج بركانًا من صدرها، أو كأنها جن جنونها، ثم استمع صوت لأقدام تركض مسرعة بداخل المطبخ، قبل أن يستمع لميرنا وهي تقول بنفس الغضب والاندفاع: "قتلتك يا مريم!!، قتلتك يا مريم!!، قتلتك يا مريم!!".

ليرن في أذن فؤاد رنين السكين الذي سقط على الأرض، فلقد فعلتها ميرنا ولوثت سكين الرحمة بدماء مريم، فعلتها وقتلتها، أو بمعنى أوضح رحمتها. وبعدما فعلتها، صرخت ميرنا بصرخة اهتز لها المطبخ، صرخة جعلت الكهل فؤاد يريد أن يضع يديه المشلولتين على أذنه ولكنه محروم من ذلك. لم تتعدَ الثانيتين، حتى بدأت أنفاس مريم الأخيرة تسيطر على المطبخ، أنها أنفاس الموت، لقد دخل ملك الموت المنزل بالفعل وها هو متلهفًا منتظرًا خروج روح مريم من جسدها بسلام ليستلمها ويهرب بها من ذلك المكان.

لم يكن هذا كل شيء، بل كان هنالك رفيقًا لصوت أنفاسها الأخيرة

وهو صوت لدبة على الأرض وكأن شيئًا ثقيلًا قد سقط أرضًا، اعتقد فؤاد أنه لربما يكون ساق مريم المبتور، أو ميرنا هي التي سقطت أرضًا وفقدت الوعي، لكنه بينما يخمن فيما سقط بدأت أنغام السلاسل في أن تطرب المكان بأكمله مجددًا، لقد بدأ يوسف في فك المتبقي من قيود مريم، حيث أنه قام ببتر ساق وذراع، مما يعني أنه لم يتبقَ سوى قيدين، وبالفعل هذا ما حدث، لقد فك قيدين، قبل أن يتم فتح باب المطبخ، ليخرج الثلاثي داون لفؤاد بينما الغلام منهم يحمل اللسان بيده، ثم قام بوضعه في فمه وكأنه لسان جديد اشتراه له والده ليلعب به ويخيف الآخرين، أما عن الفتاتين فإحداهن تحمل الساق، والأخرى تحمل الذراع.

بدأوا الثلاثي داون في إفساح المجال ليوسف الذي خرج من الغرفة وهو يرتدي ملابس غارقة بالدماء تشبه ملابس الجزارين، يحمل بيده اليمنى المنشار، أما اليد اليسرى فهو يحمل بها مريم من عباءتها البيضاء التي تحولت حمراء بالكامل نتيجة لكثرة الدماء النازفة، حيث أنه يمسك بالعباءة من الخلف ناحية ظهرها بيد واحدة فقط كما لو أنه يمسك بدمية خفيفة الوزن، فبدت المسكينة كالطائرة على الأرض، وكان المشهد مثلما يمسك الأب ابنه الرضيع من ملابسه ليرفعه ويرسم البهجة على وجهه.

ليس هذا الغريب في الأمر، بل الغريب أن مريم ما زالت تحاول التنفس دون جدوى!! نعم!.. أنها ما زالت حية، فسكين الرحمة عندما لمس جسد مريم لمس رقبتها، لقد ذبحتها ميرنا وبالرغم من ذلك ما زالت الروح بداخل جسدها تصارع حتى لا تخرج. وبالرغم من

أن يوسف يمسك بها وهي بدون ذراع أيمن وبدون ساق يسرى، والأرضية تحتها أصبحت كسجادة من الدماء، بل وتنزف الدماء من فمها أيضًا نتيجة لقطع اللسان، إلا أن روحها ما زالت كالقدوة في العناد. ضحك يوسف وهو ينظر لفزع فؤاد، قبل أن يمسك برأس مريم من شعرها ويضع المنشار على رقبتها ليقوم بفصل رأسها عن جسدها أمام الرجل الذي عشقها، ثم قال بلهجة بها سخرية عندما سقط جسد مريم وتبقى الرأس فقط في يده: "هذه هديتك يا فؤاد".

حينها تمعن فؤاد برأس مريم، فوجد أن جفنها قد رمش برمشتين، قبل أن يصبح ساكنًا وميتًا تمامًا كباقي جسدها، في ذلك الحين قال يوسف وهو مبتسمًا: "مريم.. الآن أنتِ حرة".

لاحظ يوسف عدم وجود ميرنا، فالتفت لداخل المطبخ وقام بالمناداة بلهجته المغرورة المتعجرفة بعض الشيء وقال: "هيا يا ميرنا، عليكِ تسليم فؤاد هديته".

خرجت ميرنا من المطبخ بأقدام مرتعشة ووجه وجسد غارقين بالدماء، فنظرت لفؤاد بغضب، ثم نظرت إلى رأس مريم بحزن، لتمسك بها دون خوف هذه المرة، لقد تجرأت الفتاة بعدما قتلت، بل وظهرت تلك الجرأة عندما أمسكت بالرأس وقالت لفؤاد بنفس النبرة التي تبدو كالبركان: "هل هذه هديتك يا أبله؟!".

قالتها، ثم راحت تركض كالثور الثائر نحو الكهل فؤاد، قبل أن تقوم بإزاحته بقوة حتى سقط هو والكرسي المتحرك معًا، لتعود صرختها المجنونة وقتئذ، وتقوم بضرب رأس فؤاد بواسطة رأس

مريم المقطوعة بعدة ضربات قوية ومتتالية، كما لو أن رأس مريم كالمطرقة ورأس فؤاد هو حائط يتم تكسيره، فظلت تضربه بعنف وعدوانية حتى تحطمت جمجمته، قبل أن تخرج روحه من جسده لتتبع روح محبوبته، ليخرج ملك الموت بعدها من المنزل سعيدًا برفقتهما الاثنين معًا.

عادت ميرنا لصمتها بعدما قتلت فؤاد، لم يطل صمتها بل استمر لدقائق، ثم أخذت تضحك بجنون كما لو أن أحدهم يلقي عليها بنكتة أو مزحة، وبعد لحظات راحت تبكي بحرقة لا مثيل لها، ثم تضحك بجنون وهي تنظر إلى يدها الغارقة بالدماء، وبعدها تبكي بحرقة مجددًا، وهذا ما أثار دهشة الثلاثي داون الذين حاولوا الاقتراب منها، قبل أن يمنعهم يوسف من الاقتراب قائلًا بلهجة بها تحذير: " أنها خطر عليكم الآن".

لقد كان يوسف خائفًا منها هو كذلك، لكنه يشعر بما تشعر به، فهو يعلم أنها اللحظة المصيرية وهذا هو تأثيرها، اللحظة التي بإمكانها تغيير الإنسان من شخص لآخر، لحظة واحدة تستطيع أن تجعل الوحش الكامن بداخل كل بشري يتحرر، وهذه اللحظة هي الأصعب في حياة أي إنسان لأن تأثيرها سيستمر مدى الحياة، وذلك لأن الوحش الكامن في الصدر الذي قد تحمل الكثير من المعاناة لن يخرج إلا عندما يقوم بتفجير القفص الصدري، وحينها سينفجر القلب أيضًا، ليصبح الإنسان ذلك الشخص القاسي الذي لا يشعر بشيء، وهو الذي يسمى بـ(إنسان بلا قلب).

يعلم يوسف تلك اللحظة جيدًا، ويعلم أن ميرنا ما زالت تحاول أن

تقاوم تأثيرها، بضحكها الهيستيري الذي يدل على الشموخ والقوة، وبكائها لأنها تعلم تمامًا أنها ماتت من الداخل منذ أن وضعت سكين الرحمة على رقبة مريم.

اقترب يوسف منها بحذر، قبل أن يضمها إليه ويضع رأسها على صدره المتسخ بالدماء لتهدأ قليلًا، وبالرغم من ذلك إلا أنها ما زالت كما هي، تضحك بسبب شعورها بقوتها بعدما قتلت، وتبكي لتوديع شخصها القديم الرحيم، حتى تكلم يوسف بسخرية قائلًا لها بينما يربت على ظهرها: "لقد ارتكبتِ خطأ يا ميرنا، لم يكن عليكِ قتل فؤاد، كان يجب أن يأكل من لحم مريم معنا".

لم تجب ميرنا بل ظلت على نفس الحال، لذلك حرك يوسف يده على رأسها، وبدأ يداعب شعرها بلطف وقال: "لا عليكِ". ثم ضحك، ليكمل حديثه قائلًا بسخرية حزينة بعض الشيء: "لقد أصبح مثلث العشق متساوي الأضلاع، فجميعهم طالهم الموت".

لم تنطق ميرنا، بل ما زالت واضعة رأسها على صدر يوسف وهي تضحك بجنون، ثم تبكي بحرقة كبكاء الأطفال الرُضع. لذلك تحدث يوسف بصوت هادئ للثلاثي داون وقال لهم: "أدخلوا الجثث المطبخ وابدأوا بتجهيز لحم مريم للطهي".

أطاع الثلاثي داون أمر يوسف، وأخذوا أجزاء مريم المبتورة ورأسها وباقي جسدها ودخلوا المطبخ، ثم أخذوا فؤاد سحبًا على الأرض حتى وصلوا به للمطبخ هو أيضًا، ولم يتغير شيء بعدها، حيث استمر المشهد على ما هو عليه، فظلت ميرنا واقفة وواضعة

رأسها على صدر يوسف، بينما يربت يوسف على رأسها برقة وحنان، ومن حولهم أرض صارت كبحر من الدماء.

الفصل الخامس عشر

المرة الأولى

بعد مرور ساعات:

بدأت ميرنا في استيعاب ما ارتكبت، حيث أنها تجلس على الكرسي الخاص بها أمام الطاولة في انتظار لحم مريم الذي يطهى بداخل المطبخ وأشد ملامح التعاسة والندم ظاهران على وجهها كوضوح النار في الظلام، حتى أنها راحت تحادث نفسها، وقد لاحظ يوسف هذا وهو جالس أمامها منتظرًا الطعام.

لم تكن ميرنا متسخة بالدماء، فلقد استحمت الفتاة بداخل منزل يوسف، بل وغسلت ملابسها التي غرقت بالدماء أيضًا، كما فعل يوسف تمامًا، والذي ظهر نظيفًا ويلمع كلمعان ضوء الشمس حين ينعكس على مياه البحر، أما عن الغرفة حولهم فهي نظيفة كذلك ولا يوجد بها أي بقعة من الدماء على الأرض.

حاول يوسف التحدث مع ميرنا، ولكن كلما فتح فمه تلقى ردة فعل ميرنا التي ظهر فيها لغة أمر واضحة، حيث أنها تضع أصبعها على فمها بطريقة عمودية بإشارة منها أنها لا تريد سماع أي صوت، فقط تريد أن ترتكب المزيد من الفظائع وتأكل اللحم البشري مثلما يريدها أن تفعل لترحل بعدها من هذا المنزل، فلقد وضح على الفتاة أنها تتمتع بجرأة وقوة لم يرَها يوسف بها مسبقًا، لكنه يعلم سر تلك القوة المفاجأة.

هذا هو الأمر بالنسبة لها، أما بالنسبة ليوسف فلم تعجبه لغة الأمر الواضحة بتعبيرات ميرنا وتحركات جسدها، لذلك حاول الحديث مجددًا وقال: "أريد أن أخبرك...". قبل أن تقاطع ميرنا كلماته بلهجة غاضبة وهادئة في الوقت ذاته قائلة: "التزم الصمت". وبعدها نظرت إليه بنظرة ثاقبة بها تحول رهيب لشخص ميرنا التي باتت غير خائفة بالمرة.

ابتسم يوسف بابتسامته الهادئة ونظر لها بنظرة ثاقبة تبادل نظرتها، ثم قال: "أريد أن أخبرك عن المرة الأولى التي قتلت بها".

صمتت ميرنا، فأغلقت عينيها ثم أومأت برأسها، ربما لأنها ما زالت تمتلك ذلك الفضول الذي جعلها تريد السماع لقصة جديدة من قصص يوسف؟!، أو لربما لأنها تعلم تمامًا أنه لن يصمت وسيروي القصة في جميع الأحوال!!. قاد يوسف الحديث مجددًا، وقال بتأثر بات واضحًا: "عندما يُهدم الحائط المتواجد بينك وبين الدماء، يتلاشى شخصك الذي كان متواجدًا خلف الحائط، وحينها من سيعبر ذلك الحائط المهدود شخص آخر".

تأثرت ميرنا قليلًا، قبل أن يكمل يوسف حديثه قائلًا: "أعلم ما تشعرين به، لقد تلاشى شعورك بالخوف من سفك الدماء، ولكن خوفك الحقيقي هو خوف مما ستصبحين عليه من الآن فصاعدًا، لقد بدأتِ تشعرين أنكِ فوق الناس جميعًا، ستقاومين، ستحاولين جاهدة نسيان ما حدث ولكن هذا لن يحدث أبدًا، هنالك شيء بداخلك سيدفعك لقتل المزيد من الأرواح، ربما سيظهر أمامك شخص سيء دنيء ليرهق مشاعرك، حينها ستدفعك نفسك لقتله

قائلة (لما لا؟!) وهذا لأنكِ قتلتِ من قبل، وقد رأيتِ بعينكِ أن الأمر ليس بتلك الصعوبة التي كانت في مخيلتك مسبقًا، فلما لا؟!".

ظهر على وجه ميرنا ملامح الخوف الشديد، بل والحزن والحسرة، مع وجه مكابر يحاول إخفاء هذا أثناء تأملها بيوسف، وتلك الملامح نتيجة لرعبها من كلامه الذي يشير على أنها ستتحول وتصبح مثله بالتدريج، لكن عقلها كان يحاول أن يجعلها تطمئن ويذكرها أن يوسف شخص خبيث يحب التلاعب بعقول الآخرين، بل وراح عقلها يخبرها أيضًا أنها ما زالت كما هي ولم تتجرد من كونها إنسانة فلا يجب أن تخشى ما هو قادم.

قطع يوسف حبل أفكارها، ليخبرها بوجه بدا وكأنه متأثرًا بعض الشيء: "سأروي لكِ عن تجربة القتل للمرة الأولى بالنسبة لي". ثم تنهد بنهدتين، وعاد بظهره للخلف بكرسيه حتى أصبحت رأسه تجاه السقف، بعدها قام بوضع قدميه الاثنين على الطاولة أمام ميرنا بقدم فوق الأخرى، ومن ثم وضع يديه الاثنين على بطنه بيد تعلو الأخرى كما هو حال أقدامه، قبل أن يبدأ رواية القصة.

***

«لم أكن ذلك الطفل المحظوظ في حياتي، فلقد مات والدي قبل ولادتي، ولم تكن أمي رحيمة بي، فعانت منذ وفاة والدي من نوبات غضب شديدة واكتئاب حاد، بل واعتادت على ضربي منذ الصغر حتى بلغت سن الثامنة، وهذا هو العمر الذي رأيت فيه الكلب يأكلها أمام عيني. لا أتذكر أنني أحببتها، ولكن ما حدث بعد موتها هو أنني

أصبحت وحيدًا في هذا العالم المرعب دون أحد، فربما هذا هو سر تعاستي طوال حياتي، لأنني بعدها تربيت بداخل ملجأ للأيتام.

لم يكن ذلك المكان رحيمًا بالأطفال، بل علمهم شيء أصبحت لا أؤمن بشيء آخر سواه، وهو الألم لمغفرة الذنوب، فكلما ارتكب طفل ذنبًا أو خطأ عوقب أمامي أشد عقاب بواسطة العِصِيّ، وأحيانًا يصل العقاب إلى الكي بالنار، وبعدما يُعاقب الطفل ينال الرحمة والتسامح، ما زلت أشعر بألم عقابهم بداخل ملجأ الأيتام، وما زلت أتذكر كل ليلة لم أستطع النوم فيها بسبب ذعري مما سيحدث لي غدًا، لأنني كلما نمت استيقظت متبولًا على نفسي بسبب ما أرآه في أحلامي وهو مشهد إطعام لحم أمي للكلب، وهذا ما كان يجعلهم يعاقبونني كل يوم بأقسى أنواع العقاب فقط لأنني تبولت على السرير.

وعلى الرغم من صمتي طوال فترتي في الملجأ، حيث أنني كنت ذلك الصبي الذي لا يتحدث أبدًا إلا بكلمات معدودة، إلا أنني لم أفلت من قسوتهم حتى بعد عقابهم اليومي بسبب تبولي أثناء نومي، بخاصة عندما يسألونني أين أمك وهم منتظرون الإجابة التي ستجعلهم يضحكون لأنهم لم يصدقوها، وتلك الإجابة هي أنها كانت وجبة دسمة لكلب، فالجميع يعتقد أن أمي تركتني وذهبت إلى حيث لا يعلم أحد، بخاصة أنهم يعلمون تمامًا بشأن مرضها النفسي.

كانت هذه هي حياتي في ملجأ الأيتام، حتى مرت السنين ونضجت، لأخرج من ملجأ الأيتام وأجد نفسي أمام عالم أقسى من ملجأ الأيتام نفسه، ظللت في الشارع كمتشرد ولا أعلم كيف أعيش، حتى أصبحت في العشرينات من عمري، وقتها حصلت على عملي

في الحانة، لم أكن أعمل في الحانة فقط حينها بل وجدت عملًا آخر في سوبر ماركت، حيث اعتدت العمل في السوبر ماركت صباحًا، ثم أرتاح قليلًا بعد انتهاء العمل للذهاب إلى الحانة في المساء، وظل هذا هو يومي، حتى أعجبت بفتاة.

لقد أعجبت بفتاة جميلة للغاية مثلك يا ميرنا، وهي بادلتني ذلك الإعجاب أيضًا، ولكن أسرتها أنهت بتلك العلاقة وأجبروها ألا تتعامل معي وكأني فيرس أو وباء سينتقل لها إذا اقتربت، لم أعترض، فخلقت لهم المبررات، فمن سيوافق على شخص لا أسرة له ولا يعلمون أصله، شخص عاش طفولته في ملجأ للأيتام، لا أنكر أنني حاربت لأجلها قليلًا في البداية لكن ليس بدافع الحب، بل بدافع الشعور بالانتصار ولو لمرة واحدة فقط، ولكن قد كُتب عليّ أن أبات مهزومًا، فانسحبت وتقبلت هزيمتي، ثم علمت أن الحب والزواج لم يكتبوا لي مثل كل شيء آخر، وأنني حتى لست على حق لتخيل تلك الأشياء العاطفية التي يقشعر لها الأبدان، بل وأيقنت أنني سأعيش وحيدًا وأموت وحيدًا.

ولكن بعدها بفترة ظهرت واحدة أخرى تُدعى(إنجي)، وهي تلك الفتاة التي كانت معي في ملجأ الأيتام، وهي أيضًا الفتاة التي تحب صديقي الذي كان معنا في الملجأ، رأتني صدفة وأنا أتجول في الشارع وأتساءل بحسرة على حالي قائلًا: "إلى متى يا الله؟!".

فهذا هو سؤالي دائمًا، فلقد رأيت الإله بعينين، عين كافأتها الحياة فنظرت إلى السماء شاكرة الله بقول "الحمد لله" والعين الأخرى كسرتها الحياة فنظرت إلى الأرض بحسرة ولا تقول سوى "إلى متى

يا الله".

العين المكسورة هي عيني، والعين السعيدة عين البشر من حولي، حتى عندما ظهرت (إنجي) لم تكن كالنعمة أو المكافأة بالنسبة لي بل رأيتها كالنقمة، وذلك لأنها لم تكن وحيدة، بل تحمل في يدها طفلًا رضيعًا لم يبلغ من عمره عدة أشهر، أخبرتني حينها أن هذا الطفل هو ابن صديقي في ملجأ الأيتام الذي أنجبه منها دون أن يتزوجها، فعندما علم بأمر حملها تركها، نظرت إلى الطفل لوهلة، وعندما رأيت وجهه شعرت كما لو أنه أخذ جزءًا من روحي، فلقد أهلكتني الوحدة، وهذا ما أردته، لقد أردت أن أحيا مع أسرة لكي أشعر بالألفة والأنس ولو لقليل من الوقت، لذلك عرضت عليها العيش معي، وقتها لم أكن أعيش في هذا المنزل الذي أنا فيه الآن، بل كنت مستأجر شقة صغيرة، لا أعلم كيف عرضت عليها ذلك؟!، لكني أردت أن يكون هذا الرضيع ابني، ربما لأنقذه من التشرد أو من مستقبل لن يصبح رحيمًا به، بالحق لا أعلم لماذا أردته كما يريد الطفل دمية في متجر لألعاب الأطفال.

توقعت أنها ستقبل بعرضي، ففي كل الأحوال هي لن تجد عرضًا مثل عرضي، ولا سبيل لها للنجاة في عالم قاسٍ مثل هذا العالم سوى أن تقبل بالحياة تحت ظل رجل يستطيع توفير لها كل شيء برفقة ابنها لتعيش، وهذا ما حدث، لقد وافقت إنجي، ثم عاشت معي في شقتي بعدها، فتزوجتها، وكتبت ابنها باسمي.

وبالرغم من أنني لم أكن أحبها ولم أعجب بها على الإطلاق، إلا أنني مع مرور الوقت تعلقت بها، وتعلقت بابنها بل اعتبرته وكأنه

ابنًا لي ومن صلبي، بل ربما أيضًا أحببت أمه لأن هذا الطفل الذي بات جزءًا مني أتى من رحمها، لقد كان يرتجف صدري حين يمرض وينتعش حين يُشفى كما لو أنه ذلك الجزء الذي بداخل صدري ينبض، رأيته يكبر أمامي يومًا بعد يوم، وكلما كبر الفتى كبر قلبي معه وأصبح يتسع من الحب أطنانًا، حاولت لعب دور الأب المثالي له، وأن أعطيه الحنان الذي حرمتني الدنيا منه، ورغم ذلك لم أكن الأب المثالي لسبب واحد فقط سأرويه لكِ.

منذ أن أصبح الفتى بين أضلعي حتى صار عمره سبعة أعوام وأنا أفعل شيئًا شنيعًا وهو أنني كنت مدمنًا على الكحول والمخدرات، وهذا بسبب الكوابيس التي ظلت تطاردني يوميًا منذ طفولتي حتى يومنا هذا، لم أكن ذلك الشخص الذي أنا عليه الآن، حينها كنت ضعيفًا ومهزومًا، فأردت أي شيء ليجعلني أنسى المشهد المروع الذي يزورني في الحلم حتى لا أفكر فيه وأنا مستيقظ، لهذا السبب صرت ذلك الشخص المدمن، وبسبب إدماني صرنا نتعارك كثيرًا أنا وإنجي.

وعندما أصبح الفتى بعمر السبعة أعوام قد بدأ في أن يرى المشاكل والعراك بيني وبين أمه ويفهم ما يحدث، لقد فهم الفتى أن أباه الذي كبر بين يده مدمن، وعلى الرغم من صغر سنه إلا أنه كان يعلم تمامًا أن ما أفعله أمر خاطئ من خلال حديث أمه اللاذع والمؤلم لي طوال اليوم، فلقد اعتادت إنجي أن توبخني كل يوم، بل وتخبرني أنني لست برجل حقيقي وذلك لإهدار أموالي على الخمر والمخدرات بدلًا من إهدارها عليهما، اعتاد كلامها أن يجرح مشاعري وكبريائي

ويطعن في كوني رجلًا، لكني لم أعاتبها أو ألقي اللوم عليها بسبب أنني تفهمت موقفها جيدًا، وهذا لا ينفي حزني نتيجة لقلة حيلتي، بخاصة عندما تقول لي تلك الكلمات أمام الفتى.

وفي يوم كنت عائدًا من الحانة بعد منتصف الليل، فتحت باب الشقة، لأجدها في انتظاري وهي تنظر لي بوجه غاضب على حالي، تحدق بيدي التي أحمل بها حقيبة بداخلها زجاجة من الخمر، تشم رائحتي الممتزجة بالكحول عن بُعد مثل القطط، وتراقب حركتي الغير متزنة بقرف واشمئزاز.

تركتها وجلست على الكرسي أمامها في محاولة مني لتمثيل أنني واعٍ لكل شيء، فعلت ذلك خشية من حديثها اللاذع الذي يشبه لدغات الأفاعي، لكنها لم تتحدث ولم تنطق سوى بجملة واحدة فقط، حيث قالت: "لقد سئمت منك!!".

قبل أن تدخل غرفة النوم، لتخرج بعدها بنصف ساعة وهي مرتدية ملابس غير ملابس المنزل، وتمسك في يدها الفتى، ثم راحت تحادثني بنبرة بها استحقار وتقول: "سأرحل أنا وابني يا مدمن!!".

لا أعلم ما الذي حدث لي حينما قالت جملتها، فلقد رأيت الشقة تحترق، وهذا لم يكن حقيقيًا، ولم أرَ إنجي التي ترحل من الشقة بل تخيلت أن الذي يرحل هو الشخص الذي أهدى للكلب لحم أمي، لقد أعاد لي عقلي لحظة رحيل هذا الشخص، ورأيت الشخص الذي تسبب لي في كل هذه التعاسة طوال حياتي وهو ينظر لي بعينيه الزرقاوين اللتين كانا يلمعان نتيجة لانعكاس النيران عليهما وسط

الحريق، نعم!.. فعقلي تخيل الماضي أمامي، لا أعلم هل هذا بسبب أنني كنت في حالة سُكر أم ماذا؟!.

لكني ظننت أنه الوقت المناسب لتغيير الماضي، ظننت أن الزمن عاد بي للوراء، وها قد حان الوقت للانتقام ممن جعلني أعاني من تلك الكوابيس وتلك الحياة البائسة، وأنه قد حان الوقت لأقتل من قتل طفولتي وحياتي بأكملها، فلم أشعر بنفسي حينها، وتملك الغضب مني، فأخرجت زجاجة الخمر من حقيبتي وصدمتها في الطاولة التي أمامي فانكسرت، بعدها ذهبت إليها وهي تفتح الباب لتخرج منه، ثم طعنتها بزجاجة الخمر المكسورة عدة طعنات في رقبتها وأنا أصرخ بطريقة هيستيرية، لقد ظللت أطعنها حتى أخرجت آخر ما تبقى من هواء في رئتيها.

ومع النفس الأخير لها اختفت الهلوسة من حولي وعاد كل شيء إلى طبيعته، ثم رأيت أن من قتلته هي زوجتي إنجي وليس الشخص الذي قصدته، وقفت مندهشًا، وضعت يدي على رأسي في حالة صدمة لا مثيل لها وكأني أريد الاستيقاظ من كابوس، لكنه ليس كابوسًا، ظللت أضرب رأسي بقوة عارمة حتى أفهم ما حدث، ولكن عقلي قد توقف، بدأت أبكي بصوت كالأطفال، لأستمع لهمهمة بجواري بعدما بدأت دموعي في أن تتساقط بغزارة، التفتُ للهمهمة، لأرى أن الفتى شاهدني وأنا أقتل أمه أمامه، انتفض قلبي حزنًا وألمًا، لأني أعلم تلك النظرة التي ينظر بها الفتى لي، أنها النظرة ذاتها التي نظرت بها للشخص الذي قطع من لحم أمي ليطعم الكلب، أنها النظرة ذاتها التي تحولت حياتي لكابوس حقيقي وجحيم على الأرض

بعدها، أنها النظرة التي تدل على أن في المستقبل سيبحث عني هذا الفتى في كل مكان لينهي عليّ، فإذا كبُر الصبي سأصبح عدوه، وإذا عاش سيصبح مثلي، فارغًا من الداخل، يتنفس لكنه ميت، تزوره الكوابيس سواء مستيقظ أو نائم، تلك الحياة التي أعيشها لا أتمناها لألد أعدائي، فماذا عن من أحتل قلبي، ماذا عن ابني، هل سأترك الفتى ليكون مصيره كمصيري؟!، لا.. لم أستطع فعل ذلك!!.

حاولت الاقتراب منه، لكنه بحركة غير إرادية عاد إلى الخلف بأقدام مرتعشة، حاولت أن أكتسب ثقته ولكن مصطلح الثقة لم يعد يحمل معنى بالنسبة له، فكلما اقتربت منه تسيل دماء أمه على الأرض وتقترب منه معي، حيث أن حذائي كان يطبع على الأرض باللون الأحمر القاتم مع كل خطوة أخطوها تجاهه.

خوفه مني قتلني، فحاولت تخفيف ذعره وبدأت أخفي صوتي الحزين ودموعي الساقطة على الأرضية المزينة بالدماء، ثم قلت له بنبرة كاذبة: "هل تعلم؟!، كل هذا ليس حقيقي يا بني، أنه مجرد كابوس مثل الكوابيس التي تحلم بها دومًا، لا تخف!!".

لقد قلت له تلك الجملة لأنها هي الجملة التي قالها لي الشخص الذي قطع من لحم أمي ليطعم الكلب، حينها قال لي تلك الجملة حتى أهدأ قليلًا، مما جعلني أقولها للفتى على أمل أن يصدق أنه يحلم ويهدأ، ولكنه لم يهدأ، فظلت نظرته لي مرتعبة، قبل أن يقف مكانه متسمرًا ويسمح لي بالاقتراب منه لأنه قد فقد الشعور بقدميه، حتى أمسكت بيده وقلت له بنفس النبرة الكاذبة المختلطة بالقليل من الابتهاج: "هل تعتقد أن أباك من الممكن أن يفعل شيئًا شنيعًا مثل

هذا؟!". قلتها، ثم نظرت بعيدًا عنه وبكيت، لكن سرعان ما التفت له مجددًا بالوجه البشوش ذاته، ثم سحبته بلطف تجاه المقعد وجلست لأتأمل عينه. حاولت أن أغير تلك النظرة في عينه لكني لم أستطع، حاولت أن أجعله يتفوه بكلمة غير تلك الهمهمات الغير مفهومة لكنه صامت، كما لو أنه يفعل ذلك ليذكرني بنفسي عندما كنت في عمره، أخبرته أن لا يقلق من شيء، ثم فردتُ له أذرعي الاثنين كالنثر، ليرتمي على صدري مثلما يفعل دائمًا، قبل أن يتبول خوفًا مما شاهد من مشهد بشع، وعندما شعرت بدفء بوله عانقه بشدة لكي أحضنه حضن الوداع، نعم.. إنه الحضن الأخير!!

فلقد كنت أعانقه بقوة وذلك حسرة عما سيحدث، فقلت له بينما أربت على رأسه: "لا تقلق يا صغيري، إنه كابوس، لكنه كابوس لن تستيقظ منه أبدًا".

أخبرته بهذه الجملة لأن عناقي لم يكن عناقًا، بل كنت أخنقه بضمه لصدري بعنف، أحاول منعه من التنفس. في تلك الثواني ظل يحاول الإفلات من ذلك العناق القاتل لكنه لم يقدر على فعلها، وبينما هو يحاول الإفلات كانت دموعي تسقط على رأسه وأقول له بنبرة بها أسى وحسرة وندامة على حالي أكثر من حاله: "سامحني يا بني، سامحني يا صغيري، أفعل هذا لأني أحبك". صمتُ قليلًا بينما أخنقه، ثم قلت له آخر جملة سمعتها من الشخص الذي أطعم أمي للكلب، وهي: "يجب عليك أن تموت".

ظل يحاول الإفلات مني، فاستمريت في خنقه، وظللت أصرخ حتى أؤكد له قائلًا: "أنتَ تعلم أنني أحبك أليس كذلك؟!، تعلم هذا...

صحيح؟!، أنا أقتلك لأنقذك، أحيانًا يكون الموت هو السبيل الوحيد للرحمة يا صغيري، صدقني، أنا أحبك، وأفعل ذلك لأجلك!!".

توقفت حركة الفتى، لقد مات بين أحضاني، وذهب قلبي معه إلى حيث لا أدري، تركته ليسقط على الأرض، وقتها كانت ردة فعلي كردة فعلكِ يا ميرنا، وهو الضحك بجنون، والبكاء بشكل مبالغ فيه، ولهذا السبب قلت لكِ أنني أعلم بما تشعرين جيدًا، لقد ضحكت بسبب شعوري بالقوة، وشعوري بأنني فوق الجميع وهذا نتيجة لتأثير سحر القتل على الإنسان، وبكيت لأن الشخص الذي كنت عليه قد مات، ولكن هنالك شعورًا ثالث لم تشعري به أنتِ يا ميرنا وهو الخوف، لقد بدأت أقدامي ترتعش خوفًا لأنني لم أعلم حينها كيف علي أن أخفي آثار جريمتي، في تلك اللحظة تذكرت الشخص الذي قطع لحم أمي وأطعمه للكلب، حيث أصبحت أمي لا وجود لها ولا لجسدها، ولكني لا أمتلك كلبًا لأطعمه الضحايا، لذلك أخذت الطفل وأمه إلى الحمام، ثم قمت بتقطيعهم إربابًا، لأقوم بعدها بوضعهم في الثلاجة، أما عن عظامهم فطحنتها حتى أصبحت كالرماد الذي لن يستطيع الشيطان بنفسه معرفة أن تلك الرماد عظامًا.

نعم.. إنها الطريقة التي اتبعها إلى يومنا هذا، لقد فعلتها في المرة الأولى لي أيضًا، وقتها اعتدت من حين لآخر أن أخرج جزءًا من لحومهم من الثلاجة وأقوم بطبخه لتناوله، وقد ظل الحال على ما هو عليه حتى أكلت جميع لحومهم، ومنذ ذلك الوقت وأنا أعلم أنني إذا أردت إخفاء جثة فعلي بأكلها، ففي جميع الأحوال لن تبحث الشرطة في برازي أو أمعائي.

أقول تلك الجملة لأنني بعدما انتهيت من لحومهم ظننت أن كل شيء سيعود مثلما كان، ولكن الفارق الوحيد هو أنهم ليسوا متواجدين، أما عما حدث فهو النقيض تمامًا، فلقد أصبحت في كل مرة أرى فيها شخصًا سيئًا يستحق الموت ألف مرة أبتسم وأقول لنفسي: "لما لا؟!، إنه يستحق!!، إنه يستحق أن أنقذ العالم منه، وأن أنقذ روحه من ذنبه الذي يقتله كل يوم، سأفعلها مرة أخرى وأخيرة لأحرر روحه بواسطة الألم ،فالألم يمحي الذنوب، فلما لا أقدم له هذه الخدمة؟!".

ولم يمر شهران بعد قتلي لابني وزوجتي إلا وأنني تركت العمل في السوبر ماركت وأصبحت أعمل في الحانة فقط، لأن في الغالب من يحمل في يده كأس الخمر، يحمل في قلبه ذنب أقوى من ذنب كأس الخمر الذي يمسكه بيده.. فلما لا؟!».

***

أنهى يوسف قصته، وبعدها فُتح باب المطبخ، ليخرج الثلاثي داون وهم يحملون في أيديهم الأطباق، فلا بد أن الطعام قد أصبح جاهزًا.

وضعوا الأطباق بعددهم، ومن ثم أتوا بطبق كبير كما حدث في المرة السابقة عندما كان الضحية هو خاطف الأطفال، لكن هذه المرة الموضوع رأسها على هذا الطبق الضخم هي مريم، وهذه المرة أيضًا لم تتواجد تلك القماشة البيضاء التي تغطي الرأس.

وضعوا الطبق الكبير من منتصف الطاولة، وكانت الرأس في وجه ميرنا مباشرة، لقد نظرت لها ميرنا بندم شديد، قبل أن تمسك

بالشوكة والسكينة وتتحول ملامح الحزن إلى ملامح بها قوة، ثم راحت تأكل من لحم مريم الموضوع أمامها بشراهة، حتى كادت أن تنهي الطبق، لكنها استمعت بداخل رأسها وهي تأكل وفمها مليئًا بالطعام استغاثة مريم لها وهي تقول: "اقتليني يا ميرنا، أرجوكِ".

أغلقت عينيها بضيق، وراحت تحرك رأسها يمينًا ويسارًا وكأنها تحاول أن تجعل هذه الجملة تفارق رأسها، قبل أن تضرب جبينها بضربة قوية بواسطة يدها، ثم تركت الشوكة والسكينة على الطاولة وفتحت عينيها، لترى الرأس أمامها تتحدث وتقول: "اقتليني يا ميرنا".

علمت ميرنا أن الهلوسة قد بدأت في الهجوم، وعلمت أن هناك نوعًا جديدًا من الهلوسة سيهاجمها، وهذا النوع مرعب أكثر من أي هلوسة عانتها من قبل، فهذه المرة ستهاجمها الهلوسة لتظُهر لها مريم التي ذبحتها بسكين الرحمة.

أما عن يوسف، فظل ينظر إلى ميرنا وعلى وجهه ابتسامته الهادئة، لم يظهر على وجهه علامات التعجب، بل العكس تمامًا، فهو في الغالب يعلم ما يهاجم عقلها في تلك اللحظات.

نهضت ميرنا من مكانها بعدما انتهت من الطعام، ثم قالت ليوسف بثقة: "قتلتها، وأكلت من لحمها، متى ستأتي لي بقاتل أمي مثلما وعدتني".

ابتسم لها يوسف وأومأ برأسه، لكن ليس بإشارة على الموافقة، بل إشارة على الإعجاب الشديد لشخص ميرنا الجديد، قبل أن يقول

بثقة عارمة: "قريبًا سأجلب لكِ قاتل أمك كهدية يا عزيزتي".

لم تظهر ميرنا أي رد فعل، بل ما فعلته هو أنها قالت ليوسف أنها ستعود إلى منزلها، ومن ثم تركت الطاولة وذهبت لفتح باب تلك الغرفة في القبو لتخرج منها، وعندما فتحتها وجدت شيئًا غريبًا جدًا، وهي مريم التي كانت تقف على آخر سلمة من السلالم بعباءتها البيضاء الغارقة بالدماء، ليس هذا الغريب في الأمر، بل المروع أنها تقف بساق واحدة لأن الساق الأخرى مبتورة، ولديها ذراعًا واحدًا أيضًا، أما عن رقبتها فكانت مذبوحة.

لقد كانت تنزل السلالم ببطء شديد قفزًا بالساق الواحدة التي تمتلكها، تحسرت ميرنا على حالها كرهًا لتلك الهلوسة، قبل أن تلتفت ليوسف والطبق الكبير الذي يوجد به الرأس أمامه، لتجد أن شفتاي رأس مريم على الطبق يتحركان ويخرجان صوتًا من فمها، حيث قالت الرأس: "اقتليني يا ميرنا، أرجوكِ".

ضحكت ميرنا من هذا العبث الذي يصوره لها عقلها، فأعادت النظر إلى السلالم، لتجد أن مريم قد وصلت إلى نصف السلالم، وزيادة عن الأجزاء المبتورة منها فكانت بدون رأس هذه المرة، زاد ضحك ميرنا، أما عن يوسف خلفها فظل يبادلها الضحك رغم أنه لا يعلم لمَ تضحك، ولم يسألها عما يحدث على أي حال.

ظل الأمر على ما هو عليه حتى وصلت مريم بالساق الواحدة إلى السلمة الأخير، ثم حاولت لمس ميرنا، لتخبرها وهي بدون رأس: "اقتليني أرجوكِ". زاد ضحك ميرنا وصار هيستيري، لأن الصوت

يأتي من الرأس الموضوعة على الطبق الكبير أمام يوسف خلفها، فالتفتت ليوسف وقالت بابتسامة بها سخرية حزينة: "أظن أن مريم ستطاردني في كل مكان".

أومأ يوسف برأسه وقال بلهجته الهادئة: "ربما لأنكِ تعتبرينها ذنبًا". صمتت ميرنا، ثم خرجت من الغرفة، وعندما صعدت ذهبت باتجاه الباب الذي يؤدي إلى خارج المنزل مباشرة، لكنها وجدت أمها نادية تقف أمام الباب، تحملق بها بعيني كلب هاسكي الجاحظة وكأنها غاضبة منها بشدة، واضعة يديها الاثنين على خصرها، وبلهجة بها لوم وعتاب قالت لميرنا: "لقد قلت لكِ، أنتِ في طريق لا عودة له". لم تجبها ميرنا، بل فتحت باب المنزل بهدوء، ثم وجدت أن الصباح قد هلّ، لتأخذ بعدها نفسًا عميقًا وتذهب في طريقها عائدة إلى منزلها.

الفصل السادس عشر

لمَ لا؟!

"لمَ لا؟!"إنها الجملة الوحيدة التي تدور في بال ميرنا كلما تقدمت الأيام، فلقد فات العديد من الأيام وهي في انتظار يوسف أن يكلمها ليخبرها أنه قد وصل إلى قاتل أمها وهذا لم يحدث، مما جعل الفتاة تجن في منزلها، علاوة على ذلك الهلوسة التي تطاردها في كل الأوقات سواء كانت تلك الهلوسة بصرية أو سمعية، ففي كل مكان بداخل منزلها تستمع إلى صوت لأحد يقفز ويتحرك بساق واحدة، هي تعلم تمامًا من هذا الشخص، أنها مريم التي ظلت تزورها دائمًا بأبشع الطرق الممكنة، ولم يتوقف الأمر على هذا فقط، فهي تستمع أيضًا لصوت الكرسي المتحرك الخاص بفؤاد يتحرك في جميع أرجاء المنزل، بل وأحيانًا تستمع لسقوط هذا الكرسي، وفي بعض الأوقات يرن جرس منزلها، لتفتح باب المنزل وترى أمامها مريم وهي تقف على ساق واحدة فقط والساق الأُخرى مبتورة، وتمتلك ذراعًا واحدًا أيضًا بينما الدماء تنزف منها في كل مكان حولها، وفور ما تفتح ميرنا لها باب المنزل تخبرها مريم بصوت خافت وخائف: "اقتليني".

سئمت ميرنا من هلوستها حتى أصبحت تتجاوب معها كما لو أنها حقيقية، فصارت تحمل السكين دائمًا، وعندما ترى مريم أمامها طالبة منها الإعفاء من العذاب بالقتل كالعادة، تلبي ميرنا نداء مريم أو شبح مريم، فتقوم بذبحها، وعندما تفعل هذا تتلاشى مريم كالغبار أو الدخان، لتظهر في مكان آخر بالمظهر المرعب ذاته دون تغير،

لتترجى ميرنا كي تقتلها مجددًا فتقتلها ميرنا.

ليس هذا كل ما في الأمر، بل راح يعاد لها مشهد قتلها لفؤاد بواسطة رأس مريم أمام مرمى بصرها، حيث ترى نفسها وهي تقتل الكهل العاجز عن الحركة، وكأنها ترى توأم لها أو أن نفسها منقسمة لاثنين، نصف يظهر أمامها، والنصف الآخر يعاني أشد المعاناة من هذا الظهور.

لم تنتهِ هلوستها إلى هذا الحد فقط، فالمصائب لا تأتي فرادى، حيث أنها تستمع لنباح كلاب في كل وقت، وعادة ما يُعبر النباح طريقه لعقلها من خلال شرفة غرفتها، فتذهب إلى الشرفة لتتأمل الشارع بغيظ وضيق، لترى كلاب هاسكي بدون عيونهم ورؤوسهم متجهة ناحيتها.

كل هذا قد أدى إلى الوصول بحالتها النفسية للقاع، فكلما اقتربت من الشرفة ونظرت إلى الشارع من أعلى ورأت الكلاب الهاسكي أمامها تقول لنفسها "لما لا؟!".

لما لا تقفز وتنهي كل شيء، بل صارت تردد جملة بداخل رأسها وتقول: "أصابني جمود تجاه خذلان الدنيا، لذلك أنا بحاجة لتركها بحثًا عن مكان آخر ليخذلني". وعندما تفكر في شيء مثل هذه الأفكار الانتحارية يأتي لها صوت الطمأنينة الوحيد في المنزل، والذي هو عبارة عن أغنية (أمورتي الحلوة) الصادرة من غرفة أمها، وكالعادة تدندن أمها مع الأغنية وتغنيها بصوتها العذب الجذاب مثلما كانت تغنيها لابنتها عندما يتملك منها الحزن في طفولتها، وكأن أمها

تربت عليها وتقول لها أنا معك في كل مكان وزمان حتى وإن كنت ميتة.

هذا هو حال ميرنا طوال الأيام الماضية، أما عن حالها الآن فهي تجلس على أرضية غرفتها المظلمة وحيدة في الساعة التاسعة مساءً، تنظر إلى السماء من شرفة غرفتها، تتأمل القمر بينما تدخن سيجارة بشراهة، بدت الفتاة بحالة ميؤوس منها، فكانت روحها باردة وكأنها صارت كالإنسان الآلي، وبالرغم من الضوضاء والإزعاج والهلوسة السمعية التي تستمع لها بخارج غرفتها في صالة المنزل إلا أنها لا تهتم، ولا يرتعش جفنها حتى، وكأن قلبها أصبح كالحجر لا يشعر بشيء إطلاقًا، أو أن الأدرينالين لم يعد يعلم لجسدها طريقًا.

وفي ظل الضوضاء في الخارج، إلا أن ميرنا استمعت لصوت تحبه وهي الأغنية التي اعتادت أمها أن تغنيها لها، أغنية (أمورتي الحلوة). لقد كان صوت الأغنية يصدر من غرفة والدتها المجاورة لغرفتها، لذلك ابتسمت ميرنا ابتسامة بها حنين للذكريات، ونهضت عن الأرض ثم أطفأت السيجارة، قبل أن تمسك بالسكين الموضوع على السرير بجانبها استعدادًا لما قد تراه في الخارج والذي من المتوقع أن ترى تخيلات لمريم وهي تترجاها لتقتلها كما هو المُعتاد.

بدأت تتحرك لتخرج من غرفتها بحركة بطيئة وضعيفة للغاية، وهذا الضعف الظاهر على الفتاة هو نتيجة لأنها لم تأكل شيئًا منذ عدة أيام، بالتحديد منذ اليوم الأخير الذي كانت فيه مع يوسف والذي تناولت فيه لحم مريم.

خرجت من غرفتها، لترى ما توقعت تمامًا عندما فتحت الباب، حيث وجدت مريم تقف أمامها بساق واحدة وذراع واحد، تخبرها بترجي أن تقتلها، ضحكت ميرنا وأومأت برأسها ثم ذبحتها لتختفي من أمامها، بعدها أكملت طريقها تجاه غرفة أمها، ولكن عندما أصبح الفارق بينها وبين الغرفة عدة أمتار قليلة رأت هلوسة أخرى.

حيث رأت ما حدث في منزل يوسف عندما قتلت فؤاد، فلقد شاهدت نفسها وهي ماسكة برأس مريم وتضرب بها فؤاد على رأسه بضربات متتالية وقوية، وكأنها ترى نسخة من نفسها أو شبيه لها في الهلوسة كعادة جميع الأيام السابقة، بينما الكرسي المتحرك ملقى بجانب فؤاد الذي يلتقط أنفاسه الأخيرة على الأرض، ولم يكن الكرسي وحده المتواجد في المشهد مع فؤاد، بل كانت مريم أيضًا متواجدة، حيث كانت تقف بجانب الكرسي المتحرك بدون رأس على قدم واحدة وذراع واحد، قبل أن تقول الجملة الموعودة المتكررة والتي صدرت من رأسها المُستخدمة كالمطرقة لتحطيم جمجمة فؤاد، وتلك الجملة هي "اقتليني أرجوكِ".

صمتت ميرنا قليلًا وراحت تتنفس ببطء نتيجة لليأس الذي أصابها مما تشاهد يوميًا من هلوسة بتلك البشاعة، فحاولت ألا تنظر إلى هذا المشهد كثيرًا، ثم بدأت تأخذ خطوات بطيئة لتدخل غرفة أمها، لكنها قبل أن تصل إلى الغرفة رأت ذلك الشبح الأسود يخرج من الغرفة مخترقًا الباب، أنه الشبح ذو العيون الحمراء المتوجهة الذي يشبه الدخان، والذي اعتاد زيارتها في أحلامها، لقد خرج من الباب ووقف بجانب مريم مقطوعة الرأس، لينظر إلى عيون ميرنا مباشرة، قبل

أن يهرب مسرعًا بعيدًا عنها، أما عن ميرنا فلقد فقدت الشغف في أن تتبعه وتركض خلفه مثلما تفعل حين يزورها في منامها، فابتسمت بسخرية من نفسها، ثم فتحت باب غرفة أمها ودخلت.

وجدت الغرفة مظلمة بالكامل، ولا شيء ظاهر فيها سوى عينين لكلب هاسكي موضوعين في جمجمة شخصًا ما جالسًا على السرير، يخرج منهما نور أزرق، ويتربصان بها أينما تحركت، قبل أن تتوقف دندنة أمها بالأغنية فجأة. نظرت ميرنا للعينين، ثم ذهبت باتجاه مفتاح النور لتضيء الغرفة، وعندما ضغطت على مفتاح النور رأت أن العينين هما عينا أمها، بل عيني كلب الهاسكي الموضوعة مكان عيني أمها التي تجلس على السرير مربعة الأقدام بينما تقوم بتفصيل ثوب أبيض اللون مثلما اعتادت أن تفعل دائمًا عندما كان يتملكها الشعور بالملل.

حملقت نادية بميرنا بواسطة عيني كلب الهاسكي الجاحظة بغضب شديد، وقد لاحظت ميرنا هذا، بخاصة عندما توقفت عن الغناء بعدما دخلت الغرفة، لتبدأ ميرنا الحديث وتقول: "أعلم أنكِ غاضبة مني".

صمتت قليلًا، ثم نظرت بعيدًا عن أمها وقالت: "لكني فعلت كل هذا لأجلك، لأنني أحبك".

ضحكت نادية والدة ميرنا ساخرة من حجة ميرنا، لتشعر ميرنا بالبؤس الشديد، فجلست على الكرسي الخشبي المتواجد أمام السرير، والموضوع أمامه اللوحة المغطاة بقطعة من القماش الأبيض

على الطاولة. أزالت ميرنا قطعة القماش وتأملت اللوحة التي رُسمت فيها صورة أمها، ولكنها ليست كاملة بل ينقصها العينان التي عزمت أن ترسمهم عندما تصل للقاتل قبل بداية رحلتها في البحث عنه، وهذا لأنها لا يعجبها عينان الكلب الهاسكي المزروعين في جمجمة والدتها الآن، بل وتعتقد أنها سترى والدتها كما اعتادت أن تراها بعينيها الجميلتين عندما تقتلع عيون القاتل.

غضبت نادية من صمت ابنتها، لتنهض من السرير وتقترب من ميرنا، ثم راحت تتحرك حولها بحركة دائرية، قبل أن تتحدث عن شيء غريب لتحذير ابنتها للمرة الأخيرة، حيث قالت: "الحب هو أقوى فخ يستخدمه الشيطان، وبالرغم من ذلك لا شيء بإمكانه أن يهزم الشيطان سوى الحب".

بوجه يظهر عليه ملامح الإرهاق، وبنبرة بها تعب أخبرتها ميرنا: "ماذا تقولين؟!".

لتخبرها أمها بغضب شديد "لقد كنت أحاول تحذيرك منذ البداية ألا تتبعي الشيطان، لكنكِ لم تستمعي لي مثلما فعلتِ طوال حياتك".

تنهدت ميرنا وقالت بنفس النبرة اليائسة "تقصدين يوسف؟!". ضحكت نادية وقالت: "لا، ليس يوسف، يوسف ضحية لهذا الشيطان أيضًا، بل هذا الشيطان تمكن منه بالكامل حتى أصبح تجسيدًا له على الأرض، أنا أقصد شيطان الغضب والانتقام، أقصد الشبح الأسود ذو العيون الحمراء الذي طالما استفز مشاعرك لجعلك تتبعينه أينما يشاء، هل تعلمين؟! ذلك الشيطان زارني في الماضي، وجعلني أرتكب

شيئًا شنيعًا لم يصدقه عقل، مثلما فعلتِ أنتِ يا ميرنا، ذلك الشيطان جعلني أرتكب جريمة لا يُغفر عليها، وعندما ارتكبت تلك الجريمة ارتكبتها بدافع الحب، لكني بعدما فعلت هذا الشيء الشنيع نظرت بين يدي، ورأيتكِ، كنتِ صغيرة للغاية يا عزيزتي، فبدافع حبي لكِ استطعت أن أتغلب على هذا الشيطان الذي حاول أن يتملك مني بالكامل، استطعت أن أستعيد إنسانيتي، استطعت أن أكون لكِ أم، فلقد انتصر الشيطان عليّ في البداية مستخدمًا فخ الحب لصالحه، ثم هزمته في النهاية بواسطة الحب، وليس كأي حب، بل حب الأم لصغيرتها".

صمتت نادية، قبل أن يدخل هذا الطيف أو الشبح الأسود ذو العيون الحمراء الغرفة مجددًا، ليبدأ في أن يتحرك بحركة دائرية حول ميرنا، وبعدها بدأ في أن يقترب منها، ثم اخترق جسدها كما لو أنه روحها التي دبت فيها، في تلك اللحظة خافت نادية وعادت إلى السرير مسرعة، ثم أمسكت بالثوب الأبيض مجددًا لتنظر إليه بذعر وفزع في محاولة منها ألا تنظر إلى ميرنا أبدًا، شعرت ميرنا بالحسرة لأن أمها تخاف منها، فأخذت تنادي عليها بلهجة بها غمة وكسرة قائلة: "أمي انظري لي".

لم تجب الأم، بل ظلت تنظر للثوب الأبيض وهي تهز رأسها بقوة بينما تغني وتدندن بأغنية (أمورتي الحلوة).

حاولت ميرنا أن تتجاهل ما يحدث، بخاصة أنها تعلم تمامًا أن كل شيء ما هو إلا تخيلات وهلوسة، قبل أن يهتز هاتفها بداخل جيبها، لقد كان خطيبها السابق هو الذي يحاول الاتصال بها، خطيبها السابق

الذي تكرهه كرهًا عظيمًا مثل كرهها لقاتل أمها، تعجبت قليلًا من محاولته الاتصال بها، حتى أنها اعتقدت أن هذه المكالمة جزءًا من الهلوسة التي تعانيها، لكنها أجابت الاتصال، ليبدأ خطيبها السابق بالحديث قائلًا:

- كيف حالكِ يا ميرنا، لقد علمت أن والدتك توفت، هل أنتِ بخير؟!

- نعم!! أنا بخير، شكرًا لك.

- أريد أن ألتقي بكِ، هل تماعين؟!

- لا، لا أمانع على الإطلاق!!.

- هل بإمكانكِ أن تأتي إلى الشقة التي اعتدنا أن نلتقي بداخلها؟!.

- لما لا؟! سأكون هناك بعد ساعتين على الأقل.

أغلقت الهاتف، ثم ابتسمت ابتسامة بها الكثير من الخبث، قبل أن تلتفت لأمها قائلة: "لما لا؟!، أعتقد أنه يستحق ما سأفعله".

بكت أمها وأخذت تتحدث لها قائلة بلهجة بها ترجي: " إذا كنتِ تحبينني لا تذهبين؟! سوف تنتصرين على شيطان الغضب بحبك لي، أليس كذلك؟!". صمتت ميرنا، ثم تركت غرفة أمها وذهبت مسرعة عائدة إلى غرفتها لتقوم بتغيير ملابسها لكي تذهب إلى خطيبها السابق، لكنها بينما تقوم بتغيير ملابسها ظلت تستمع لصوت أمها وهي تترجاها ألا تذهب، وكان الصوت يقترب منها كما لو أن نادية قادمة نحوها.

لم تهتم ميرنا، وتجاهلت كل شيء، حتى ظهرت الأم بالفعل أمام

باب الغرفة، لتدخل وتقف خلفها، ثم راحت تترجاها مجددًا لكي لا تذهب، قبل أن تخبرها بأن تنظر إلى نفسها في المرآة، تعجبت ميرنا من أمر الأم لكنها أطاعته، فتحركت تجاه التَسْريحة لتتأمل وجهها من خلال المرآة، لتتفاجأ حينما رأت أن عينيها الاثنين لونهما أحمر ويخرج منهما شعاع متوهج كالنيران، تمامًا كعيون الشبح الذي يظهر لها دائمًا.

تأملت الأم ميرنا، ثم قالت بحسرة "لقد تمكن منكِ بالكامل يا صغيرتي، أتمنى أن تستطيعين طرده من داخلك".

التفتت ميرنا لأمها بذهول شديد، ثم أعادت النظر إلى المرآة، لتجد أن كل شيء عاد لطبيعته في المنزل، لقد عادت عيونها الزرقاء، واختفت جميع الهلوسة من حولها، حتى أمها لم يعد لها وجود بجانبها، وتلك الأصوات المزعجة في صالة المنزل لم تعد متواجدة أيضًا.

كل هذا لم يشكل فارقًا مع ميرنا، فالمهم بالنسبة لها هي مكالمة خطيبها السابق؟! هل كانت حقيقية أم هلوسة وخيال كالباقي؟!.

أمسكت هاتفها لتتأكد إذا كانت تحدثت معه أو لا، فأيقنت أنه قد اتصل بها بالفعل ولم تكن تهلوس، لتضحك بمكر عندما علمت أنه في انتظارها في تلك الشقة التي اعتادت أن تلتقيه بداخلها، وهذه الضحكة الماكرة أتت لأن هذه المرة لا تنوي أن تكون زيارتها عادية، بل تنوي أن تذهب لتأخذ منه أغلى ما يملك، تنوي أن تنتزع روحه من جسده، لما لا؟! أنه يستحق ذلك بالتأكيد، ولهذا ستطرق على باب

شقته وبجانبها هدية صغيرة تدعى بملك الموت.

انتهت ميرنا من تغيير ملابسها، فقامت بتزيين وجهها بمستحضرات التجميل ليزيد من جاذبيتها جاذبية، ومن ثم أخذت حقيبة سوداء كبيرة الحجم كانت تستعملها لوضع ملابسها بداخلها أثناء السفر، قبل أن تذهب إلى المطبخ وتأخذ ساطورًا حادًا وقويًا بإمكانه أن يقطع أي لحم حتى وإن كان لحم إنسان، بعدها وضعت الساطور بداخل الحقيبة، أما عن السكين الذي تستخدمه لقتل مريم حتى تتخلص من هلوستها فوضعته بجيبها، وها قد أصبحت الفتاة جاهزة وعلى أتم استعداد لما هو قادم، فخرجت من منزلها لتذهب له.

الفصل السابع عشر

ليلة لونها أحمر

تحاول أن لا تظهر غضبها، تقف أمام باب شقة خطيبها السابق في محاولة منها أن ترسم على وجهها البهجة والاشتياق والحنين لما مضى، تحاول التمثيل أنها تخطت كل شيء ولم تعد تلك الفتاة الغاضبة الثائرة، بل هي فتاة أخرى هادئة، ربما هي أصبحت هكذا بالفعل، ولكن كل هذا ليس نتيجة لنضج العقل بل نتيجة لفقدانه.

رسمت تلك الملامح البشوشة المخادعة على وجهها، ثم طرقت على الباب بطرقتين متتاليين، لتستمع بعدها إلى صوت خطوات أقدامه تقترب تجاه الباب، وكلما اقتربت خطواته كلما تسارعت أنفاسها، وكلما تسارعت أنفاسها حاولت أن تبطئها حتى لا تتغير ملامحها التي علمت جاهدة لترسمها.

فتح خطيبها السابق الباب، ثم نظر إلى وجهها الذي بدا كما لو أن هنالك نارًا ستخرج من عينيها لتحرقه، قلق خطيبها السابق وعاد إلى الخلف قليلًا محملقًا بها ومتعجبًا، قبل أن يقول:

- هل أنتِ بخير؟!

- أنا بأفضل حال!!

هذا ما قالته، قبل أن تُغير ملامحها وتُعيد البشاشة إلى وجهها من جديد، وقبل أن يطلب منها خطيبها السابق أن لا تخجل وتدخل الشقة، فدخلت ميرنا بخطوات بطيئة وهي تنظر إلى الأرض في

محاولة منها بادعاء الخجل، ثم جلست على الأريكة المتواجدة في الصالة، والتي يوجد أمامها تلفازًا ضخمًا جدًا. ابتسم لها خطيبها السابق بابتسامة بها شفقة كما لو أنه يشعر بالحزن على ما أصابها من فراقً أمها، فاقترب منها، ثم قام بوضع يده على كتفها بلطف وقال:

- سأصنع لكِ فنجانًا من القهوة.

- حسنًا، هل يمكنني أن أشعل سيجارة؟!

تعجب من سؤالها، وذلك لأنه يعلم تمامًا أن ميرنا لا تدخن!!، لكن هنالك شيء آخر لفت انتباهه لم يلحظه عندما رأى ميرنا أمام باب شقته، وهي تلك الحقيبة السوداء الكبيرة التي تحملها، ليخبرها بلسان حائر:

- ما هذه الحقيبة؟!.

- إنها حقيبة ملابسي.

قالتها بثقة، وكأنها قامت بتحضير كل كلمة ستقولها قبل فتح فمها، لكنها لم تكن تتوقع أنه سيقترب من الحقيبة ويحملها بيده، ليجد أنها شبه فارغة ولا يوجد بها سوى شيء واحد، قلقت ميرنا من أن يفتح الحقيبة ويجد الساطور، لكنه ترك الحقيبة وحملق بها قائلًا بنبرة شائكة:

- الحقيبة فارغة!!.

- سأشتري ملابس جديدة، أنتَ تعلم أن معظم ملابسي كانت أمي من تصنعها لي، لذلك عندما أرتدي ملابسي القديمة أتذكر أمي

وأبكي.

هذا ما قالته ميرنا بلسان واثق وملامح لا تمت للثقة بصلة، حيث أخبرته تلك الكلمات وهي تنظر إلى كل مكان في صالة الشقة عدا هو، مما أثار الدهشة والشك في قلبه أكثر مما هو عليه، لكنها ذكية كفاية لتمحي شكه، حيث أنها تأملت عينيه ثم أكملت حديثها قائلة بصوت رقيق:

- لقد كنت كالنجدة بالنسبة لي، سأطلب منك طلبًا صغيرًا، هل أستطيع أن أمكث معك هنا لعدة أيام، أصبحت أشعر بالخوف الشديد والرهبة من منزلي.

رُسمت بسمة لطيفة من خطيبها السابق لها، وأومأ برأسه، ثم ذهب إلى المطبخ ليصنع لها فنجانًا من القهوة، بعدها أخرجت ميرنا علبة السجائر من جيبها وأشعلت واحدة، قبل أن تضع قدميها الاثنين على الطاولة الصغيرة الموضوعة أمام الأريكة التي تجلس عليها بقدم فوق الأخرى، ثم بدأت في الغناء بصوت رقيق عذب ينظف الأذن.

عاد من المطبخ وهو يحمل فنجانًا من القهوة، ليرى ميرنا للمرة الأولى في حياته وهي تدخن بشراهة، رفع حاجب من حاجبيه متعجبًا هذا المشهد، فاقترب منها ببطء، ثم وضع فنجان القهوة على الطاولة أمامها بجانب قدميها، وجلس بجوارها على الأريكة، وفي ظل تعجبه سأل نفسه في دهشة: "من هذه، هل هذه ميرنا؟!".

ربما هو يشعر بالحيرة قليلًا لكنه معجب أشد الإعجاب بالشخص الذي يراه أمامه، فهو في ذلك الوقت مولع بالفتاة التي يبدو عليها

الشقاوة عكس ما كانت في الماضي.

أنزلت ميرنا قدميها عن الطاولة، وأمسكت بفنجان القهوة وراحت تشم فيه وهي تنظر إلى خطيبها السابق بطرف عينيها، ثم رشفت بأول رشفة، قبل أن تترك الفنجان على الطاولة وتعيد أقدامها كما كانت قبل أن تمسك بالفنجان، ثم عادت برأسها إلى الخلف لتريحها على مسند الأريكة، قبل أن يظهر عليها ملامح حادة، لتقول بلهجة تعيسة: "ما زلت أتذكر آخر ليلة كنت فيها هنا، عندما مارست الجنس معي، أو بمعنى أوضح عندما اغتصبتني وجعلتني أفقد عذريتي، وبعدما فعلت جريمتك حاولت أن تجعلني أطمئن، فأخبرتني أنك ستكون زوجي في جميع الأحوال، ثم عدتُ إلى منزلي، لأتفاجأ أنك تتصل بي بعد ما فعلته بعدة أيام لتخبرني أنه من غير الممكن أن نكمل سويًا، ثم أخبرتني بحجتك البذيئة عندما قلت لي أن والدتك سيدة لها شأن عظيم ولا تريد أن يتزوج ابنها من ابنة خياطة، هل هذا هو السبب الحقيقي الذي جعلك تتركني؟!، لا أعتقد!!، بل أعتقد أنك أخذت ما أردته، جربت لحمي الأبيض وأمسكت به والتهمته، لكني كنث غبية وصدقت حجتك الأغبى من غبائي، ونيابة عن حجتك كرهت أمي".

هذا ما قالته ميرنا، قبل أن يظهر على وجهها أشد ملامح الندم، ربما لأنها تذكرت كيف كانت تعامل أمها بطريقة سيئة وحقيرة بسبب حجة خطيبها السابق التي لم تكن حجة منطقية على الإطلاق، ربما لأنها خافت أن تكرهه، أو تكره ما فعله بها عندما اغتصبها، أو أن تكره نفسها، أو لربما خشيت مواجهة نفسها بالحقيقة، فبدلًا من ذلك ألقت

اللوم على والدتها لأن هذا ما سيريح قلبها، ومن الممكن أيضًا أنها لربما تشعر بالندم لأنها وثقت بذلك الشخص، وهذا ما جعلها ضحية للاغتصاب؟!.

تحولت ملامحه من الإعجاب للرهبة والخوف، حيث اتسعت عيناه في صدمة من كلماتها، وبدأ في المحاولة للتحدث دفاعًا عن نفسه ولكن لسانه خانه وعقد، فابتلع لعابه ونظر أرضًا، قبل أن تعتدل ميرنا وترفع أقدامها عن الطاولة وتجلس مثلما يجلس هو، لتنظر له بضحك وسخرية وتقول: "أنا لا أعاتبك!!".

ثم وضعت يدها على كتفه ببطء قائلة بصوتها الأنثوي الرقيق: " أريد فقط أن أخبرك أنني أريد تجربة هذا الشعور مجددًا، لكن هذه المرة لن تغتصبني، بل سأكون بين يديك بإرادتي، أريد قضاء ليلة لونها أحمر".

عادت ملامح خطيب ميرنا السابق كيفما كانت، بل وأصبحت عينه بها شعاع شهواني يخرج منها، وراح يتفحص جسد ميرنا بتمعن، قبل أن يمسح وجهه الذي ابتل عرقًا بيده ويقول بنبرة مبتهجة: "سأذهب للاستحمام". ثم نهض من مكانه. ليتفاجأ مرة أخرى بما قالته ميرنا، حين قالت بإغراء شديد: "سأستحم معك ".

زادت دهشته حتى تسمر وتصلب كالتمثال، وقد لاحظت ميرنا هذا، لتقوم من مكانها وتذهب تجاهه لتحركه، ثم قالت له: "هيا!!، تحرك نحو الحمام، أنا خلفك ".

بدأ في أن يتحرك تجاه الحمام كالإنسان الآلي المبرمج على تنفيذ

الأوامر والتعليمات من مبرمجه وصانعه، فظل يتحرك أينما تحركه ميرنا وهي تمسك بأكتافه من الخلف، حتى وصلوا لباب الحمام، حينها فتح خطيب ميرنا السابق الباب، وقد كان أمامه مباشرة حوض الاستحمام المغطى بستارة شفافة، التفت لها بوجه متحمس، قبل أن يضيء الأنوار بداخل الحمام، ثم خلع قميصه، واقترب من حوض الاستحمام ليزيل الستارة التي تغطيه، قبل أن يتفاجأ بما فعلته ميرنا. فتحركت خلفه مباشرة، وعندما اقترب من حوض الاستحمام قامت بسحب رأسه للخلف ماسكة بشعره، وهذا أدى إلى الضحك الجنوني من خطيب ميرنا السابق الذي اعتقد أن الليلة الحمراء ستبدأ قبل أن يصبحوا عراه، لكنه لا يعلم أن ميرنا كانت تقصد شيئًا آخر بجملتها: "ليلة لونها أحمر". لم يكن يعلم أنها سحبت رأسه لكي تظهر لها رقبته الطويلة لتقوم بذبحه من الخلف باستخدام السكين الذي كان في جيبيها.

نعم.. لقد ذبحته، فسقط بداخل حوض الاستحمام ماسكًا بالستارة الشفافة التي سقطت معه بداخل الحوض، ليصبح حوض الاستحمام بالكامل لونه أحمر نتيجة الدماء، بينما الستارة تزينت باللون الأحمر في ليلة لونها أحمر.

خرجت ميرنا من الحمام لتقوم بجلب الساطور من حقيبتها، لتجد أن الهلوسة قد عادت لها، فوجدت مريم أمامها بنفس المشهد البشع تتوسل لها لقتلها، ضحكت ميرنا وقالت لخيال مريم الظاهر أمامها: "تعالي إلي، لقد اكتشفت أنني كنتُ أتمرن عليكِ طوال هذه الفترة من أجل هذه اللحظة، تعالي، اقتربي قليلًا". اقتربت مريم، فذبحتها

ميرنا، فتلاشت مريم كالغبار أو الدخان.

الفصل الثامن عشر

اليوم المُنتظر

إنها الساعة الثالثة والنصف بعد منتصف الليل، وهذه المرة تقف ميرنا أمام باب منزل يوسف بشموخ وصلابة رغم الإرهاق الذي تعانيه، لا وجود لأي شيء يُدعى رهبة أو قلق بقلبها، جسدها ثابت كما الجبال ثابتة، عيناها مفتوحة بشكل طبيعي ولا يرمش لها جفن واحد، ساقيها قادران على حملها بثبات عظيم، ويداها قادرتان على حمل الحقيبة الثقيلة التي تسحبها وتجرّها معها نحو الباب.

مدت يدها نحو الباب وطرقت عليه بعدة طرقات فلم يستمع أحدًا من الداخل، وذلك نتيجة لأن لا أحد يتوقع قدومها، مرّت دقائق حتى ملّت، فطرقت الباب مرة أُخرى بقوة وبيد صلبة كصلابة المعادن، لتبدأ في الاستماع لأصوات خطوات قادمة، وبعدها بعدة ثوانٍ فتح لها يوسف، ليظهر عليه علامات الدهشة والاستفهام، فتبتسم له ميرنا قائلة بأمر: "أحمل الحقيبة".

تركت الحقيبة ودخلت المنزل، ثم جلست على الأريكة، ليحمل يوسف الحقيبة نيابة عنها ويدخل بها المنزل، ثم أغلق الباب.

راح يوسف يتأملها في محاولة منه أن يقرأ لغة جسدها، لكنه هذه المرة لم يستطع أن يقرأ الفتاة من تعبيرات وجهها وحركات جسدها، فترك الحقيبة عند الباب، ثم ذهب ليجلس بجوارها، قبل أن تُخرج ميرنا سيجارة لها وليوسف وتشعلهم، ومن ثم تبدأ الصالة في أن تتحول بالكامل لدخان كما لو هنالك حفل شواء بداخلها.

ظل السكون هو السائد والمسيطر على المكان، حتى خرج يوسف عن صمته وقال بنبرته الهادئة: "من في الحقيبة؟!". ارتجفت ميرنا قليلًا، ولكن ليس بسبب أن الجملة أصابتها بالرهبة بل أصابتها بالدهشة والتعجب، فكيف علم أن ما في الحقيبة شخص؟!.

ضحك يوسف بسبب ردة فعلها، فبدأ يتحدث قائلًا: "لقد كنت في انتظار تلك اللحظة، كنت أعلم أنكِ ستفعلينها، لا عليكِ سوى أن تخبريني الآن.. من في الحقيبة؟!".

صمتت ميرنا، ثم قامت بإطفاء سيجارتها بحذائها، قبل أن تقول مبتسمة: "خطيبي السابق، لكن لا تقلق، أنه يستحق ما حدث له".

تأملها يوسف بنظرات لطيفة بها حنان، ليسألها بعدها: "ماذا فعل بكِ؟!".

التفتت ميرنا بعيدًا وابتلعت لعابها، ثم احمر وجهها خجلًا، قبل أن تخبره بصوت خافت ممتزجًا ببعض من الغضب: "اغتصبني".

عقد يوسف حاجبيه في غيظ، ولاحظت ميرنا أن الكلمة جعلت صدره يضيق، فاتسعت ابتسامتها خجلًا، قبل أن تقول بصوت بالكاد مسموع: "هل الكلمة أزعجتك؟!".

حاول يوسف تمثيل اللا مبالاة لكنه فشل، فهذه المرة من المرات القليلة التي يظهر على وجهه مشاعر، بل ظهر على وجهه محاولته في إخفاء تلك المشاعر أيضًا، فأخذ يحاول أن يقود الحديث لحوار آخر قائلًا: "كيف تشعرين الآن.. بعدما أنهيتِ حياته؟!".

باتت البشاشة على وجه ميرنا واضحة، قبل أن تخبره بنبرة بها فرحة انتصار مسموعة: "أشعر بالسعادة أخيرًا!".

قالتها، ثم وضعت يدها على يد يوسف بلطف وقبلته في خده، تعجب يوسف مما فعلته لكنه ابتسم بعين كادت أن تبكي نتيجة للسرور الذي احتل قلبه، لترتمي ميرنا على صدره، وتحضنه كالطفلة المتشبثة بأبيها، لتخبره بعفوية وبراءة: "أحبك يا يوسف!!".

بات الخجل يظهر على وجه يوسف، فراح ينظر يمينًا ويسارًا بحركات لا إرادية منه، قبل أن يضع يده على شعر ميرنا من الخلف، ثم بدأ في أن يحرك يده على شعرها ببطء كما يفعل الآباء عادة لبناتهم، ليخبرها بلهجة حنونة ويقول لها شيء حقيقي نابع من قلبه الذي لم يظهر أبدًا من قبل: "هل تتذكرين حين أخبرتك أنني عشقت عيونًا زرقاء، أعلم أنها ستقتلني يومًا ما؟!، لقد كنت أقصدكِ أنتِ يا ميرنا".

ارتعش صدر ميرنا بعدما سمعته، فنظرت له بلهفة وعين كادت أن تبكي فرحًا، قبل أن تترك أحضانه لتسأله بتعجب: "ولكن.. لماذا سأقتلك؟!".

ابتسم يوسف وقال لها ساخرًا: "ربما لأني قاتل أمك!!". عقد حاجب ميرنا، فنظرت أرضًا في حيرة كما لو أنها صدقته، ليسخر منها مرة أخرى قائلًا: "أمزح معك، لدي لكِ مفاجأة عظيمة، ربما الليلة هي ليلة الانتقام بالنسبة لكِ، ولكن المفاجأة في القبو، بالتحديد في المطبخ، سأتركك قليلًا وأنزل لتحضير المفاجأة ثم أعود إليكِ بفنجان من

القهوة".

تركها، ثم ذهب ليأخذ حقيبة ميرنا، لكنه قبل أن يحملها فتحها، ليجد أمامه جثة متقطعة لأجزاء ليست متساوية، فالرأس غير مقطوعة بعناية، حتى الأذرع والسيقان لم يتم بترهم بشكل صحيح، وذلك نتيجة لأنها المرة الأولى التي تفعل فيها ميرنا شيئًا شنيعًا مثل هذا، فضحك وسألها:

- ما هو أصعب شيء في تلك المهمة التي قمتِ بها.

- نقله إلى هنا.. وربما تقطيعه!!.

زاد ضحك يوسف بعد إجابتها، فأغلق الحقيبة، ثم ذهب بها إلى القبو تاركًا ميرنا وحيدة في حالة لا مثيل لها من البهجة نتيجة لأنها وقعت في الحب.

نعم.. لقد وقعت في حب من جعلها تتحول من إنسان لوحش أو شيطان، من جعلها تسفك الدماء، من جعلها لا تخشَ شيئًا بعدما كانت خائفة من كل شيء، من جعلها سعيدة لأنها استطاعت بفضله أن تقتل أحد الذين جعلوها تعيسة، فهو الذي جعل منها شخصًا قويًا أمام نفسها، وهو الوحيد الذي لم يعرض عليها الحماية، بل علمها كيف تصير قوية، ربما أحبت ميرنا شخصيتها الجديدة بعدما قتلت خطيبها السابق بكامل إرادتها، وبناءً على ذلك أحبت يوسف الذي قام بتحفيز هذا القاتل بداخلها للخروج.

وفي ظل ابتهاج قلبها لفت انتباهها الحائط الموضوع عليه الرسومات المعلقة المتغيرة كالعادة، فاقتربت قليلًا من الحائط لترى

ما يوجد به، لتجد أنه لا يوجد سوى رسمتين فقط، الرسمة الأولى منهم هي رسمة الكلب الهاسكي المعتادة، أما الثانية فهي رسمة مرعبة أثارت قلقها ودبت الريبة بقلبها.

فكانت الرسمة الثانية عبارة عن رجل لا يمتلك ملامح كما لو أن ملامحه ممسوحة، يخلع قناعًا عن وجهه، ولكن ليس كأي قناع، بل هو قناع مُشكل على هيئة رأس الرجل الأصلع مُخيط الفم الذي أشار يوسف مسبقًا على أنه الخادم الخاص به. ليس هذا المثير للدهشة بالنسبة لميرنا، بل ما أثار ذهولها ودب الشك في قلبها شيء آخر، وهو أن القناع مُشكل على هيئة رأس الأصلع مُخيط الفم كان بدون عيون، بل وينزف الدماء من مكان عينيه الفارغتين، بينما عيناه المقتلعة متواجدة بيد ميرنا الواقفة أمام الرجل الذي يخلع القناع في الرسمة كما لو أنها هي التي اقتلعتهم، بل وتتأمل تلك العيون في يدها بحقد وبغض وملامح بها أخذ الثأر وكل شيء يمكنه وصف الكراهية.

تسمرت كالتمثال أمام اللوحة، فراحت تأخذ أنفاسًا لاهثة كما لو أنها كانت تركض وتوقفت فجأة، قبل أن يعود يوسف لها حاملًا في يده فنجان القهوة، ليضع الفنجان على الطاولة أمام الأريكة، ثم اقترب منها قليلًا، ليجدها تتأمل اللوحة وعينيها مغمورة بالبكاء، بل وعقلها مشتت للغاية، لتقول له بينما تحملق باللوحة بذهول تام:

- هل خادمك!! هو القاتل؟!

- نعم هو القاتل، وهذه هي المفاجأة التي أخبرتكِ بها، لكني كنت

أكذب حين قلت لكِ أنه خادمي.

هذه هي إجابة يوسف، ليبدأ صوت ميرنا في أن يكون غاضبًا قليلًا، لكنها ظلت تتأمل الرسمة بعناية، حيث قالت:

- لماذا لم تخبرني منذ البداية؟

- أخبريني؟! إذا كنت قلت لكِ أنه القاتل منذ البداية هل كنتِ ستستطيعين قتله؟! بالتأكيد لا، عندما رأيتكِ كنتِ متحمسة لمعرفة من هو، وخيالك يقودك نحو الانتقام بأبشع صورة مُمكنة وهذا حقيقي ولا أستطيع أن أنكر رغبتك في الانتقام العنيف، لكنكِ لم يكن لديكِ الجراءة لفعلها، فطوال هذه الفترة وأنا أهيئكِ لهذا اليوم يا ميرنا، حتى عندما قتلتِ مريم وفؤاد لم يكن هذا كافيًا لأخبركِ من القاتل، انتظرت حتى تأتي لي وأنتِ حاملة في يدك جثة، وهذا ما حدث بالضبط!!.

هذا ما قاله يوسف، ولقد أخبرها بحجته وسبب عدم اعترافه لها وهو يتحرك خلفها بحركة نصف دائرية، حيث ظل يلتف حولها ليصنع نصف دائرة ثم يعود، وكالعادة نبرته واثقة وهادئة للغاية، نبرة تجعل المُلقى عليه الكلمات يهدأ كما لو أن تلك الكلمات كالتنويم المغناطيسي، وهذا بالفعل ما حدث لميرنا التي فكرت في حديثه، فتذكرت كيف كانت حين رأت يوسف للمرة الأولى، وكيف أصبحت الآن، تذكرت كيف كانت لا تستطيع حمل سكينًا في يدها، وها هي الآن تضع السكين في جيبها، فعلمت أن يوسف لا يكذب عليها، بل وفعل كل هذا لأنه أرادها أن تكون مستعدة للانتقام بنفسها.

أغلقت عينيها، والتفتت ليوسف ببطء، لتسأله بينما تتنفس بسرعة رهيبة كما لو أنها ركضت أميالًا: "هل هو في تلك الغرفة في القبو؟!".

أومأ يوسف برأسه، قبل أن يخبرها قائلًا: "إنه في انتظارك، أخبرته بالفعل أنها الدقائق الأخيرة له، ولقد تركت مهمة قتله لكِ، اجعليه يشعر بالألم، طهري روحه بالألم مثلما أفعل مع ضحاياي".

توقف يوسف عن الحديث وبدأ في التحرك تجاه غرفة النوم، ثم التفت إلى ميرنا الثابتة خلفه كالصنم، فقال لها بلسان مُتملق: "السيدات أولًا".

أخرجت ميرنا السكين من جيبها، ثم بدأت في التحرك مسرعة تجاه غرفة النوم لتفتح الدولاب وتدخل إلى الغرفة السرية في القبو لتصل إلى مرادها أخيرًا.

وصلت غرفة النوم، وعندما دخلت وجدت أن الثلاثي داون ينامون على السرير، وقد أزعجهم انفعالها فاستيقظوا، ليجلس يوسف بجوارهم على السرير، منتظرًا من ميرنا أن تنزل الغرفة في القبو وحدها لتقتله.

وهذا ما حدث، حيث نزلت ميرنا وحدها، وظل يوسف جالسًا مع الثلاثي داون في غرفة النوم، منتظرًا أن يعلم من الأصوات التي ستصدر من الأسفل هل تم القتل أم لا، لكنه لم يستمع إلى شيء سوى صوت صراخ لميرنا، لقد بدا الصراخ هيستيري ومجنون، ولم تتعدَ الدقائق حتى بدأ في أن يستمع لصراخ الأصلع ذو الفم المُخيط، فعلم أنه من شدة الألم حاول فتح فمه ليصرخ، فانقطعت الخيوط

في فمه.

ظل صراخه لدقائق حتى توقف، ليعلم يوسف أنه قد مات، فقام من مكانه ونزل إلى الغرفة في القبو وبرفقته الثلاثي داون بفساتينهم العجيبة، وعندما نزل الغرفة وجد ميرنا جالسة فوقه وتتحدث بلهجة بها انتصار، لقد كانت تقول بصوت سعيد وحزين في الوقت ذاته: "لقد فعلتها يا أمي، لقد فعلتها أخيرًا، لقد قتلته!!".

اقترب يوسف ليرى كيف فعلتها، ليجد أنه دون عينيه الاثنين، وعيناه ملقيان بجانبه على الأرض الغارقة بالدماء، بل وانقطعت الخيوط في فمه حتى راح ينزف من شفتيه، لقد كان ميتًا وفمه مفتوح على آخره، بل ومذبوحًا ومنحورة رقبته. اقترب يوسف منها ومد لها يده ليساعدها على النهوض، فمسكت ميرنا بيده، ثم ارتمت في حضنه وهي متسخة بالدماء وعلى لسانها جملة واحدة: "لقد فعلتها، لقد قتلته".

وبعدها قالت بنبرة سعيدة بها لمسة من الحزن: "ما قصته؟! أريد أن أعلم قصته؟!".

ضحك يوسف وهي بين ضلوعه وقال: "حكيم، اسمه حكيم!!".

صمت قليلًا وتنهد بنهدتين، ليكمل حديثه: "لا شيء، أنه يرى أن العيون الزرقاء يسكن بداخلها الشياطين مثلما أرى أنا، فلقد تعرض لخذلان لا يُوصف من أحد الذين يمتلكون عيونًا زرقاء، ولأنه يمتلك كلب هاسكي فهو يعلم تمامًا أن ليس كل العيون الزرقاء يسكنها شياطين، فلهذا السبب كان يقتلع العيون الزرقاء البشرية الشيطانية

ويبدلها بعيون زرقاء لكلاب هاسكي وفية لا تخذل ولا تخون، هذه هي القصة بأكملها".

صمت، ثم نظر لميرنا وقال: "هل ذبحتيه أولًا أم اقتلعتِ عينه؟!".

قالت ميرنا بينما تتأمل عين يوسف: "اقتلعت عينيه أولًا، لا تقلق لقد تألم بأقسى ألم". صمت يوسف قليلًا، ثم أخذ نفسًا عميقًا وبات على وجهه ملامح الحزن، قبل أن يقول لها: "حسنًا، هذا تمامًا ما فعله حكيم بأمك".

لم تجبه ميرنا، بل ظلت صامتة هي واضعة رأسها على صدره، ليخبرها يوسف بسخرية: "هل أنتِ جائعة؟!".

نظرت ميرنا إلى جثة (حكيم) قاتل أمها، ثم قالت ليوسف بحماس: "أتضور جوعًا". حينها أمسكوا الثلاثي داون الذين كانوا كالمتفرجين على هذا الحدث بجثة (حكيم) ودخلوا به إلى المطبخ ليقوموا بتحضيره للطبخ.

الفصل التاسع عشر

ألبوم صور

بعد مرور أسبوعين:

يجعلك الحب ترى في الموت حياة، وترى في القاع سماء، وتواجه أشد ابتلاء بلا مبالاة، فدائمًا عندما تضع رأسك على وسادتك لتنام يزور عقلك أحد الاثنين، الأول هو من تسبب في تعاستك، والثاني هو من دب السرور في قلبك، وقد عانت ميرنا ممن تسببوا في تعاستها لفترة طويلة، فطوال الفترة الماضية لا يزور عقلها قبل نومها إلا الشخص الذي حرمها من والدتها، والتي حاولت جاهدة أن تتخيله أو ترسم له ملامح، حتى قبل موت والدتها اعتادت أن يأتي في بالها خطيبها السابق الذي تركها بعدما اغتصبها، لتنام بعدها على وسادة مبتلة بدموعها. أما منذ أن أخبرها يوسف أنه يعشقها، ومنذ أن بدأت في الشعور بالحب تجاهه وهو الشخص الذي يمر من خلال رأسها قبل نومها، لتبتهج وتضحك أخيرًا قبل أن تودع الليل استعدادًا لاستقبال يوم جديد مع يوسف الذي هو السبب الوحيد في التخلص ممن تسببوا في تعاستها.

في خلال الأسبوعين الماضيين وهي تعيش قصة حب رغم غرابة بدايتها وبشاعتها إلا أنها غيرت من حالتها المزاجية مئة وثمانين درجة، فلقد أصبحت ترى الحياة من خلال عين يوسف التي بها نار كافية لحرق العالم بأكمله، ومع ذلك رأت في النار نور، وتقبلت الحياة برؤيتها الجديدة الدموية، فلقد رأت في يوسف الشخص المثالي،

هو الأب الذي علمها كيف تعيش ولكن، ليس كتعليم باقي الآباء، وقد رأت فيه الزوج المثالي الذي لا أحد غيره يشبهها، حتى أنهم قد اتفقوا بالفعل على الزواج، وباتوا يتعاملون كالمخطوبين، يذهبون ليتنزهوا في الحديقة مثلًا، أو يأخذها يوسف لتناول العشاء في مطعم ليطعمها الدجاج أو اللحم، ولكن ليس لحمًا بشريًا هذه المرة، إنما لحم كأي لحم يأكلوه البشر.

وبالرغم من كل شيء حدث، إلا أنه كان ما زال هناك شيئًا جميلًا بداخل قلب ميرنا وروحها التي ظلت تمتلك رونقًا بريئًا، وذلك الشيء هو صوت الضمير، فلقد وصلت لمرادها وانتقمت لوالدتها، وبعدها لم تصبح تلك القاتلة التي كانت تخشى أن تصبحها، ربما لأنها لم تتعرض لموقف سيء من شخص ما جعلها تفكر في القتل مرة أخرى. ففي جميع تلك الأيام لم ترَ سوى يوسف، والتي ظلت تحاول جاهدة أن تجعله يصبح إنسانًا آخر، وأن تقنعه أن يحيوا سويًا دون دماء، ودون اختلاط بالبشر الذين قد يجعلونهم يرتكبون الأخطاء والحماقات والقتل، لقد كانت تحاول إقناعه بذلك خوفًا من أن ترتكب هي جريمة قتل أخرى بسبب اختلاطها بالبشر، فهي تعلم تمامًا أن في أقل موقف يستفزها من بشري ستقول بداخل نفسها "لما لا أقتله؟!". لذلك حاولت إقناعه بأن يبتعدوا عن البشر تمامًا.

فالبشر هم أساس كل شر في العالم، هم القادرون على صنع من الملاك شيطانًا، وهم الحافز الأول لإيقاظ الشياطين بداخل أجسادنا ليصل بنا الحال لسفك الدماء، وهم من يصنعون من المرء قاتل، وإذا أراد الشيطان ألا يكون شيطانًا فعليه أن يترك البشر، وإذا حاول

القاتل ألا يكون قاتلًا فعليه أن يترك من يجعل الشيطان بداخله يتحدث وهم البشر الوحيدون القادرون على فعل ذلك أيضًا. فبدون البشر لا يوجد شر في العالم، فهم مرتكبو الشرور وصانعي الأشرار.

وبالفعل قد بدأ يوسف يقتنع بنصائح ميرنا، حيث حاول جاهدًا ألا يتحدث مع البشر مثلما يفعل دائمًا، حاول ألا يعلم قصصهم حتى لا يصبح هناك ضحية أخرى ليطهر روحها من الذنوب بالألم مثلما اعتاد، فكانت حياتهم طوال الأسبوعين سعيدة وعلى اتفاق دائم وعظيم، لكن لم يبقَ الحال على ما هو عليه، لأنهم تحولوا من الثنائي المثالي إلى أعداء بسبب ألبوم صور رأته ميرنا!!.

في ذلك الحين وبعدما مر أسبوعان على انتقام ميرنا لوالدتها، كانت ميرنا تجلس في غرفتها على سريرها، تتحدث مع يوسف على الهاتف، قبل أن تستمع لصوت الأغنية التي دائمًا ما تسمعها بداخل غرفة نادية، أغنية (أمورتي الحلوة).

لمعت عين ميرنا باشتياق، ثم طلبت من يوسف أن يغلق الهاتف، لتذهب متلهفة ركضًا تجاه غرفة نادية لتحاول أن تراضيها وتخبرها أنها ستتغير وستصبح أفضل مما كانت عليه قبل موتها ومما أصبحت عليه بعد موتها، وذلك لأن شبح الأم أو الهلوسة التي تظهر لميرنا على هيئة أمها غير راضية عنها رغم أن ميرنا فعلت كل شيء لأجلها.

دخلت ميرنا غرفة نادية، لتراها جالسة على السرير بنفس الطريقة التي تراها بها في كل مرة، ولكن عينيها هم عينان لكلب هاسكي،

وهذا هو الشيء الذي سيجعل ميرنا تجن وتنهار، فكيف ما زالت تراها بعيون الهاسكي وهي انتقمت لها؟! أليس من المفترض أن تصبح بعينيها الجملتين الآن، وأن تبدأ ميرنا في تكملة الرسمة التي تقف بجانبها والتي رسمتها لها، ألم يحن الوقت أن ترسم ميرنا العينين لرسمة والدتها أخيرًا بدلًا من هذا الفراغ الأسود؟!.

سألت ميرنا والدتها: "كيف ما زالت عيونكِ عيون كلب هاسكي؟!".

لم تجبها نادية، ولم تنظر لها حتى، بل ظلت تهز رأسها وتغني مع الأغنية، وفي تلك اللحظة استمعت ميرنا لصوت أحد يطرق على باب المنزل، فتركت والدتها وذهبت لترى من هذا الذي أتى لزيارتها، وعندما فتحت باب منزلها وجدت أمامها امرأة جميلة للغاية تشبه والدتها إلى حد كبير، بل وتمتلك نفس العيون، لكنها ليست مُسنة كـنادية بل بدا من مظهرها أنها امرأة في بداية الأربعين من عمرها أو أقل من هذا ربما!!.

تأملتها ميرنا وهي تشعر بالدهشة من هذا التشابه الشديد، قبل أن تسألها: "من أنتِ؟!".

لتجيبها المرأة بلهفة وحماس ولكن بعين حزينة "أنا خالتكِ أميرة يا ميرنا؟!".

ذهلت ميرنا، وهذا لأنها تذكرت أن لها خالة بالفعل، فلقد أخبرتها والدتها عن خالتها كثيرًا من قبل، كانت مهاجرة، وربما قد عادت عندما علمت بخبر وفاة أختها رغم أنها عادت متأخرًا جدًا، بل وتعلم ميرنا تمامًا أن فارق العمر بين والدتها وخالتها أميرة ليس كبيرًا،

فشعرت بالحزن والأسى على والدتها الذي ظهر عليها الشيب مبكرًا عكس خالتها التي تقف أمامها ويظهر عليها الحيوية والشباب أكثر من ميرنا نفسها.

لم تنتظر أميرة خالة ميرنا كثيرًا، حيث ألقت بالحقيبة التي تمسك بها أرضًا، ثم أخذت ابنة أختها وضمتها إلى صدرها بعناق كعناق الأحبة حين يلتقون بعد فراق دام للكثير والكثير من الأعوام.

انتهى العناق، فحملت ميرنا الحقيبة ثم دخلوا سويًا غرفة ميرنا لتجلسا. وعندما جلستا على السرير ظلت أميرة تتأمل ميرنا وكأنها ترى أختها فيها، لتخبرها بعين دامية: "تشبهين نادية كثيرًا".

أومأت ميرنا برأسها، قبل أن تقول بخجل "أعلم، ولذلك أحب النظر إلى نفسي في المرآة لأتذكرها".

نزفت عين أميرة بالدموع، فقالت بلهجة بها حنين لأختها: " لقد هاجرت وأنتِ عمرك عامين فقط يا ميرنا، عندما علمت بخبر وفاة أختي وأتيت كنت خائفة من اللحظة التي لن أرى فيها نادية، ولكني مخطئة".

زادت دموع أميرة، ثم وضعت يدها على خد ميرنا بلطف وقالت: "لأني أراها الآن أمامي، أنتِ مثلها تمامًا عندما تركتها وهاجرت منذ ما يقارب الخمسة وعشرين عامًا".

صمتت أميرة وتنهدت، ثم نظفت عينيها من الدموع، قبل أن تفتح حقيبتها وتخرج منها ألبوم صور، لتبدأ في الحديث مجددًا وتقو: "وأنا في الطائرة كنت أنظر إلى تلك الصور، أنها صور عائلية خاصة

بكِ يا ميرنا، لقد أخذتها معي وأنا مهاجرة حتى أتذكرك وأتذكر أمكِ دائمًا".

ارتعش صدر ميرنا نتيجة للهفة قلبها، فأخذت الألبوم بحماس لتشاهد ما يوجد بداخله من ذكريات، وعندما فتحت أول صورة وجدت تلك الصورة المعلقة في غرفة نادية، صورتها وهي صغيرة وعمرها عامان فقط بينما تحملها نادية على كتفها، سقطت دمعة حنين من عين ميرنا على الصورة وهي تتأملها، ولكنها لم تكن تعلم أن الصور القادمة ستسبب لها حزنًا متضاعف لما هي عليه.

فعندما قلبت الصفحة لترى الصورة التالية وجدت شيئًا أثار شكها بشكل لا يمكن وصفه أبدًا، فلقد كانت تلك الصورة عبارة عن صورتها وهي صغيرة بينما كانت جالسة على الأرض برفقة والدتها، وبينهم (كلب هاسكي)!!.

وقتها تذكرت كلمات يوسف عندما قال لها: "هل كانت أمكِ تحب الكلاب الهاسكي؟!".

نظرت للصورة بارتباك، ثم قلبت للصفحة التالية لترى ما يوجد بها، لتجد الصورة الثالثة عبارة عن نادية وهي تحمل ميرنا كما في الصورة الأولى، ويقف بجانبهم رجل والذي من المفترض أنه والدها، والذي لم ترَه منذ الصغر ولا تتذكره حتى، لكنها وجدت في الصورة شيئًا غريبًا ومثيرًا للذهول غير والدها، وهو أن بجانب نادية يقف طفلًا ربما في السابعة أو الثامنة من عمره، يبدو وسيمًا للغاية، عيناه خضراوان اللون كأوراق الشجر في فصل الربيع، متبسمًا ابتسامة

بريئة ملائكية بينما يلاعب ويداعب الكلب الهاسكي بجانبه.

لم يكن هذا كل شيء في الصورة، فهنالك شخص آخر معهم وهي امرأة تبدو غريبة الأطوار جالسة على الأرض بعيدًا عنهم، تنظر للطفل بحقد وكره شديد كما لو أنه ألد أعدائها.

أما عن المكان الذين كانوا متواجدين به، فهم يقفون في حديقة بها الكثير من الزرع والأشجار، وقد كان خلفهم منزلًا مكوّنًا من طابق واحد والذي يبدو عليه أنه منزل ريفي أو ما شابه.

تعجبت ميرنا وشعرت بالغرابة، لتسأل خالتها بلسان متلعثم: "من الذين معي أنا وأمي في الصورة؟!".

لتجيبها أميرة بقلب مسرور: "هذا الطفل هو يوسف، وهذا الكلب كان صديقك أنتِ ويوسف وأمك المقرب واسمه (روي)، وهذا الرجل أباكِ يا ميرنا فبالتأكيد توقعتِ ذلك؟! وتلك المرأة غريبة الشأن هي والدة يوسف التي كانت تعاني نفسيًا، ولقد أخرجت معاناتها على طفلها المسكين، طفلها الذي لم يرَ أي أم في حياته، فكانت أمه كالعذاب الأليم بالنسبة له، فاعتبر أمكِ كأمه، كان يوسف يعشق نادية يا ميرنا، وأختي عشقته أيضًا ولم تفرقه عنكِ، وكان يوسف يعشقكِ أنتِ بجنون ومتعلق بكِ بطريقة لا وصف لها، هل تعلمين؟! لقد اعتدنا أن نقول في الماضي أنكِ في المستقبل ستتزوجين بيوسف ولا يوجد هروب من هذا المصير بسبب شدة حبه لكِ، فحبه لكِ هو ذلك الحب البريء، حب الأطفال الذي لا يعلم معنى الخبث أو الشهوة أو تلك الأشياء القذرة التي نسعى لها نحنُ البالغون!".

ارتجف جسد ميرنا، وراحت يدها الماسكة بالألبوم ترتعش عندما استمعت اسم (يوسف)، لتقلب الصفحة مسرعة بقلب ينبض بقوة وعين متسعة عن آخرها، لترى الصورة الرابعة والتي كانت عبارة عن صورة لها هي ويوسف، حيث كان يحملها وينظر في عينيها مباشرة بنظرة تملأها الحب والبراءة، في تلك اللحظة تذكرت ميرنا عندما ذهبت للمرة الثانية إلى منزل يوسف، حينما كان ينظر إلى عينيها بنفس الطريقة وقال لها: "ما زلت أتذكر عندما كنت أحملكِ بيدي وأنتِ طفلة صغيرة، لقد كنتُ أنظر لعينيكِ الزرقاوين مثلما أنظر لهما الآن".

لم تكن هذه هي الصدمة الوحيدة لميرنا، بل هنالك صدمة أخرى وهي رابطة الشعر التي كانت ترتديها في الصورة، أنها نفس رابطة الشعر التي أهداها لها يوسف في أول يوم قابلته فيه، نعم!.. أنها رابطة الشعر ذاتها المصنوعة على شكل فراشة.

زادت صدمة ميرنا وتسارعت أنفاسها وتعرق وجهها، حتى ابتلت يداها تعرقًا، تمنت بداخل نفسها أن يكون هذا الألبوم حلمًا أو كابوسًا وستستيقظ منه الآن، وذلك لأنها حتى تلك اللحظة لا تريد أن تصدق ما يدور في بالها، لا تريد أن تصدق أن يوسف الذي في الصور هو يوسف ذاته الذي تحبه، فقلبت الصفحة على أمل أن ترى شيئًا يمحي شكوكها، ولكن الصورة الخامسة قد أكدت شكوكها بالكامل.

فما وُجد في الصورة الخامسة قد أكد أنهما بالفعل نفس الشخص، حيث أن الصورة الخامسة هي صورة الكلب الهاسكي نفسها التي رسمها يوسف والمعلقة في صالة منزله فوق التلفاز، وهي الصورة

التي لم تتغير أبدًا بينما جميع لوحات يوسف تغيرت، والذي اتضح أن الكلب الهاسكي الذي رسمه يوسف هو الكلب روي المتواجد في ألبوم الصور، وهو نفسه الكلب الذي قال يوسف عليه مسبقًا أنه أنقذ حياته عندما سألته ميرنا عن اللوحة المرسومة، ولكن لم يرسم يوسف الصورة كاملة، بل رسم النصف الخاص بالكلب روي فقط، لأن الصورة الكاملة عبارة عن الأم نادية والكلب روي وهم رؤوسهم ملتصقة ببعض، بينما وجوههم فقط الظاهرة في الصورة، وقد بدا الأمر على أن من التقط هذه الصورة قد التقطها وهو قريب للغاية من نادية والكلب روي حتى ظهروا كما لو أنهم ملتقطون صورة سيلفي.

أغلقت ميرنا عينيها في تعاسة واستياء، قبل أن تغلق ألبوم الصور، وبحركة لا إرادية وضعت يديها الاثنين على رأسها وكأن عقلها قد توقف نتيجة لتلك المفاجآت، بل وظهر عليها ملامح التعب، حتى لاحظت أميرة هذا لتخبرها: "هل أنتِ بخير يا عزيزتي".

لم تجبها ميرنا، فظلت تحاول أن تتماسك أمام خالتها حتى لا يصيبها نوبة من الغضب وتخيفها، قبل أن تخبرها أميرة بعفوية وحزن: "هل وصلت الشرطة لقاتل نادية؟! هل علموا من هو؟!".

عندما استمعت ميرنا لسؤالها أصابها الجنون وراحت تضحك بهيستيرية، ثم بدأ صوت ضحكها يعلو تدريجيًا، حتى خافت منها أميرة، لتصمت ميرنا مرة واحدة، ثم تلتفت لأميرة بنظرة مرعبة وتخبرها: "يوسف!".

نعم.. لقد علمت ميرنا أن يوسف هو القاتل الذي كانت تبحث عنه طوال هذه الفترة، علمت أنها ارتمت بين أحضان من حرمها من فقيدتها نتيجة لغبائها، وأن طوال هذه الفترة كان القاتل أمام عينيها اللتين ربما تمتلكان البصر لكنهما لا تفقهان شيئًا عن البصيرة، علمت أن يوسف ليس الشخص الذي ساعدها في التخلص ممن تسببوا في تعاستها، بل هو أكبر سبب لتعاستها، ولكن علمها بالحقيقة جعلها تتذكر جملة أخرى قالها يوسف حين أخبرته أن والدتها حذرتها منه في الحلم، فتذكرت حينما أجابها قائلًا: "ربما لم تكن تحذركِ مني، ربما كانت تحذركِ من الحقيقة". مما جعلها تتساءل بداخل نفسها بسؤال مرعب أشد الرعب، سؤال بدأ ينهش فؤادها، وهذا السؤال هو "ما هي الحقيقة؟! هل أمي هي الشخص البشع الذي كان يروي يوسف قصته طوال هذه الفترة؟! هل أمي هي من جعلت أم يوسف وجبة لكلب؟! هل أمي هي مَن جعل مِن يوسف ذلك الشخص المُرعب الدموي؟!، هل هذه هي الحقيقة التي قصدها يوسف؟! ولكن كيف هذا؟! كيف هذا ويوسف قال لي أن الكلب روي أنقذ حياته من قبل؟! هل هنالك كلب آخر في القصة وهو الذي أكل والدة يوسف؟!".

راحت عيناها تنزف بالدموع، ثم أخذت تتأمل أميرة بجانبها التي بدأت تشعر بالرعب بسبب ردة فعل ميرنا الغريبة، لتتحدث ميرنا مع أميرة وهي مبتسمة بعين أصابها الاحمرار نتيجة لكثافة البكاء قائلة "يوسف!!".

ثم عادت تضحك بهيستيرية مجددًا ولكن عينيها لم تتوقف عن البكاء، حتى راحت تصفق مع ضحكها، وهذا ما جعل أميرة تشعر

بالفزع، فحملت حقيبتها وودعت ميرنا بجملة: "سأذهب الآن ثم أعود لكِ لاحقًا".

ذهبت أميرة ورحلت عن ميرنا لتتركها وحيدة في تلك الحالة البائسة، حيث أنها ظلت كما هي ولم يتغير شيء، ظلت تضحك بجنون وتقول: "يوسف!!".

في ذلك الحين لاحظت ميرنا أن هنالك أحدًا يحاول الاتصال بها على الهاتف الملقى على السرير بجانبها، وبينما تضحك الفتاة وتصفق وكأنها فقدت عقلها مما رأته وجدت أن من يحاول الاتصال هو يوسف. حملت الهاتف مسرعة لترد على يوسف، ولم تتركه ينطق بكلمة حتى، فلقد أخبرته فور إجابتها على الهاتف: "أريد أن أراك؟!".

ليجيبها يوسف قائلًا: "حسنًا، يمكنك القدوم إلى منزلي فور عودتي من الحانة".

أغلقت ميرنا هاتفها، ثم عادت إلى الضحك مجددًا، قبل أن تستمع لصوت أغنية (أمورتي الحلوة) قادمًا من غرفة نادية، فزاد ضحكها وقالت بصوت مرتفع: "هل أنتِ قاتلة يا أمي، هل ما أفكر به صحيح؟! هل لهذا السبب رويتِ لي حكاية شيطان الانتقام الذي استطاع السيطرة عليكِ في الماضي؟!".

صمتت فجأة، ثم قالت لنفسها وهي متسعة عينيها عن آخرها وكأنها لا تصدق حتى الآن ما رأته: "يوسف!!".

الفصل العشرون

الشيطان الوسواس

تعتقد أنها النهاية، فمن كان الرفيق في البداية أصبح هو العدو، تمشي في الشارع بعدما نزلت من سيارة الأجرة التي أخذتها لتذهب إلى يوسف، إنها على وشك الوصول لمنزله ولا يفصلها سوى عدة أمتار، كلما اقتربت من المنزل زاد نبضها، وسال العرق على جبينها، وتسارعت أنفاسها وارتجف جسدها بقوة، كادت أن تسقط أرضًا وهي تتحرك ولكنها مثابرة ومُصرة على المقاومة.

وصلت إلى المنزل، فمدت يدها بصعوبة لتطرق الباب، لكن وهي تطرق فُتح الباب وحده دون مجهود من أحد، فلم يكن مغلقًا بإحكام من الأساس، لم تهتم ودخلت المنزل، لتجد يوسف واقفًا أمام الحائط الذي يعلق به رسوماته دائمًا، ينظر للوحاته بتأمل رهيب ولا يتحرك له جفن، اقتربت ميرنا بحذر لتشاهد هل هنالك رسومات جديدة أم لا، فوجدت أن لا جديد يُذكر عن المرة السابقة، فقط صورة الكلب الهاسكي المعلقة دائمًا أو بمعنى أصح الكلب روي، والصورة الأخرى هي ذاتها التي كانت معلقة في المرة السابقة أيضًا، وهي الصورة التي جعلتها تعتقد أن (حكيم) الأصلع ذو الفم المخيط هو القاتل، لكنها تأملت الرسمة هذه المرة بعين كالقناصة، فوجدت أنها مخطئة، لأنها ليس كما كانت في المرة السابقة بل تم تكملة ما كان ينقصها، حيث ملامح الرجل الذي يخلع القناع المُشكل على هيئة رأس(حكيم) قد ظهرت، وهذا الرجل هو يوسف نفسه.

انفطر قلب ميرنا وهي تتمعن الرسمة، قبل أن تنظر ليوسف بعين أحمرت بكاءً، فحاولت أن تتحدث ولكن عقد لسانها، حتى بدأت شفتاها ترتعش، فضحك يوسف دون أن ينظر لها وظل ينظر إلى الصور، ثم قال بهدوئه وبروده المعتاد: "كنت أعلم أنكِ ستعلمين كل شيء في يوم يا ميرنا، علمت أن الحقيقة لا يمكن أن تُدفن".

استطاعت ميرنا أن تتحدث أخيرًا، فقالت بنبرة بها كسرة للنفس: "ما معنى تلك الرسمة؟! هل أنت قاتل أمي؟!".

لم يلتفت لها يوسف، لكنه تحدث بنفس الطريقة وهو ينظر للرسومات أمامه: "أنا لست القاتل، وستفهمين معنى الصورة".

ابتلعت ميرنا لعابها، ثم حاولت أن تتظاهر بالجمود لأنها بدأت في أن تشك أن يوسف يكذب، لتقول ليوسف بعين بها نظرة قوية رغم حزنها: "لم تخبرني اسم هذا الكلب في الرسمة من قبل؟! هل هذا الكلب هو روي؟!".

قالتها، ثم أشارت إلى رسمة الكلب المعلقة دائمًا فوق التلفاز، فضحك يوسف ساخرًا منها، وظل على ما هو عليه حيث لم يلتفت لها من الأساس، فقال "نعم!".

لتجيبه ميرنا بنبرة غاضبة: "أريد أن أعلم كل شيء حدث في الماضي، أريد أن أعلم كل شيء يا يوسف، قصتك بالكامل، ولماذا قتلت أمي؟!".

باتت ملامح الغضب تظهر على وجه يوسف حتى وإن كان صوته يدل عكس ذلك تمامًا، لكنه ظل يتأمل الرسومات، قبل أن يقول بنبرة

منزعجة وباردة: "أنا لم أقتل أمك".

لتصرخ ميرنا في وجهه قائلة: " إذن اروي لي كل شيء!!". ابتسم يوسف، وترك ميرنا، ثم بدأ في أن يتحرك بهدوء وهو يصفر بفمه تجاه غرفة النوم، وعندما دخل غرفة النوم فتح الدولاب ونزل إلى الغرفة السرية في القبو.

تحركت ميرنا خلفه مسرعة ونزلت إلى القبو، وعندما أصبحت في القبو وجدت أن باب المطبخ يُغلق، اعتقدت أن يوسف دخل المطبخ ليهرب منها ولا يجيبها، فتحركت مسرعة تجاه المطبخ، لكن في تلك اللحظة أتى أحد الثلاثي داون الذين كانوا مختبئون في الغرفة من خلفها، وضربها على رأسها بعصا من خشب الزان، لتفقد ميرنا وعيها وتسقط على الأرض، ومن ثم قاموا الثلاثي داون بسحبها من قدميها.

***

"سأروي لكِ كل شيء، ووقتها عليكِ الاختيار بين يدي والمنشار".

هذا ما قاله يوسف فور إفاقة ميرنا مما حدث لها، ميرنا التي أفاقت لتجد نفسها مُقيدة على الكرسي الذي اعتادت أن تجلس عليه وهي تتناول الطعام مع يوسف، لكن هذه المرة لا يوجد أمامها على الطاولة لحم بشري، بل يوجد منشار.

أما عن يوسف فكان يجلس أمامها على كرسيه، يتأملها محاولًا إخفاء مشاعره والظهور بالجحود والقوة والهدوء المعتاد منه، لكنه من حين لآخر يظهر على وجهه علامات حسرة ولو كانت ضئيلة،

بل وعلامات يأس وقلة حيلة، بل من حين لآخر يظهر على وجهه علامات ضعف أيضًا.

وعلى الرغم من أن ميرنا تشعر بالدوخة وكأن الغرفة تدور حولها، إلا أنها استمعت لكلمات يوسف جيدًا، لتحاول الإجابة على كلامه ولكنها وهي تحاول الكلام اكتشفت أن يوسف قد وضع لاصقة على فمها لكي لا تتحدث، ليقود هو الحديث كعادته النرجسية المتعجرفة ليروي قصته، ولكن هذه المرة بالتحديد تمتلك ميرنا الفضول الكافي لتعلم القصة التي سيرويها يوسف.

وبعد القليل من الوقت عندما وضحت الرؤية أمامها، ورأت يوسف، بدأت تلك النظرة الحزينة الغير واعية لما يحدث أن تظهر له، فخذلان قلبها يقتلها، بل وتشعر أنها عادت ضعيفة كما كانت، ولا تعلم كيف ستتصرف لأن الأمور فلتت من يدها، لذلك صمتت وأومأت برأسها بكسرة وندامة ليوسف، ليروي لها ما تشاء أن تسمع، فنهض يوسف ببطء، ثم بدأ في أن يدور حولها بطريقة مشيه الباردة البطيئة المرهقة للنفس، استعدادًا لكي يروي لها كل شيء.

***

« ما زلت أتذكر أول يوم رأيت فيه حكيم، لقد كُنت في الحانة أصب له الكأس مرة تلو الأخرى كعادة ما أفعل مع الجميع، كان غريب الأطوار بالنسبة لي، ظهر البؤس على وجهه الذي كان أغرب من تصرفاته في هذا اليوم، حيث أن وجهه بلا أي شعرة، ورأسه صلعاء تمامًا، ظل يطلب مني كأسًا ثم كأسًا ثم كأسًا، وكلما شرب

كأسًا التفت حوله وكأن أحدًا يراقبه أو أنه متوقع قدوم شخص ما وخائف منه، لكني لم أتوقع أن الشخص الذي يشعر بالرعب من قدومه هي مجرد عاهرة من العاهرات اللاتي يأتين إلى الحانة ليلتقطن زبونًا.

أتت العاهرة واقتربت من الطاولة الطويلة، لقد بدا الغضب ظاهرًا على وجهها، كانت تلك العاهرة هي (ليلى)، وهي العاهرة الأجمل في الحانة بعد مريم، وأهم شيء مميز في ليلى هو عيناها الزرقاوان اللتان يصدر منهما لمعانٌ وبريقٌ كلمعان السماء في الصباح.

جلست ليلى بجوار حكيم وأمامي مباشرة، بالتأكيد لم أستطع النظر إليها بسبب لون عينيها، فأنا لا أستطيع النظر إلى العيون الزرقاء، فأدرت وجهي بعيدًا عنها، ثم تأملت وجه حكيم، لتبدأ ليلى في الحديث بلهجة متعجرفة قائلة: "هل تعلم يا يوسف، هذا المكان مليء بالمرضى النفسيين، مثلك تمامًا يا يوسف!".

لم أجبها، فضحكت بسخرية وهي تنظر لحكيم، ثم قالت: " هل ما زلت تخاف من العيون الزرقاء يا يوسف، أنظر لعيني".

في تلك اللحظة شعر حكيم الذي كنت أنظر له تجنبًا للنظر إلى ليلى بالصدمة، فالتفت لي وتفحصني بعين كعين الصقر، أما أنا فتعجبت نظرته لي، بل وشعرت بالإساءة بسبب إهانة ليلى، فأمسكت بكأس فارغ وبدأت في تنظيفه، لتكمل ليلى سخريتها وتقول بينما تنظر لحكيم: "نعم يا حكيم، أنه معتوه ومجنون مثلك، ويقول إنه يأكل لحوم البشر ليخيف الناس منه".

لأقلل من حدة الموقف ضحكت بسخرية بينما أنظف الكأس، وهذا ما جعل ليلى تثار غضبًا، لتصفع حكيم على وجهه، قبل أن تقول له: "عندما ذهبت لقضاء ليلة معك على سريرك يوم أمس، لم أذهب معك لأجل جمالك يا أملس الوجه والرأس، بل ذهبت لأجل مالك، هل يمكنك أن تخبرني ما الذي حدث؟!، حاولت أن تقتلني وتقتلع عيناي عندما تأملتهما، ثم تركتني عارية في منزلك وهربت، أين مالي أيها اللعين؟!".

صمت حكيم، ثم أخرج المال من جيبه وقام بوضعه على الطاولة، لتأخذ ليلى المال، لكنها ظلت ثرثارة، حيث تحدثت لي بسخرية قائلة: "افرح يا يوسف، لقد وجدنا توأمك الآن، لا يوجد فارق بينكما سوى أنه يكره العيون الزرقاء وأنت تخاف منها ".

ذهبت ليلى بعدما قالت جملتها، أما أنا فارتعش صدري فرحًا، لأنني علمت أنني وجدت توأمي بالفعل، وذلك قبل أن أستمع لصوت بكائه بينما أنظف الكأس في يدي، فضحكت وقلت بنبرة أسخر بها من بكائه: "كان يجب أن تُكمل ما فعلته أمس، حتى لا أراك تبكي كالأطفال هكذا؟!".

توقف حكيم عن البكاء محاولًا أن يمثل أنه بخير لكنه فشل في ذلك، قبل أن يخبرني بنبرة متعجبة: "ما الذي كان يجب أن أكمله".

زاد ضحكي، ثم نظرت إليه بنظرة عابرة وقلت: "تقتلع عينيها، وتقتلها!".

شعر حكيم بالصدمة عندما قلت له تلك الجملة، فاقتربت منه

وهمست في أذنه قائلًا بلسان ساخر: "سأخبرك بسر أخبرت به الجميع هنا، أنا من آكلي لحوم البشر".

ضحك حكيم مثلما يفعل الجميع عندما أخبرهم بهذا السر، مما يعني أنه لم يصدقني كعادة الجميع، قبل أن يلوح بيده ويقول: "اتركني وشأني يا رجل أرجوك".

بالطبع لم أتركه وشأنه، فلقد أخبرته ما علمته جيدًا من كلام ليلى، حيث قلت له متسائلًا: "ماذا ترى عندما تنظر إلى عيون زرقاء؟!".

لم يجب، لكنه قال بلهجة ساخرة يحاول بها التمثيل مجددًا: "يا رجل، لقد كنت مخمورًا في البارحة، هذا كل شيء؟!".

ابتسمت، ثم ملأت الكأس الفارغ في يدي بالخمر وأعطيته له، قبل أن أقترب منه هامسًا في أذنه مرة أخرى قائلًا: "أعتقد أنني بحاجة أن أتحدث مع هذا الشخص الثمل الذي كان على وشك أن يرتكب جريمة يوم أمس".

عدت إلى الوراء قليلًا حتى يأخذ مساحته وبالتالي لا يشعر بالتوتر، ثم ملأت كأس لي أنا أيضًا، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أشرب بها الخمر منذ قتلي لزوجتي وابني، فقلت بعدما شربت القليل من الخمر: "أعتقد أن الشخص المخمور بداخلي قد حضر، حسنًا.. سأخبرك ماذا أرى حين أنظر إلى عيون زرقاء، أرى شيطانًا أخشاه كما يخشى الطفل ذلك العفريت المتواجد أسفل فراشه ".

صمت حكيم، ثم طلب مني سيجارة، فأخرجت علبة السجائر من جيبي، وقمت بإشعال واحدة وأعطيتها له، ليبدأ في الحديث بتأثر

ظهر على وجهه ونبرته قائلًا:

"كنت أعمل طبيب عيون، رأيتها، سحرتني ببريق عينيها الزرقاوين، أحببتها حبًا يكفي وطنًا بأكمله، رأيت بداخل عينيها ملاكًا، خسرت عائلتي وأصدقائي وكل من اهتم لأمري لأجلها، لأن الجميع رفض حبي لها، لكني تزوجتها، وأنجبت منها طفلًا في الخامسة من عمره الآن، وعندما أصبت بالسرطان وتغير مظهري نتيجة للعلاج الكيميائي، بل وأصبحت على علم أن حالتي متأخرة وأنني ميت لا محالة، تركتني وهربت، لقد طلقتني بالقانون وخلعتني وتزوجت صديقًا لي، لا أعلم أين هي الآن، ما أعلمه هو أنني سأموت وحيدًا قريبًا دون حتى النظر إلى ابني لكي أشبع منه قبل موتي، لذلك أصبحت عندما أنظر إلى أي عيون زرقاء لا أرى الملاك الذي رأيته مسبقًا، بل أرى شيطانًا خائنًا ومخادعًا".

صمت حكيم، ثم بدأ في البكاء مجددًا، قبل أن يتكلم بنبرة مرتفعة بها حسرة ودفاع عن النفس: "أنا لست بقاتل، ولم أكن أريد قتل تلك العاهرة التي تدعى ليلى على الإطلاق، أنا فقط أحاول أن أصطحب العاهرات ذوات العيون الزرقاء إلى منزلي لأنني عندما أنظر إلى عيونهم مباشرة يحدث لي شيء غريب، أرى زوجتي بدلًا منهم، ورغم أني أشتاق لها إلا أنني بمجرد رؤيتها أحاول قتلها واقتلاع عيونها، ثم اكتشف في النهاية أن تلك التي ستموت بين يدي هي مجرد عاهرة وليست زوجتي، ما زلت أشتاق لعينيها!! كيف للمرء أن يشتاق لعين يسكنها الشيطان؟!".

أجبته قائلًا: "أولًا لا يوجد فارق بينهم، زوجتك عاهرة أيضًا حتى

وإن كنت تحبها، أما عن اشتياقك لرؤية عين يسكنها الشيطان فهذا ليس حقيقيًا، أنتَ فقط تريد اقتلاع تلك العيون، لا تكذب على نفسك كثيرًا يا صديقي، أنتَ كرهت العيون الزرقاء كرهًا عظيمًا ولا تشتاق لها؟!".

عم السكون بيننا، قبل أن يسحب حكيم نفسًا من سيجارته، ثم راح ينظر لي حين لاحظ أن عيني لم تفارقه وتراقب حركاته بقوة ملاحظة وتربص، فحاول أن ينهي الحديث قائلًا: " لا عليك يا رجل، أعتقد أنني أصبحت مخمورًا، فلا تأخذ بكلامي".

لقد كان على وشك أن يرحل، فمسكت يده بعنف وأخبرته بلهجة حادة: "عندما كنت صغيرًا خذلتني امرأة ذات عيون زرقاء، امرأة عشقتها كما لو كانت أمي، لقد كرهت أمي الحقيقية وأحببتها، لكنها تركتني لأموت بين النيران، رأيت حينها أن عينيها اللتين نظرتا لي وأنا بين النيران ليست تلك العيون التي عشقتها، بل عيون يختبئ بداخلهم الشيطان، منذ ذلك الحين وأنا أخشى النظر إلى العيون الزرقاء، منذ ذلك الحين وأنا أستيقظ كل يوم على مشهد أراها فيه تحدق بي بعينيها الزرقاوين قبل أن تتركني لموتي وتذهب، إنها كابوسي الأبدي، هل تعتقد أنني سأتركك ترحل؟! لم يفهمني أحد مثلك في هذه الدنيا، عليك البقاء قليلًا لنكمل حديثنا".

خاف حكيم فظل مكانه، ثم شرب آخر ما تبقى من كأس الخمر في يده، فأخذت الكأس وملأته على آخره وأعطيته له مجددًا، ثم أخرجت سيجارة وأشعلتها وأهديتها له، وأشعلت واحدة أخرى لنفسي، قبل أن أخبره بهدوء بينما أنظر إلى سيجارتي "أخبرتك بما

حدث لكي تعلم أنني مثلك، أرجوك تحدث؟!".

علم حكيم أنني اكتشفت الكره بكيانه، وأمسكت ببزرة القاتل التي ستنمو لتصبح شجرة بداخل قلبه الذي قد بدأ يميل لونه للأسود، لذلك أعترف وقال بوجه غاضب ولسان ثائر: "نعم، أنت على حق، أريد أن أقتلع جميع العيون الزرقاء حتى يصبح العالم نقيًا دون شياطين ،أنا أكره جميع من يمتلك تلك العيون الخبيثة!!".

لأجيبه بيقين تام وهدوء محاولًا به امتصاص غضبه: "لن يرتاح قلبك، ولن يهدأ عقلك إلا عندما تفعلها، أنت ميت في جميع الأحوال فلما لا تفعلها؟! ".

ضحك حكيم بسبب نبرته الغاضبة ساخرًا من كونه أحمق لم يستطع السيطرة على ثورته وانفعاله، لذلك حاول أن يتحدث عن شيء جميل ليمتص غضبه ولو قليلًا، فقال لي بعين بها لمعة حب "هل تعلم؟! ليست جميع العيون الزرقاء يسكنها الشياطين، أنا أمتلك متجرًا للحيوانات الأليفة، أتاجر في الكلاب ،خصيصًا الكلاب الهاسكي، بل وأمتلك في منزلي كلبًا هاسكي، لم أرَ في عينه سوى المحبة والرحمة، هو الوحيد الذي لم يتركني في محنتي، وهو الوحيد الذي لم أكره عيونه الزرقاء ".

أصيب جسدي بالقشعريرة من تلك المصادفة العجيبة، ثم أخبرته بعين بها لمعة حب وحنين كما عينه حين تحدث عن كلبه: " لا يمكن أن تكون هذه مصادفة يا رجل، لقد جعلتني أتذكر الصديق الوحيد الذي امتلكته في الدنيا، فلقد كنت أمتلك كلب هاسكي كذلك يدعى

روي، هو الوحيد الذي أحبني بصدق مُنذ أن تكوّنت من لحم وعظام، هذا الكلب أنقذ حياتي في يوم من الأيام، دائمًا ما أتأمل صورته المعلقة على حائط صالة منزلي والتي رسمتها بيدي لأتذكر أن يومًا ما كان لدي صديق وفي حبني بصدق اسمه روي، هل تعلم؟.. عندما أنقذني روي نظرت لعينيه، وتمنيت لو كانت عيناه مكان عيني المرأة التي تركتني لأموت، لأنني أحببتها أكثر منه وأكثر من كل شيء فات في حياتي، عشقتها كما يعشق الطفل أمه تمامًا، ولكن مع مرور الوقت علمت أنني لا يجب أن أحب إنسانًا أكثر من كلب، مع مرور الوقت...".

عقد لساني، ودمعت عيني، قبل أن أكمل حديثي قائلًا بلهجة تعيسة: "كلما اقتربت من البشر زاد حبي لأليفي، فلقد رأيت الإنسانية والرحمة في عين كلبي، أما الإنسان فبإمكانه أن يصبح ككلبي إذا كان ذلك سيخدم مصلحته فقط".

عقد لساني مجددًا، لكني أردت أن أخبره بشيء مهم فتحدثت وقلت: "ألم تتمنَ أن تتبدل عيون زوجتك الزرقاء بعيون زرقاء أخرى لكنها وفية ولا يسكن بداخلها الشيطان، ألم تفكر في هذا مسبقًا مثلما أنا فعلت؟!".

أومأ حكيم برأسه وتأملني بدهشة، ثم قال بنبرة تعيسة كنبرتي: " نعم تمنيت.. فدائمًا ما أنظر إلى كلبي وأخبره (لماذا عيونك الزرقاء وفية ولا تكذب يا صديقي، بينما عيونها الزرقاء لا تمت للوفاء بصلة، أليس من المفترض أن تكون عيناها كعينيك، إذن لماذا هي تركتني وأنت بقيت) ،أقول له تلك الجملة دائمًا لأنني بالفعل تمنيت لو كانت

هي التي بقت معي في محنتي، وكلبي هو من تركني وذهب".

مسحت دموعي، ثم وضعت يدي على كتف حكيم بخشونة، لأقول له بلسان عميق: "سأخبرك بقصة قصيرة يا صديقي، هنالك طفلان، أحدهم اسمه يوسف، والآخر لا أعلم اسمه لكني سأطلق عليه(أصلع الرأس)، هما الاثنان يمتلكان دمية متعلقان بها إلى أبعد حد، لكنهم في ليلة من الليالي اكتشفوا أن تلك الدمية يسكنها روح شريرة بداخل عيونها، وهذا أدى إلى الرعب الشديد من ناحية الطفل يوسف الذي أصبح يخشى حتى الاقتراب منها، أما عن الطفل الآخر(أصلع الرأس) فكان قويًا، لم يكن بحاجة أن يهرب من الدمية بل ظل يواجه تلك العيون التي يسكن بها الشيطان، لقد كره تلك العيون ككره الموت والعمى، وظل الحال على ما هو عليه، حتى لاحظت أمهم نفورهم من الدمية التي عشقوها، بل ولاحظت أن سلوكهم قد تغير بسبب عيون هذه الدمية المرعبة، فما فعلت الأم من وجهة نظرك؟!".

ابتسم حكيم، ربما لأنه علم ماذا أقصد، لكنه أخبرني سائلًا: "ماذا فعلت الأم.. يا أخي".

ضحكت حينما استمعت لكلمة (أخي)، ثم أخبرته بنفس اللسان العميق: "أتت بعينين جديدتين تشبه عيني الدمية تمامًا، ثم قامت باقتلاع عيون الدمية ووضعت العينين الجديدتين مكانهما، حينها أصبح يوسف لا يخشى عيون الدمية، وتلاشى الكره في قلب (أصلع الرأس)، ما رأيك في تلك الفكرة يا.. (أصلع الرأس)؟!".

تحولت ابتسامة حكيم لضحك، ثم قال لي: " أعتقد أنها فكرة جيدة يا...(يوسف)، أخبر أمك بتلك الفكرة لكي تضع عينين جديدتين بدلًا من عيون الدمية".

علمت أنه رفض تلك الفكرة من الأساس، فأخبرته بأسى: " للأسف لقد ماتت أمي منذ زمن بعيد، سأخبرك بسر آخر، لقد كانت أمي وجبة دسمة لكلب في يوم من الأيام".

أخذت نفسًا عميقًا، ثم أخبرته بسخرية " ماذا عن أمك؟! هل هي حية؟! " ليخبرني بلهجة حادة بها إجابة على سؤالي "أمي ميتة أيضًا". ضحكت، ثم أخبرته قائلًا "فلنعد إلى قصة الطفل يوسف وأخيه (أصلع الرأس)، ماذا لو كانت أمهم ميتة هي أيضًا مثل أمي وأمك؟! ما هو الحل المناسب بالنسبة لك؟!".

صمت حكيم، وذلك لأنه يفهم تمامًا ما أشير إليه، لذلك أخبرته بعين ثاقبة قائلًا " كان (أصلع الرأس) هو من سيتكفل بتلك المهمة بدلًا من الأم، لأنه قوي ولا يخشى النظر إلى عيون الدمية الشيطانية".

طال صمت حكيم، لذلك أخبرته "سأكون صريحًا معك، أنا أرى أنك تكملني، فوجودك هنا ليس صدفة يا صديقي، أنت هنا لأنني من سيجعلك تقتلع العيون الزرقاء، وبإمكانك أيضًا أن تبدلها بعيون وفية لا تكرهها كعيون كلاب الهاسكي التي تمتلكها، لن أمانع على الإطلاق، إذا كان هذا ما تريده؟! إذن فهو لك يا رجل!!، يمكنك فعلها في منزلي، عندما أخبرتك أنني من آكلي لحوم البشر لم أكن أمزح، ولكن

لا عليك من كل هذا الهراء، أنا لدي منزل أقتل فيه من تقع العين عليه بداخل المطبخ، سيكون لك، يمكنك أن تستخدم المطبخ نيابة عني، أما أنا فسآخذ استراحة قصيرة بينما أشاهدك تفعلها".

طال صمته أكثر، ثم رأيت الخوف في عينه، فقلت له بنبرة واثقة "لن يرتاح عقلك حتى تقنعه أنك فعلت ما يريد، يحب أن تقتلع العيون الزرقاء لتقنع عقلك أنك أخذت بثأرك من زوجتك يا... ما اسمك؟! ". حينها تكلم أخيرًا، حيث ابتسم بابتسامة مُصطنعة بها رفض لعرضي، قبل أن يخبرني بوجه حاقد " حكيم.. اسمي حكيم".

ليرحل بعدها من الحانة، لكن قبل رحيله قد أعطيته رقم هاتفي وعنوان منزلي أملًا بأن يفكر في عرضي، فشعرت أنه سيأتي لمنزلي لا محالة حتى وإن ظهر عليه عكس ذلك.

وهذا ما حدث بالضبط يا ميرنا، فلقد رأيت بداخل حكيم شخص ستتسخ يده بالدماء لا محالة ولا هروب من ذلك، ففعلت معه كما فعلت معكِ بالضبط، أعطيته السكين ليقتل، أنا من أقنعه بالقتل، وأنا من قام بتحفيز الفكرة وزرعها في رأسه، ولقد فعلت كل هذا لسبب سأخبرك به بعد قليل، أما عن الآن فسأروي لكِ كل شيء عن ضحايا حكيم.

الضحية الأولى..

علمت أنه سيقبل بعرضي ويأتي لقتل ضحيته الأولى، فقمت بجعل المطبخ جاهزًا له منذ أن رأيته في الحانة، لكني لم أتوقع أن تفكيره في عرضي سيستغرق يومين فقط ليقرر أن يأتي ويقتل بل توقعت أيام أكثر.

ففي ليلة ممطرة بعد يومين من اللقاء الأول بيني وبينه عُدت إلى المنزل بعد منتصف الليل كالعادة، ولم أقم بتغيير ملابسي حتى، لأجد أن أحدًا يطرق على باب منزلي، فتحت الباب، لأجد حكيم أمامي ومعه كلب هاسكي مربوط بسلسة حول رقبته ليتبعه، باتت البهجة على وجهي واضحة عندما رأيت الكلب، لكن البهجة قد اختفت حين رأيت من كان خلف حكيم والكلب، وهي العاهرة ليلى التي استطاع حكيم أن يجعلها تأتي إلى منزلي لقضاء ليلة ممتعة معه، حيث إنه دفع الكثير لها لتوافق، خصيصًا بعد ما فعله في آخر مرة.

عندما رأيتها دخلت المنزل وجلست على الأريكة، ثم نظرتُ إلى الأسفل محاولًا تجنب النظر لعينيها، في ذلك الحين ترك حكيم الكلب الهاسكي، ليركض تجاهي ويبدأ في أن يلعب معي ويحرك ذيله يمينًا ويسارًا، داعبته ووضعت يدي أسفل ذقنه، قبل أن يبدأ حكيم في التحدث قائلًا "لم أستطع النوم نتيجة للتفكير في الحديث بيننا، أعتقد أنك محق، لن أرتاح إلا عندما أجعلها تصرخ في المطبخ، أين المطبخ يا يوسف؟!". كدتُ أن أضحك بسبب قدرة حكيم على اللعب

بالكلمات، أما عن ليلى فتعجبت قائلة" مطبخ!! أليس من المفترض أن تقول أين غرفة النوم؟!". ابتسم حكيم، ليحاول بعدها السيطرة على الموقف، فمسك بها من كتفيها برفق، ثم نظر إلى عينيها مباشرة وقال "سنفعلها في المطبخ، شيء جديد أعتقد أنكِ لم تجربيه من قبل؟!".

بعدها بدأت أستمع إلى صوت همهمة غريبة، فعلمت أن نظرة حكيم في عينيها مباشرة جعلته يراها زوجته، وأيقنت أنه على وشك أن يرتكب جريمة، لأخبره بينما أداعب الكلب قائلًا بلهجة بها أمر "ليس الآن، عليك أن تتحكم في نفسك يا غبي حتى يحين الوقت!!". أفاق حكيم مما هو عليه، أما عن ليلى فلقد شعرت بشيء غريب مما قلته، ليمسك حكيم زمام الأمور قائلًا " إنه يتحدث مع الكلب، يوسف يحب الكلاب مثلي!!" ضحكت مما فعله حكيم، لأتحدث بالفعل مع الكلب هذه المرة قائلًا بلسان به عمق "ماذا سيحدث إذا تبدلت عيناك بعيون جميع البشر يا صغيري". تنهدت ثم أكملت حديثي بسخرية:

"أعتقد أننا لن نجد أحدًا يحدثنا عن جنة ونار بعد ذلك!!". غضبت ليلى، فقالت بلهجة بها غيظ "هل لي الحق أن أعلم لما يوسف هنا؟!" ليجيبها حكيم بهدوء قائلًا "يوسف صديقي وهذا المنزل منزله، سينام معكِ بعدما أفعل أنا، لذلك دفعت لكِ الكثير هذه المرة". تعجبت هذا الرجل الذي دائمًا ما يمتلك حجة قوية، حتى إنني كنت على وشك أن أصفق له لكني لم أفعل، فتركت الأريكة وأخبرتهم أن يتبعوني وأخذت الكلب معي، لأذهب إلى غرفة النوم وهم خلفي، ثم فتحت الدولاب لأدل حكيم على طريق المطبخ قائلًا له "ستجد

غرفة في الأسفل، وستجد باب المطبخ في تلك الغرفة، خذ الكلب معك وأتركه في الغرفة ولا تدخله معك المطبخ، لا أحب أن يرى الصغار مشاهد للكبار فقط!!".

قلت الجملة الأخيرة بسخرية حتى لا تشعر ليلى بالقلق، لأنني قد رأيت بالفعل علامات الفزع على وجهها بعدما فتحت الدولاب، ربما تذكرت ليلى جملتي الشهيرة وهي أنني من آكلي لحوم البشر، لكنها أطمئنت قليلًا بعد جملتي ونزلت هي وحكيم والكلب إلى تلك الغرفة التي نجلس فيها نحن الآن يا ميرنا.

لم تتعدَ الدقائق حتى بدأت أستمع لصوت صراخ وأنين ليلى، فأخذت عصا ثقيلة جدًا من الخشب الزان موجودة تحت السرير في غرفة النوم، ثم نزلت لهم الغرفة في الأسفل، لأجد الكلب يقف أمام باب المطبخ المغلق بينما يستمع للأنين والصراخ متعجبًا، لقد علمت أن الكلب متعجبًا عندما رأيت أذنه تتحرك لأعلى وأسفل، بل وبدأ في أن يحرك رأسه يمينًا ويسارًا، لكنه عندما استمع لخطواتي قلت دهشته من صوت الصراخ والألم بالداخل، وأتى ناحيتي ليلعب معي، حينها كنت أمسك بالعصا خلف ظهري لكي لا يراها ويخاف.

وقف الكلب أمامي وبدأ في أن يلعب ويحرك ذيله منتظرًا مني أن أداعبه ليرقص، أما أنا فلقد كنت أعلم أن لا يوجد وقت للعب، فانتظرته حتى تملك منه الملل ونظر بعيدًا، ثم ضربته على رأسه بضربة وحيدة قوية حتى يموت دون ألم، فسقط الكلب على الأرض ميتًا، نازفًا الدماء من رأسه، متعجبًا غدر البشر.

فُتح باب المطبخ، فخرجت ليلى وصارت أمامي، كانت تنزف بالدماء من عينيها الغير متواجدين، تتحرك بعشوائية وتصرخ قائلة "لا أستطيع أن أرى، لا أستطيع أن أرى".

قبل أن تصْطدم بي، وعندما اصطدمت بجسدي بدأت في الصراخ بجنون خوفًا من أن هذا الجسد قد يكون جسد حكيم، فقلت لها بهدوء "أنا يوسف". ثم تأملت عينيها الغير متواجدين بسعادة وبهجة، قبل أن تقول باستغاثة "أنقذني يا يوسف!!".

لم أجبها، بل حملت الكلب الميت ودخلت به المطبخ، وبعدها خرجت من المطبخ وقلت لحكيم "الكلب جاهز، هل أنت جاهز؟!".

ابتسم حكيم بمكر وخبث، ثم سحب ليلى من شعرها ودخل بها المطبخ قائلًا "هيا!! سأضع عينيكِ في مكانهم مجددًا، لا تقلقي أنا طبيب عيون!!". قبل أن يغلق باب المطبخ خلفهم، ليبدأ صوت الصراخ من جديد، وقد ظل عنائها لنصف ساعة، حتى فُتح باب المطبخ مجددًا، لأجدها تخرج منه وهي تصرخ بشدة بينما عيناها تبدلتا بعيني كلب هاسكي، ليخرج حكيم خلفها مباشرة وهو يمسك بيده مشرطًا حادًا.

نظرت إلى العينين الموضوعتين مكان عينيها بتأمل رهيب وسعادة لم أشعر بها من قبل! وذلك لأنني استطعت أخيرًا أن أنظر إلى عيون زرقاء بداخل جمجمة إنسان، فقال لي حكيم "ماذا تشعر؟!". أخبرته بتأثر "أشعر أنني لا أخشى العيون الزرقاء هذه المرة".

لأسأله السؤال ذاته "ماذا تشعر أنت؟! " ليجيبني بصدق "لقد كنت

محقًا يا راجل، أشعر براحة كنت بحاجة لها، أرى زوجتي أمامي لكن بعيون وفية وبريئة".

صرخت ليلى وقاطعت حوارنا قائلة "أنتم مجانين!".

ضحك حكيم بعدما قالتها، ولم ينتظر الكثير ليقوم بذبحها من الخلف بالمشرط الحاد الذي كان في يده، لتسقط ليلى أرضًا على أرضية أصبحت كالنهر من دمائها، ثم راحت روحها تصارع جسدها للخروج منه حتى ماتت.

لم أنتظر كثيرًا بعدما ماتت، فاستعرت من حكيم سيارته التي أتى بها، ووضعت جثة ليلى في حقيبة سوداء كبيرة وأخذتها معي في السيارة برفقة جثة الكلب، ثم دفنت الكلب في مكان بعيد في طريق صحراوي، أما عن ليلى فألقيت بجثتها وهي بعيني كلب هاسكي في مكان قريب من الحانة.

هذا ما حدث مع الضحية الأولى، وبعد ذلك أصبح حكيم صديقي المقرب، لقد تطورت صداقتنا بشكل سريع، فترك حكيم منزله وأتى للعيش معي في منزلي، لم يكن ذلك كل ما في الأمر، بل أعطيته نسخة من مفتاح منزلي، لكن لم تأتي الرياح بما اشتهت سفينتي البائسة، فلقد أصبح حكيم عدو بالنسبة لي، وذلك بسبب ما حدث مع الضحية الثانية والثالثة، والآن سأروي لكِ ما حدث في هذا اليوم.

الضحية الثانية والثالثة..

حينها عدتُ من الحانة إلى منزلي، ثم دخلت غرفة النوم لتغيير ملابسي، لكني عندما دخلت غرفة النوم لاحظت أن الدولاب مفتوحًا، فعلمت أن حكيم في الأسفل، فنزلت لأعلم ماذا يحدث، وعندما نزلت الغرفة في الأسفل وجدت باب المطبخ مغلقًا، ولكن هذا ليس كل شيء، حيث إنني وجدت طفلة صغيرة جالسة القرفصاء على الأرض، واضعة رأسها بين ركبتيها، أكتافها تتحرك لأعلى والأسفل وهذا يعني أنها تبكي، تعجبت واقتربت منها وانحنيت لها، لترفع لي رأسها، فوجدت أن عينيها زرقاوان، لكني لم أخشَ النظر إلى عينيها أبدًا، فظللت أتأمل تلك العيون البريئة بلهفة، قبل أن تبدأ في التحدث ببكاء طفولي وتقول "أمي بالداخل، سمعتها تصرخ، هل هذا الرجل يضرب أمي؟!".

وضعت يدي على خديها لأسمح دموعها، ثم عانقتها بشدة لتطمئن، قبل أن أخبرها بلهجة بها هذا النوع من الحماس الذي يحبونه الأطفال "لا شيء يحدث في الداخل يا صغيرتي، إنهم يلعبون، إنها لعبة غريبة تدعى بلعبة الصراخ، ولابد أن والدتك قد كسبت اللعبة".

ابتسمت لي، لأن روحها الطفولية جعلتها تصدق ما قلت، لتبدأ بالضحك، ثم قالت بينما تمسح دموعها " وهل الكلبان يلعبان معهم، لقد سمعتهم يصرخون أيضًا".

دمعت عيني عندما استمعت لكلمة كلبان وليس كلبًا واحدًا فقط، وذلك بسبب علمي بأنني إذا كنتُ تأخرت لنصف ساعة فقط لم أكن

لأسامح نفسي أبدًا على ما سيحدث لتلك الطفلة البريئة من الألم الذي ستعانيه، ومن الناحية الأخرى انفطر قلبي لأنني أعلم تمامًا أن على هذه الطفلة أن تموت ولا مجال للهروب من ذلك، يجب عليها أن تموت من أجل رحمتها كما فعلت بابني تمامًا، قتلته لأجل رحمته مما هو قادم، ولكن لم تأتِ لي الجرأة على فعلها مرة أخرى، فما كان علي أن أفعل؟!

فُتح باب المطبخ، ثم خرج حكيم منه وملابسه متسخة بالدماء، وكان قادمًا نحو الطفلة الصغيرة، فوقفت أمامه لأخبره بحدة "ماذا تفعل؟! هل ستفعل ذلك مع طفلة؟!".

أخبرني بتعجب وكأنه لا يصدق ما أقول "ماذا!!، ألم ترَ عينيها الزرقاوين؟! ألم ترَ الشيطان في عينيها؟!".

ظهر الغضب على وجهي لكني حافظت على نبرتي الهادئة حتى لا تلاحظ الفتاة أي شيء ولا تخف، ثم قلت له وأنا ماسك بثيابه "انظر أنت إلى عينيها وأخبرني ماذا ترى؟! هل رأيت شيئًا؟! بالتأكيد لا، الشياطين لا تسكن بداخل عيون الأطفال يا أحمق".

حاولت الهدوء، ثم سألته "هل قضيت على أمها وبدلت عيونها؟!" ليخبرني وهو يضحك قائلًا بسخرية مني " هل نظرك بخير؟! أنظر للدماء على ملابسي!".

أومأت له برأسي، قبل أن أستمع إلى صوت الطفلة التي أمسكت بقميصي وهي تقول "أريد أن أرى أمي".

نظرت لها بحزن، وأومأت لها برأسي بإشارة على الموافقة، ثم

أخرجت مسدسي من قميصي وأعطيته لحكيم دون أن تلاحظ الفتاة، فأخبرته "دعها ترى أمها للمرة الأخيرة، وبعدها أطلق الرصاص على رأسها من الخلف دون أن تشعر، لا أريد الفتاة أن تشعر بالخوف أو الألم، بمجرد أن ترى أمها أطلق عليها رصاصة الرحمة من المسدس، أرجوك!!".

أطاع أمري، وأخذ الفتاة ودخل بها إلى المطبخ، الفتاة التي عندما تخطت باب المطبخ ذُهلت، وباتت الصدمة والذعر على وجهها ظاهرين كظهور الشمس في الظهر، حتى أنها تبولت على نفسها خوفًا من قوة المشهد، لكنها كانت قوية، فعندما شاهدت هذا ركضت تجاهي لأنها اعتقدت أنني مصدر الأمان الوحيد، لتخبرني بصوت مرتعب "أمي، أمي مذبوحة، أمي ميتة، وعينيها غريبتان، والكلاب أموات وبدون عيونهم!!".

انقبض قلبي بسبب مظهر ذعرها، فنظرت إلى حكيم خلفها بكره وبغض بسبب أنه لم يقتلها فور رؤيتها لأمها، ولكن هذا المعتوه تحرك أخيرًا وأتى من خلفها وهي تروي لي عما شاهدت، ليطلق رصاصة الرحمة على رأسها، فسقطت الطفلة بين أحضاني ميتة، وتناثرت دمائها على وجهي.

تركت جسدها على الأرض، ثم نهضت ومسحت وجهي بقميصي من الدماء، قبل أن أقول لحكيم بلهجة بها لغة التهديد والترهيب "ستدفع ثمن هذا، أعتبره وعدا!".

ثم أخبرته أن يفعل بالطفلة ما فعله بأمها، وأن يبدل عينيها بعيون

الكلب الهاسكي.

كنت أعلم ماهية أمها بالتأكيد، إنها عاهرة أيضًا تأتي إلى الحانة لتلتقط أي زبون، لكنها عملت كعاهرة لأن ظروف الحياة الصعبة أجبرتها أن تكون أرملة ترعى طفلة مريضة بحاجة لعلاج باهظ الثمن، فلقد كانت الطفلة مريضة بمرض صعب تحمله والتكفل بعلاجه، ولقد أخبرتكِ بهذا مسبقًا يا ميرنا عندما شاهدتِ صور الضحايا، هل تتذكرين؟!.

لا يهم إذا كنتِ تتذكرين أم لا، فالمهم هو أنني منذ ذلك الحين وأنا أعاقب حكيم، بل وأخبرته أن لا يأتي بالمزيد من الضحايا، وأن من سيفعل هذا هو أنا.

وهذا بالتحديد ما جعلني أفعل كل شيء منذ البداية، حيث كنت أستغل حكيم فقط لكي أصل لمرادي يا ميرنا، حكيم هو السلاح الذي انتقمت به، نعم... فمنذ زمن وأنا أراقب أمكِ ولا استطيع مواجهتها بسبب رهابي من العيون الزرقاء خصيصًا عيونها، ولقد قتلني تَتَوُّقي شوقًا للحظة الانتقام ولا أعلم كيف أفعلها، لذلك عندما رأيت حكيم علمت أنه من سيقوم بقتل أمك وليس أنا، هل ترين يا ميرنا؟!.. أنا لست بكاذب؟! أنا لست قاتل أمك، أنا فقط الشيطان الذي وسوس في أذن القاتل ليقتلها، ففي جميع الأحوال كان حكيم سيقتل ولا هروب من هذا المصير، فلماذا لا أستغله وبعدما أصل لمرادي وانتقامي أجعله ضحية من ضحاياي وأطهر روحه من ذنوبه، أو أتركه ليموت معذبًا بألم السرطان، لمَ لا؟!

ففي جميع الأحوال كان سيرتكب الذنوب ويقتل العديد والعديد، وفي جميع الأحوال كان سيصبح أحد ضحاياي إن استطاع الهروب من الشرطة بفعلته، لذلك علمت أن الغاية تبرر الوسيلة، ولذلك قمت باستغلاله للوصول إلى غايتي واشتياقي لقتل أمك، أعلم أنكِ تريدين أن تعلمي لماذا أمك بالتحديد؟! سأروي لكِ القصة بأكملها يا عزيزتي».

الفصل الواحد والعشرون

هاسكي

« سأروي لكِ عن امرأتين، الأولى هي (نادية) أمك، والثانية هي (منال) أمي التي توفي زوجها قبل ولادتي بثلاثة أشهر، وهذا ما جعلها تعاني نفسيًا وتصاب بنوبات غضب واكتئاب قاتلة، بل واعتبرتني من قبل ولادتي أنني نذير شؤم، فلقد علمت أن أمي كانت تحاول أن تقتلني في بطنها قبل أن أولد، لكني أتيت إلى تلك الحياة المُظلمة، وعندما أتيت ولمست الأرض.. نزلت من رحم أمي على يد أمك (نادية).

ربما ستتعجبين سائلة نفسك كيف؟! سأخبرك بالإجابة، قبل موت أبي بأيام قد أخبر صديقه المقرب والعزيز لقلبه أن يكون وصيًا على ابنه القادم الذي هو أنا، وعلى زوجته منال والتي هي أمي، وصديق أبي هذا هو أبوكِ يا ميرنا.

لقد كان أبوكِ يحُب أمي قبل أن تتزوج بأبي لكن قد فرق النصيب بينهما، وذلك لم يمنع والدكِ من تنفيذ الوصية، فنفذ أبوكِ الوصية بأكمل وجه، حيث إنه فور وفاة أبي أخذ أمي وجعلها تسكن معه في منزله.

اتسع منزل أباكِ لأسرتين، فهو عبارة عن منزل ريفي جميل به حديقة واسعة، وبالرغم من أن المنزل صغير بعض الشيء إلا أنه مكوّن من طابق واحد به شقتين، عاشت أمي في شقة منهم، وأسرتك في الشقة الأخرى.

لقد أخرجتني أملكِ من رحم أمي، ومن ثم اعتبرتني ابنًا لها، ما زلت أتذكر وهي تقول لي "أنت ابني ولست ابنها، أنت الفرحة الأولى لي يا يوسف". وذلك لأن أمي اعتادت أن تعاملني بقسوة رهيبة، بل كانت تكرهني كره الشخص لألد أعدائه منذ ولادتي حتى ماتت.

لا علينا!!، فلنكمل قصتنا، عندما خرجت من رحم أمي أخذتني أمك لترعاني في شقتها معها، بل اعتبرتني ابنها الأول والوحيد، فعلمت نادية أن حياتي معرضة للخطر مع والدتي لذلك اعتنت بي وكأنها قد تبنتني، وهذا ما كان يسبب الغيرة والحقد في قلب أمي، التي بالرغم من كرهها لي إلا أنها شعرت كما لو أن والدتك نادية سرقتني منها، فكانت أمي تأخذني منها أحيانًا بدافع الغيرة المطلقة.

ما زلت أتذكر كم العذاب الذي عانيته وأنا مع والدتي، فبالرغم من أنني كنت طفلًا لا أفهم شيئًا، ولا أفهم حتى معنى جملة نذير شؤم التي طالما صرخت بها في وجهي ببغض وكراهية، إلا أنني أتذكر كل ما حدث لي، حتى إنني أتذكر حينما كادت أن تقتلني في مرة، لم أكن أعلم كيف تلك المرأة أمي؟! وكيف أن نادية ليست أمي، فلقد رأيت الحنان والشعور بالدفء والطمأنينة مع نادية أما عن أمي فرأيت كل شيء بشع وبارد منها، فكانت أيامي معها كئيبة كشتاء ممطر في ليلة باردة مرافقة لأصوات الرياح وغضب السماء بالرعد.

لقد أتى في بالي الآن بكائي الناتج عن خوفي ورهبتي من أمي وهي تحمل العصا أو قطعة من الحديد أو ربما سكين أو قطعة من الزجاج لتضربني بدون سبب، ما زلت حين أسرح بعقلي أستمع

لصراخي الذي كاد أن ينهي بحنجرتي على أمل أن تستمع نادية لتلك الصراخات وتأتي لتنقذني من هذه المرأة المتوحشة، ثم تحملني بيدها لأنام على صدرها وتقول لي "لا تخاف يا بُني، أنت بين ذراعي الآن". فيرتاح قلبي من قلقه وذعره بسبب علمي بأنني سأنام بين أحضانها في تلك الليلة، وأنها لم تنم بجانب زوجها، بل ستكون معي طوال الليل لتروي لي عن قصة يوسف الذي سيكبر يومًا ما ويصبح عكازًا لها لأنه قوي، وكنت حقًا متتوق شوقًا أن أنضج وأصبح هذا العكاز.

لقد عشقتها، ولم أستطع النوم إلا وأنا أتأمل عيونها، فعيناها كالملجأ الذي ألجأ إليه بعد يوم قاسٍ، عينيها كالوطن الذي كلما اقتربت منه وتمعنته شعرت بالأمان.

حتى عندما كانت تتركني وتذهب للعمل مع أبيكِ لأنهم كانوا يعملون سويًا في ذلك الحين، لم أشعر بالرهبة ولا الخوف نتيجة لمكوثي وحدي في الشقة، وذلك بسبب أن صديقي الوحيد معي، وهذا الصديق هو الكلب الهاسكي روي.

لم أخف لأن عيني روي يشبهان عيني والدتك كثيرًا، لذلك كنت انظر لهما لكي تظل أمكِ بداخل رأسي طوال فترة غيابها، ولقد أخبرتها بشأن تشابه عينيها بعيني الكلب روي، لتضحك بجنون بعدها، وليضحك قلبي معها لأن ضحكها هذا يجعلني أشعر كما لو أنني أنجزت مهمة عظيمة في الدنيا.

أما عن روي فهو الكلب الذي أشترته نادية لي حتى لا أخاف من

المكوث وحدي بداخل الشقة، لكن هذا ليس السبب الأهم لشراء الكلب روي، فالسبب الأهم هو أن نادية كانت تعلم تمامًا أن أمي تكره الكلاب وتخاف منهم، وهذا يعني أنها لن تستطيع أن تقترب من الشقة التي أتواجد بها لتأذيني أو تضربني طالما الكلب روي معي.

لم يكن روي يحب والدتي إطلاقًا بل أعتبرها عدوًا له، ولم يحب والدكِ أيضًا يا ميرنا لأن والدكِ اعتاد ضربه، لكن ليس هذا هو السبب الوحيد، فالسبب الأهم هو أن والدكِ كره حب نادية المبالغ به لي، فلقد رأيته يتعارك معها عدة مرات، وفي كل تلك المرات دائمًا ما يخبرها أمامي بغضب مُميت قائلًا "أنتِ لست أمه!".

تلك الجملة كانت تجعل قلبي ينفطر ،إنها الجملة التي تجعلني أصيح بداخل قلبي وأصير دامع العينين أمامهم، لأنني تمنيت لو أن نادية هي أمي وليست تلك المرأة التي تعذبني أشد عذابًا، فعلمت أنني سيء الحظ، ثم أخذت أتمنى الموت لكي أولد مرة أخرى من رحم أم مثل نادية أو رحم نادية نفسها.

فلنعد لموضوعنا!! أين توقفنا؟! نعم تذكرت.. توقفنا عند كره الكلب روي لوالدكِ، هيا لنكمل!!

فبسبب عراك والدكِ الدائم مع والدتكِ نادية كره الكلب روي والدكِ، لأنني لست الوحيد الذي اعتبر نادية أمه بل الكلب روي أيضًا اعتبرها أعظم أم له، بل وهي المقربة لقلبه في المنزل بأكمله، وذلك نتيجة لحنانها وعطفها العظيم ورحمتها تجاهه.

هكذا كان الحال حتى أتممت الستة أعوام، ثم أتيتِ أنتِ للحياة

يا ميرنا، لقد أتيتِ متأخرًا جدًا، فلقد ظلوا أمكِ وأباكِ يعانون عند الأطباء ليعلموا سبب تأخر الحمل ولكن روحك دبت في بطن أمكِ في النهاية.

قل اهتمام أمك بي وقتها وزاد اهتمامها بكِ كثيرًا، لم أشعر بتلك الغيرة بل أحببتكِ لأنها تحبكِ، وعشقتكِ لأنها تعشقكِ، وأصبحتِ الأقرب إلى فؤادي مع أمك والكلب روي، بل واعتادت والدتكِ نادية أن تخبرني أنكِ حين تكبرين ستكونين زوجتي، فهذا ما يحدث دائمًا في الأفلام، وذلك لأن عشق الطفولة يكون عشقًا نقيًا غير ملوث ببشاعة الحياة، وهذا ما صدقته، لقد رأيت أنكِ زوجتي حتى وإن كنت لا أعلم ماذا تعني كلمة زواج، هل تعلمين؟! أنتِ أيضًا كنتِ تحبينني، هل تتذكرين أول كلمة تنطقي بها في حياتك بعدما أتممتِ العام ونصف؟!، أنها "يوسف".

كره والدكِ حبكِ لي أيضًا وكأن والدكِ ينزعج عندما يحبني أحدًا، لقد كره بكائك وصراخك المستمر عندما لا أتواجد بجوارك، كاد أن يجن بسبب سحري في كيفية جعلك هادئة ومبتسمة، كاد أن يفقد عقله ليعلم سر النظرة التي انظرها لكِ في عينيكِ مباشرة لتهدئي وتقتحم السكينة قلبكِ، فذلك السر لم يعلمه أحدًا سوى أمكِ، لأن نظرتي لكِ التي دائمًا ما جعلتك تبتسمين هي ذاتها النظرة التي طالما انتظرتها من أمك لأطمئن وتمر البهجة لقلبي، حتى إن أمك بدافع حبها لنظرتي لكِ قامت بالتقاط صورة لي أنا وأنتِ ونحن نحدق ببعض مباشرة بينما أحملكِ بيدي، ربما لا تعلمين هذا، فالتصوير هو جزء من هوايات والدتكِ كالرسم تمامًا، فمن زرع في قلبي حب

الرسم هي أملكِ يا ميرنا، وأنا أكاد أن أجزم أن أملكِ زرعت حب الرسم في قلبكِ أنتِ أيضًا!!

لكنها عشقت التصوير، وعشقها للتصوير جعلها ماهرة في ذلك، أتذكر عندما حاولت أن أقلدها وأقوم بالتصوير، فقمت بالتقاط صورة رأتها أملكِ جميلة، هذه الصورة ما زالت محفورة في ذاكرتي حتى يومنا هذا.

أنتِ تعلمين هذه الصورة يا ميرنا... فهي صورة الكلب روي الذي بدا وكأنه ملتقطًا صورة سيلفي لنفسه، لكن لم يكن الكلب روي فقط من في الصورة، بل والدتكِ أيضًا بجانبه، ولم يظهر سوى وجوههم بينما التشابه بين عينيهم واضح جدًا.

نعم... هذه الصورة هي الرسمة المعلقة دائمًا في صالة منزلي أعلى التلفاز، لقد رسمت نصف الصورة فقط، ولم أستطع أن أرسم ما تبقى منها بسبب رهابي من العيون البشرية الزرقاء، والآن حان الوقت لتعلمي ما سبب الفوبيا التي أصابتني تجاه العيون الزرقاء.

***

في ليلة من الليالي كان عمري ثمانية أعوام وعمركِ عامين، كنت نائمًا بجواركِ أنتِ وأملكِ مثلما هو الحال منذ ولادتك، فلقد اعتاد ولدكِ أن ينام على الأريكة في الصالة لأنه لم يحتمل صوت بكائك أو صراخكِ.

في تلك الليلة استيقظت مفزوعًا من النوم بسبب كابوسًا أتى لي، وزيادة على ذلك فبرودة الطقس والأمطار الغزيرة التي تهطل من

السماء برفقة ضوء البرق وصوت الرعد الذي يرتجف بدني حين أسمعه أزادوا من هلعي سوءًا، لكن ليس الرعد وحده ما أخافني حين استيقظت.

حيث استمعت لصوت صراخ قادمًا من الشقة المجاورة التي تعيش فيها أمي، حينها اعتقدت أن أمي قد أصابتها حالة الجنون التي تأتي لها دائمًا، لم أهتم وحاولت النوم مجددًا، لكن مع مرور الوقت راح صراخها يعلو، فنهضت من السرير وجلست على كرسي في الغرفة لأتأملك أنتِ وأملكِ، قبل أن يزداد صوت الصراخ ويصير أسرع وأعلى مما هو عليه وبات مرهقًا للأعصاب.

زادت قوة رهبتي وانزعاجي، ورغم خوفي من أمي إلا أنني أصابني الفضول لأعلم ماذا يحدث، وهذا هو فضول الأطفال، حيث يقتربون دائمًا من كل شيء يضرهم لأن روح الاستكشاف تسيطر عليهم، فنهضت عن الكرسي، ثم أخذت أتحرك ببطء لأخرج من الشقة وأذهب إلى شقة أمي دون أن يلاحظني أحدًا، وعندما خرجت من الغرفة لاحظت أن أباكِ غير متواجد في الصالة لكني لم أبالِ وأكملت طريقي.

خرجت من الشقة وذهبت باتجاه باب الشقة الأخرى، فوجدته مردودًا وليس مغلقًا بإحكام وذلك أمكنني من الدخول بسهولة، وعندما دخلت شقة أمي استمعت لصوت صراخها قادمًا من غرفة النوم، فأسرعت متحركًا لغرفة نومها، لأراها عارية نائمة على السرير، لم تكن وحيدة، بل أباكِ معها على نفس السرير يا ميرنا، لقد كان عاريًا هو كذلك ونائمًا فوقها، أنتِ بالتأكيد تعلمين ماذا كانوا يفعلون،

لقد كانوا يمارسون الجنس، أما أنا فلم أفهم شيئًا حينها.

كنت أنظر لهم وأنا واقفًا خلف باب غرفة النوم بذهول ودهشة مما رأت عيني، صُدمت وفتحت فمي على آخره بتعجب، ارتعش جسدي هلعًا مما أراه، فبحركة لا إرادية فعلتها يدي رغمًا عني وصُدِمت في الباب، ليلاحظوا أن هنالك شيئًا غريبًا، انتفض جسدي خوفًا، فتحركت للخارج مسرعًا قبل أن يراني أحدًا، وعدت إليكِ أنتِ وأمك، ثم ألقيت بجسدي بينكم كما لو أنكم درعي الذي احتمي به.

ظل ذهني مشتتًا مما رأت عيني، لم أنم طوال الليل بسبب تفكيري المستمر في محاولة تفسير ما رأيت، وعندما أتى الصباح أخبرت نادية والدتكِ بما شاهدت لكي أفهم ما هذا الشيء الذي حدث أمامي، لكني لم أستفد شيئًا، لقد زادت دهشتي لسبب آخر وهو أن والدتك شعرت بالصدمة وأصيبت بالذهول كذهولي تمامًا، ومن ثم بدأت في أن تنكر ما قلته لها وتخبرني أنه مجرد حلم أو كابوس بلسان متلعثم، ربما حينها لم تنكر المشهد لعقلي أنا حتى لا أصدق ما رأيت، بل كانت تنكر المشهد لعقلها هي حتى لا تصدق ما استمعت من كلمات تفوهت بها.

ظلت تائهة طوال اليوم، تفكر فيما قلت، تنظر لي من حين لآخر لتخبرني بنبرة بها قلق شديد وتقول " إنه مجرد كابوس". تلتف حولها، وبات البؤس ظاهرًا على وجهها، تبتلع لعابها من حين لآخر، تسرح لعالم آخر بعقلها وكأنها غير متواجدة في عالمنا، وكلما سرحت وسافر عقلها إلى ما لا أدريه ابتل جبينها عرقًا، وكلما اقترب منها زوجها نفرت منه كما لو أن هنالك شيئًا بداخلها صدق كلامي، وهكذا

ظل حالها حتى أتى الليل ونام الجميع.

ليبدأ صوت صراخ أمي مجددًا من الشقة الأخرى وفي نفس الساعة بالضبط، حينها كنت نائمًا ومتشبثًا بكِ يا ميرنا، فبدأت أشعر بهزة على السرير، فتحت عيني ببطء، لأجد أمك التي لم تنم طوال الليل تنهض من السرير، لتراني مستيقظًا فتحدق بي وتخبرني بحدة لم أراها منها من قبل "نام!!".

ثم خرجت من الغرفة، لقد استمرت عشر دقائق في الخارج حتى عادت، وكان صوت الصراخ لم يهدأ، فجلست أمكِ بجواري وهي في حالة صدمة لا مثيل لها، ولاحظت أنني مستيقظ، لتخبرني بسخرية حزينة ونبرة بها غمة ملحوظة "هل تتذكر الكابوس الذي أخبرتني به في الصباح؟!" أومأت لها برأسي، لتضحك بجنون وتقول "لقد رأيت هذا الكابوس الآن".

زاد ضحكها، فضحكت أنا أيضًا مبادلًا لضحكها، ثم أخبرتني بأمر أن أنام، بينما ظلت هي مستيقظة، لم أنم، بل حاولت تمثيل ذلك، فقط أغلقت عيني لأنني لم أستطع النوم وهذا بسبب ما كان صادرًا من والدتكِ من أصوات، فلقد ظلت تهمهم وتتكلم بصوت غير مسموع، ثم نهضت من مكانها وتحركت تجاه التَسريحة أمام السرير، لأنهض أنا أيضًا بفضول لكي أرى ماذا تفعل، فشاهدت نظرة مرعبة صادرة من أمكِ من خلال انعكاسها في المرآة، وكانت هذه المرة الأولى التي أخاف فيها من عيون أمك، قبل أن تلتفت بنفس النظرة فجأة للسرير، لأقوم مسرعًا بتمثيل دور النائم مجددًا من قوة ما أصابني من فزع وارتياب.

ربما صدقت أمك أنني نائم، فخرجت من الغرفة، لأنهض وأخرج خلفها بحذر، فرأيتها تذهب إلى المطبخ وتمسك بسكين، ثم خرجت من المطبخ بأقدام مرتعشة وذهبت إلى شقة أمي، انتظرتها حتى تدخل الشقة ثم دخلت خلفها، فوجدتها تدخل غرفة النوم، تحركت مسرعًا لأقف خلف باب غرفة النوم حتى أشاهد ما سيحدث، ويا ليتني لم أرَ شيئًا.

فما حدث هو أن أمك نادية تسللت خلفهم وهم نائمون سويًا، ثم طعنت أباكِ من الخلف بطعنة اخترقت جمجمته، ليجن جنون أمي، فتنهض من السرير وهي عارية وغارقة بالدماء التي تناثرت على جسدها في محاولة منها أن تدافع عن نفسها، ونتيجة لفرز كمية لا مثيل لها من الأدرينالين في جسدها سحبت السكين من جمجمة والدكِ وكادت أن تطعن أمك في صدرها، ارتجف قلبي حينها ذعرًا وقلقًا على أمك، وتمنيت من قلبي أن تنتصر نادية في المعركة، فتحققت أمنيتي ولكن ليس بفضل قوة نادية، بل بفضل الكلب الهاسكي روي الذي لا أعلم من أين أتى، فقبل أن يلمس طرف السكين صدر أمك كان روي قافزًا على أمي ليقتلها، لقد أمسك حنجرتها بفمه حتى أخرج حنجرتها بالكامل من رقبتها، لتموت أمي بجانب أبيكِ وتسقط بجواره على السرير الذي أحمر لونه نتيجة لغزارة الدماء.

لا أستطيع أن أصف لكِ الهلع الذي ظهر على وجه أمك، لقد وضعت يدها على رأسها وفتحت فمها على آخره وهي تنظر إلى زوجها وأمي، لم تكن تصدق أنها فعلت هذا، حتى راحت تضرب رأسها

بيدها، ومن ثم تقرص نفسها على أمل أن يكون كل ما يدور هو مجرد كابوس، ثم تضع يدها على الجثث لتجد أنهم أموات فتُصدم وتحاول الصراخ، وبعدها تضع يدها على فمها في محاولة منها أن تحبس صراخها.

ظل جسدها يرتجف بقوة، ويدها تنتفض كما لو كانت واقفة على قمة جبل من الثلج، فسقطت على الأرض جالسة ساندة ظهرها على طرف السرير، ليجلس بجوارها الكلب روي في محاولة منه أن يلعب معها أو أن يجعلها تشعر بالطمأنينة ولكن لا حياة لمن تنادي، حيث ظلت ساكنة تمامًا ولا تشعر بما يدور حولها، وكأن عقلها قد ذهب لمكان لا تدريه مع أروحهم، لقد بدت كما لو أنها لم تكن هي المسيطرة على نفسها عندما قتلت أباكِ، بل وكأن شخصًا آخر هو من تحكم بها لترتكب تلك الجريمة، ولم تفق مما هي عليه إلا عندما اخترق صراخكِ أذنها.

نعم.. لقد أفاقت أمكِ مما هي عليه فقط عندما استمعت لصوت صراخكِ يا ميرنا، حينها نظرت لخارج غرفة النوم بلهفة وقالت: "ميرنا!!".

أصاب قلبي الفزع وعدت إليكِ ركضًا، ثم نمت بجانبكِ وتشبثت بكِ، لكن ليس لتشعري أنتِ بالأمان هذه المرة، بل لأشعر أنا بالأمان، وعلى كل حال فهذا لم يجدِ نفعًا، فلقد تبولت في سروالي ذعرًا مما شاهدت بينما كنت نائمًا بجواركِ.

مرت نصف ساعة، ثم دخلت أمكِ الغرفة، لقد كانت نظيفة دون أي

دماء على جسدها أو ملابسها وكأنها لم تقتل أحدًا، تعجبت ما رأيت وراحت أنفاسي تتسارع، قبل أن تلاحظ أمكِ تعجبي هذا ووجهي المذعور وكأنه مخطوف لمكان آخر، لتقترب مني ببطء، قبل أن ترى سروالي المبلول نتيجة لتبولي خوفًا، فمسكت يدي بقسوة وسألتني بنبرة عنيفة "هل رأيت شيئًا؟!".

أجبتها مسرعًا بأنفاس سريعة كسرعة إجابتي "لا، لا، لم ارَ شيئًا".

حدقت بعيني لتعلم إذا كنت كاذبًا أم صادقًا، قبل أن تعانقني بشدة وتقبلني في رأسي، ثم راحت تربت على كتفي لكي أنام، لتتركني بعدها وتحملكِ أنتِ بين ذراعيها، لتغني لكِ أغنية (أمورتي الحلوة) التي عادة ما كنتِ تهدئين حين تغنيها لكِ أمكِ، لتنامي بعدها، ثم راحت أمكِ في النوم، أما أنا فقد أثر مفعول الأغنية علي كذلك، ليخطفني النوم معكما.

لا أعلم كيف نمنا نحن الثلاثة كالمخدرين، لكن ما أعلمه جيدًا أن هذه كانت المرة الأخيرة التي أنام بها في سلام، لأن ما حدث بعد ذلك هو عبارة عن أربعة أيام في الجحيم.

فكانت تلك الأيام عبارة عن سكون تام، ففي كل ليلة منهم تذهب أمك برفقة الكلب روي إلى شقة أمي المتواجد بها الجثث، لم أعلم حينها ماذا فعلت أو ماذا ستفعل، لكني علمت في اليوم الثالث، حين أتبعتها متسللًا أثناء الليل لأدخل الشقة خلفها، فوجدت باب الشقة مغلقًا بإحكام، لقد غلقته أمك من الداخل، لم أستسلم، فكاد الفضول أن يقتلني، لتأتي على خاطري فكرة جهنمية، وهي أن أخرج للحديقة

وأحاول التسلق قليلًا حتى أصل إلى الشرفة الخاصة بغرفة النوم في شقة أمي، وبالرغم من أنني كنت قصيرًا إلا أنني استطعت فعلها بفضل مرونة جسدي وصعدت.

وعندما أصبحت في شرفة غرفة النوم ألقيت بنظري عما يحدث بالداخل، فوجدت مشهدًا ما زال يزورني في أحلامي، حيث إنني رأيت الجثتين نائمين على السرير، ونصف أمي الأسفل غير متواجد كلحم وجلد، ومتواجد فقط الهيكل العظمي، بل وأمعائها ساقطة من خصرها الغير متواجد أيضًا، أما عن نصفها الأعلى فكان متواجدًا بالكامل كلحم وجلد وعظام ولم يمسه شيء، وبالنسبة لأبيكِ فكان نصفه الأسفل غير متواجد أيضًا وبدا كما هو حال أمي بالضبط ولا يختلف عنها بشيء.

ليس هذا فقط ما أدهشني، فما دب الرعب بداخل قلبي حقًا هو مشهد آخر، فلم تتعدَ الثواني منذ رؤيتي لمشهد الجثث حتى رأيت أمكِ تمسك السكين بيدها، ثم راحت تقطع من صدورهم هما الاثنين على حد سواء، قبل أن تضع قطع اللحم البشري على الأرض أمام الكلب روي الذي كان واقفًا بجوارها، ثم أمرته أن يأكل، لقد رفض روي في البداية أن يأكل، فأخذت أمكِ تصيح في وجهه بصيحات دامية حتى دمعت عين روي، ثم مسكته بقسوة من رأسه وقالت له بأمر " لا ترهقني يا روي مثلما تفعل كل يوم، عليك بأكل اللحم". ليبدأ روي في العواء، لكن عوائه كان حزينًا، فما كان بيد قليل الحيلة بعدها سوى أن يأكل من اللحم الذي أمامه بعين باكية وقلب غير راضي عما يفعل!!

هذا المشهد جعل فرائصي ترتعد، فأمسكت بأنفي حتى لا تنصت لأنفاسي التي راحت تتسارع، ولأنني لم أطق الرائحة كذلك، أردت النزول مسرعًا لكي لا أرى شيئًا آخر، لم أكن أريد أن أشاهد شيئًا جديدًا يجعلني أخاف من أمك أكثر مما أخافها لأنني أحبها، لم أكن أريد أن أصدق أن من فعل كل هذا هي أمك.

حاولت العودة والقفز من الشرفة للحديقة، ولكن خوفي جعل من قفزتي فاشلة، فسقطت أرضًا، ليشعر الكلب روي بسقوطي، ثم يبدأ في العواء بقوة مما جعل أمك تشعر أن هنالك شيئًا غريبًا يحدث، فخرجت لتلقي بنظرة من الشرفة بينما أنا كنت مختبئًا بطريقة غبية بين الزرع في الحديقة، وبالرغم من اختبائي المضحك هذا إلا أنها رأتني وحاولت أن تمثل أنها لم ترَني.

عدت إليكِ مسرعًا يا ميرنا، ألقيت بجسدي بجوارِكِ، وتشبثت بكِ مجددًا من قوة الصدمة والذعر الذي احتل كياني، فلقد أردت أن أشعر بأي شيء حي، أردت أن أستمع لأنفاس خارجة من أنف بهواء ساخن يجعلني أشعر أن ما زال هنالك حياة في هذا المنزل الذي بات مسكنًا للأموات.

لم تتعدَ النصف ساعة حتى عادت أمكِ إلينا وتركت شقة أمي، لقد كانت نظيفة للغاية كما لو أن الدماء لم تلمس جسدها منذ قليل، وكأنها تستحم وتنظف ملابسها قبل العودة لنا مباشرة، جلست بجوارنا على السرير، ثم نظرت لي بنظرة حادة وقالت بعنف "يوسف!! هل...".

بتلقائية وعفوية وغباء مني أجبتها مذعورًا "لا.. لا.. لم أرَ شيئًا".

تعجبت أملكِ ردي، بل علمت أنني رأيت كل شيء، لتخبرني بعين حزينة "هل أنت خائف مني؟!" في ذلك الحين بدأت أبكي، وكنت أريد أن أرتمي في حضنها لكني خفت، لتمسك هي برأسي وتضعها على صدرها قائلة "أنا آسفة يا بني، هيا... يجب أن تنام، لا تقلق!! سينتهي كل شيء قريبًا !".

لم أكن أعلم ما سينتهي قريبًا، لكن قلبي قد شعر بالطمأنينة ولو لوهلة، فبالرغم من خوفي منها إلا أن عقلي رافض فكرة أنها ليست مصدر الأمان، فوضعت رأسي على الوسادة وحاولت أن أغلق عيني لكني خشيت الظلام، لأستمع إلى صوتها الحنون وهي تخبرني بنبرة ربتت بها على قلبي قائلة "تذكر!! كل شيء عبارة عن كابوس، أنت تحلم!!".

أومأت لها برأسي مبتسمًا محاولًا أن أقنع نفسي أنها محقة، قبل أن تبتل وسادتي بدموعي، ويبتل السرير ببولي، لأنني في كل ليلة منذ أن رأيت الجريمة وأنا أتبول على نفسي خوفًا، لكني استطعت النوم على أمل أن ينتهي كل شيء قريبًا مثلما قالت أملكِ.

وبالفعل كانت أملكِ محقة، فلقد علمت بعدها ما سينتهي قريبًا، بالتحديد في الليلة الرابعة والأخيرة، حين خرجت أمك مجددًا لتذهب إلى الشقة المتواجد بها الجثث، ترقبتها متربصًا حتى تأكدت أنها خرجت وذهبت إلى الشقة الأخرى، ثم نهضت من السرير لأذهب وأرى ماذا ستفعل، لا أدري ما الذي يسحبني لهناك، كما لو أنه يوجد

مغناطيس يشدني ناحية مكان الجثث بالرغم من أن ما أراه مروعًا.

خرجت إلى الحديقة وتسلقت مجددًا لشرفة غرفة النوم المتواجد بها الجثث، لأجد أن الجثث هذه المرة عبارة عن هياكل عظمية فقط ولا يوجد بهم سوى رؤوسهم هي الكاملة بلحم وجلد وعظام وملامح، لكِ أن تتخيلي أن إنسانين أمامكِ، أجسادهم عبارة عن هياكل عظمية ولكن رؤوسهم وملامحهم كاملة كما هي ولا يوجد أي شيء يختلف عن رؤوسهم مثلما اعتدتِ أن تريهم وهم أحياء سوى أن لون بشرتهم بدت كما الأموات الذين فات عليهم الكثير ولم يُدفنوا، زيادة على ذلك فكان الذباب يطير حولهم ليمتص الدماء الخارجة مما تبقى منهما ليتغذى هو الآخر كما أكل الكلب روي من لحومهم، أنه مشهد فظيع أليس كذلك؟!. لا يهم... فلم يطل هذا كثيرًا، لأن أمكِ بدأت في أن تسلخ وتقطع جلود ولحوم رؤوسهم، قبل أن تعطي ما قطعته لروي الجالس بجانبها رغمًا عنه.

بالطبع قام روي بأكل آخر ما تبقى من لحومهم وجلودهم رغم أن صوته ووجهه ظهر عليهما الرفض اليائس لما يفعله، لكنه بداخل قلبه قد علم أنها المرة الأخيرة التي سيأكل فيها لحم بشرى، فلم يتبقَ شيء سوى الهياكل العظمية المزينة بالدماء فقط.

وبالرغم من أن مشهد الهياكل العظمية أرهبني مثلما أرهبني كل شيء، إلا أنني سألت نفسي "كيف ستخفيهم؟!" لتجيب أمكِ على تساءلي بعدها بما فعلت، فاستطاعت أن تتخلص من عظامهم كما تخلصت من لحومهم، حيث خرجت من الغرفة وعادت بمطرقة كبيرة، ثم بدأت في تحطيم الهياكل العظمية لأمي وأباكِ، وبعدما

حطمتهم بدأت في أن تطحنهم حتى أصبحوا كحبوب الملح الناعم، لقد استغرق كل هذا حوالي أربع ساعات فقط، لتبدأ بعدها في تنظيف الغرفة، وتصبح الغرفة كما لو لم يحدث بداخلها شيء، إنها الجريمة الكاملة، فلا يوجد أي دليل إدانة لها أو أي شيء يشير على وجود ضحايا في تلك الغرفة.

وبعدما انتهت أملكِ مما تفعل أخذت تجهز للرحيل من الشقة والعودة لنا، ارتعبت، فقفزت مسرعًا من الشرفة للحديقة لكي أعود إلى السرير بجانبك وتمثيل النوم، لكني بينما كنت داخل من باب الشقة التي نمكث فيها نحن خرجت أمك من الشقة الأخرى، لتراني قبل أن أدخل إليكِ، فقامت بالمناداة علي بلهجة بها قساوة وغيظ، خفت منها وركضت عائدًا إلى السرير بجانبكِ، وتشبثت بكِ مجددًا يا ميرنا وكأني أستنجد بكِ لتنقذيني منها.

مر نصف ساعة كالعادة حتى عادت أملكِ إلينا، وقد كانت نظيفة كما حال كل مرة تعود لنا من شقة أمي، لكنها كانت غاضبة للغاية، اقتربت مني ثم أمسكت بي وأنا بجانبكِ قائلة بلهجة بدت كما لو أنها ستعاقبني على شيء ما "أعلم أنك رأيت كل شيء منذ البداية يا يوسف، فلا تركض مني حين أنادي عليك".

زاد خوفي منها، فزاد تشبثي بكِ، لتبدأ في أن تبادل أنظارها بيني وبينك وكأنها تقارن بيننا، لتقوم بعد ذلك بوضع يدها على رأسي وتقول لي بحنان "هل تحب ميرنا؟!".

بكيت ثم أومأت برأسي وأخبرتها "نعم.. وأحبكِ أنتِ أيضًا".

ثم بدأت التشنجات ترافق بكائي وقلت "لكني أخاف منكِ". زاد بكائي أكثر مما هو عليه وقلت بصوت منكسر ووجه متحسر على ما يحدث "وأكره كوني خائفًا منكِ".

لتبادلني البكاء، ثم تضمني إلى صدرها وتربت على رأسي من الخلف قائلة بحسرة تبادل حسرتي "لا تصعب الأمر علي يا بني!".

تنهدت نادية بنهدتين، ثم قالت بينما رأسي على صدرها "هل تعلم أن فضولك سيكلفني الكثير، سيكلفني عذاب عظيم، عذاب أكثر مما أنا عليه الآن، عذاب أبدي سيظل معي حتى أموت يا بني، لم يكن عليك أن ترى ما حدث".

صمتت قليلًا، ثم أخبرتني "أنظر لميرنا، هل تعلم أنك خطر عليها الآن؟! قلت لك، لم يكن عليك أن ترى ما حدث".

زاد بكائها لتكمل حديثها "هل تعلم أنك خطر علي أنا أيضًا، ما رأيته بإمكانه أن ينهي حياتي، هل تعلم ماذا سيحدث لميرنا إذا انتهت حياتي؟!".

لم أفهم حينها ماذا تقصد؟! وكيف أنا خطر على حياتها!!، رغم أنني مع مرور الوقت فهمت ماذا قصدت حينها، لقد خافت أن أبوح بما رأيت لأي أحد، لقد فهمت حينما كبرت لماذا ارتعبت، وفهمت أنها في ذلك الحين وضعتني في مقارنة ظالمة بالنسبة لي، وتلك المقارنة هي بيني وبينكِ يا ميرنا، فلقد كانت تقارن بين حبها لي وحبها لكِ.

سألتها بتعجب وفي داخلي شعور بأنني سيء بسبب كوني خطرًا عليكما، فقلت باكيًا والذنب يأكل فؤادي "ماذا أفعل لكي لا أكون

خطرًا عليكما؟!". لتنظر إلي بابتسامة مزينة بالدموع بينما تمسك خدي بلطف قائلة" نام على السرير، وأنظر إلى السقف وأغلق عينيك".

نفذت أمرها وفردت ظهري على السرير، ثم أغلقت عيني، وظللت منتظرًا لعدة دقائق ولا شيء يحدث، لذلك قمت بفتح عيني لوهلة، فوجدتها أمام وجهي مباشرة، تمسك في يدها نفس السكين الذي قتلت به أباكِ، لقد كانت على وشك أن تقتلني، بل ونظرتها التي أرعبتني سابقًا عادت وجعلت عيني تتسع إلى آخرها وجسدي يرتجف هلعًا وحزنًا مما أرى، فأنا لم أتوقع أبدًا أنها تريد قتلي، فصُدم قلبي سائلًا كيف؟! كيف العيون التي كانت بالنسبة لي مصدر الأمان أخشاها الآن؟!

عندما رأتني فتحت عيني تحولت نظرتها الشيطانية لنظرة بها حزن، ثم أخذت تبكي وتقول بنبرة بها تعاسة وخيبة أمل "لا أستطيع!!، لا أستطيع!".

سالت دموعها على وجهي، قبل أن تلقي بالسكين جانبًا، أما أنا فمسكت بكِ بقوة يا ميرنا وأنتِ بجانبي، وذلك من قوة فزعي مما حدث أو ما سيحدث، مما جعلك تستيقظين من نومك، ثم تضحكين حين وجدتي أنني بجانبكِ، لكني لم أضحك في وجهك كالعادة بل أخذت أحدق بكِ خوفًا من أن تلمح عيني أمكِ التي راحت تحطم كل شيء حولها، ثم بدأت تقول لي بغضب يساوي الجحيم في قوته "أمك كرهتك، لما علي أن أحبك؟! أخبرني لما علي أن أحبك!!، أنت لست ابني!!".

حاولت ألا أنصت من قوة تأثير تلك الكلمات على قلبي، فوضعت الوسادة فوق رأسي لكي أمنع أذني من أن تتلقى هذه الجملة المميتة، وبالرغم من ذلك ظللت أعانقكِ، قبل أن تقرر أمك أن تفارقيني إلى الأبد يا ميرنا.

فما حدث بعد ذلك هو أنني شعرت أنها تسحبك مني، تشبثت بكِ بعنف ولكنها استطاعت أن تأخذكِ من يدي، فقوتي لم تستطع أن تضاهي قوتها، وعندما سحبتكِ بالكامل لم يتبقَ في يدي منكِ سوى رابطة الشعر التي كانت في رأسك، إنها رابطة الشعر التي هديتك بها يومًا ما حين كنتِ رضيعة، والتي عشقتيها كثيرًا حتى أصبحت أمك تربط بها شعرك دائمًا، نعم.. إنها رابطة الشعر نفسها التي كنت أرتديها كالخاتم في اليوم الأول الذي رأيتِ فيه وجهي بداخل الحانة، والتي أهديتها لكِ مجددًا كما حدث في الماضي البعيد، فأنا أرتديها في إصبعي منذ اليوم الذي سحبتك أمك من بين يدي ليصبح اليوم الأخير لنا سويًا.

فعندما أخذتكِ أمك مني قامت بحرق المنزل بأكمله، ثم قامت بالمناداة على الكلب روي وتركتني وحيدًا، لقد أخذتكِ أنتِ والكلب للهروب من النيران، وقبل ذلك قد أغلقت جميع نوافذ وأبواب المنزل حتى لا أستطيع الفرار، ما زلت أتذكر عندما كادت أن تخرج من المنزل، حين نهضت من السرير مسرعًا وشاهدتها ترحل وتحملك على كتفها وبجانبها الكلب روي، فقلت لها بعدما أجهشت بالبكاء " لا تتركيني، لا تجعليني أكرهك مثلما كرهت أمي!".

لم تلتف لي، بل قالت "آسفة يا بني". وبعدما قالت تلك الجملة التفتت لي وأكملت حديثها قائلة "يجب أن تموت!! ". نظرت إلى عينيها بذهول للمرة الأخيرة، وفي تلك اللحظة قد أيقنت أن تلك العيون ليست العيون ذاتها التي عشقتها، بل عيون يسكن بداخلها شيطانًا مخيف، وهي العيون ذاتها التي رأيتها بينما كانت تقطع من لحم أمي وأباكِ وتطعم اللحم للكلب روي.

أما عن الكلب روي فهو من شعر بالأسى تجاهي، حيث التفت لي وتأملني بتلك النظرة التي رأيتها دومًا في عينه عندما كنت أتعرض للضرب من أمي، تلك النظرة المشفقة علي، أما عنكِ يا ميرنا فلقد مددتِ لي يدك ونطقتِ بنفس الكلمة التي تفوهتِ بها عندما قلتِ أول كلمة في حياتكِ، حيث نظرتِ لي بلهفة وناديتِ باسمي قائلة "يوسف".

تهاطلت الدموع من عيني، لأنني تذكرت حين كنت أعلمكِ الحديث، ونطقتِ بالكلمة الأولى لكِ والتي هي " يوسف"، تذكرت فرحة أمكِ حين تحدثتِ للمرة الأولى ناطقة باسمي، فانفطر قلبي حزنًا، وذلك خوفًا من أن تكون هذه آخر مرة استمع لاسمي منكِ.

ذهبتم جميعًا، وظللت وحيدًا بداخل المنزل بين النيران التي بدأت في أن تحرق كل شيء حولي، أخذت أصرخ على أمل أن تعود أمك وتأخذني معكم ولكنها لم تعد، بدأت في النداء عليكم واحد تلو الآخر ليستمع لي أحد ولكن صوت النيران كان أعلى من صوتي، فلم يلبِ أحد النداء إلا عندما صحث بأعلى صوت قائلًا "روي".

لأستمع إلى عوائه من بعيد ولكنه لم يأتِ أيضًا.

أصابني اليأس، فجلست القرفصاء على السرير منتظرًا النيران التي أصبحت في كل مكان حولي أن تمسك بالسرير وتحرقني معها، ظللت صامتًا رغم عنائي، هادئًا رغم الغضب العارم بداخل قلبي، صامدًا رغم ضعفي، أتأمل رابطة الشعر في يدي، قبل أن ألبسها في أصبعي كالخاتم حتى لا تهرب مني مثلما فعلتم أنتم، لتتساقط دموعي حسرة على حظي بينما أتذكر أنني كان لدي عائلة مكوّنة من اثنين، واحدة تدعى ميرنا والأخرى نادية التي تركتني لمصرعي، فوضعت رأسي بين ركبتي الاثنين في حالة استسلام تام للموت.

في تلك اللحظة علمت أنني مرفوض من كل شيء حتى الموت ذاته، وذلك لأنني استمعت لصوت عواء روي قريب مني، فرفعت رأسي متلهفًا، لأرى عينيه الزرقاوين يلمعان ويشعان نورًا منهما وسط النيران، لقد هرب من أملِ ليأتي وينقذني، اقترب مني وأحزنه يأسي، ليبدأ في أن يسحبني بفمه من ملابسي محاولًا إنقاذي وإخراجي من المنزل المحترق المُقبل على الانهيار، بدأت أتحرك معه مسلوب الإرادة، فلقد علم روي أن أملِ قد نست أن تغلق نافذة من النوافذ، وهذه النافذة هي التي دخل منها، لكننا عندما وصلنا إلى النافذة كانت النيران قد أكلت كل شيء حولها حيث لم نستطع الخروج أبدًا.

بدأت النيران تلتف حولنا، وبدأ روي يلتف حولي ويعوي بقوة أمام النيران وكأنه يتعارك معها ليحميني منها، وعندما اشتدت النيران بطريقة تقول لنا أن لا هروب من الموت، قرر روي أن يموت وحده،

حيث أصبح كالغطاء بالنسبة لي، فقفز علي لأسقط على الأرض، ثم نام فوقي حتى يحترق هو بدلًا مني وأعيش أنا، وحين قفز علي سقطت أرضًا على رأسي بسبب ثقل وزنه ثم فقدت الوعي.

أفقت بعد وقت طويل، فكان الصباح قد أتى، لأجد نفسي بين أحضان رجل من رجال الإطفاء في حديقة المنزل، وذلك حدث لأن عابر سبيل مر بجوار المنزل وعلم أن هنالك حريقًا فاتصل برجال الإطفاء، وبينما أنا في الخارج ومصاب بإصابات بسيطة ليست قاتلة، أخرجوا الرجال جثة الكلب روي التي كادت أن تتحول لفحم، ولكن عيونه الزرقاء الجميلة كانت واضحة رغم أن ملامحه بالكامل قد اختفت بسبب أنه احترق كليًا، ليخبرني رجل الإطفاء وأنا أنظر إلى روي وأريد الصراخ لكن صراخي لا يخرج "هذا الكلب أنقذ حياتك، لولاه لمت يا فتى، هل هو كلبك؟!".

لم أجبهم ولم أنطق بكلمة واحدة، إلا أن بداخل نفسي كنت أجيبهم وأقول "إنه صديقي المقرب!!"ز

شعر رجل الإطفاء بالأسى بسبب حالتي وبسبب مشهد عيون روي الجميلة البريئة التي تلمع، ليقول لصديقه الذي بجواره بينما يشير إلى جثة روي بإصبعه "أنظر إلى عينيه، هذه العيون لا تخون أبدًا".

حينها تذكرت عيون أمك والتي تشبه عيون الكلب روي كثيرًا، فعلمت الفارق بينهما.

هذا كل ما حدث يا ميرنا، فلم يكن كرهي لأمك لأنها قتلت أمي، بالعكس تمامًا، بل كرهي لها سببه الوحيد أنها خانتني، خذلتني،

خانت عشقي وحبي لها، تركتني لأموت، أما عن روي فمات بدلًا مني، حقًا عجيب وفاء الكلاب، فبإمكان وفاء الكلب أن يجعل منه قاتلًا وأن يجعل منه المضحي، فإذا قتل سيقتل عدوك ليحميك بل سيأكله إذا تطلب الأمر ذلك، وإذا ضحى سيضحي بنفسه لتعيش أنت!!

لقد رويت لكِ كل هذا لتعلمي سبب خوفي من العيون الزرقاء، لأنني كلما نظرت إلى إنسان عيونه زرقاء لا أرى سوى نظرة أمك لي وهي تقول " يجب أن تموت!!".

كلما نظرت إلى عيون زرقاء لإنسان لا أرى سوى الشيطان الذي رأيته يسكن بداخل عيون أمك حين أطعمت اللحم البشري للكلب، وحين تركتني لأموت محترقًا، لقد عانيت في حياتي بأكملها بسبب تلك النظرة، حتى وأنا في ملجأ الأيتام كنت كل يوم أستيقظ من نومي وفراشي مبتلًا لأنني قد تبولت وأنا نائم بسبب ذلك الكابوس الذي يزورني، الكابوس الذي تظهر أمك فيه وهي تطعم الكلب لحم أمي وأباكِ بعيون شيطانية، ومن ثم تظهر في نهاية الكابوس أمامي بين النيران وتخبرني بنفس العيون المروعة الهالكة لأعصابي قائلة "يجب أن تموت".

لأستيقظ من نومي مبتل فراشي ثم يعاقبونني بأقسى عقاب على شيء لم يكن بإرادتي فعله، فهم لم يعلموا أن هذا حدث نتيجة لما عشت في طفولتي.

هكذا قد رويت لكِ كل شيء يا ميرنا، أما عن الآن فقد حان الوقت لنعود إلى ضحايا القاتل حكيم، وها هو الموعد لأروي لكِ عن الضحية

الرابعة والأخيرة، والتي هي بالتأكيد أمكِ!!

***

بعدما قتل حكيم الضحية الثانية والثالثة والذين هم الأم وابنتها المريضة، أخبرته أنني من سيقوم باختيار الضحايا أما هو فلا عليه سوى أن يأتي بهم إلى المنزل ويبدل عيونهم بعيون الهاسكي ثم يذبحهم كالمعتاد.

ولقد كنت أعلم تحركات أمك، وذلك لأنني علمت مكانها منذ زمن بعيد جدًا وظللت أراقبها من حين لآخر في صمت تام وعن بُعد حتى لا أواجهها وأنظر لعينيها، ولقد رأيتكِ أكثر من مرة معها، لا يهم... بل المهم هو أنني قلت لحكيم أنها خياطة، وعليه أن يأتي بها للمنزل، وهذا ما فعله حكيم بالضبط، حيث أنه قابلها ذات يوم وأقنعها أن زوجته عاجزة عن الحركة، وأنه يريدها أن تذهب معه للمنزل لكي تأخذ مقاسات زوجته لتفصيل بعض الملابس لها، فوافقت أمكِ بالتأكيد وأتت إلى منزلي.

في تلك الليلة عدت من الحانة مبكرًا في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، وعندما دخلت المنزل وجدت وجبة من الدجاج المقلي ملقاة على الأريكة في الصالة، اعتقدت لوهلة أنها لحكيم، فلم تلفت انتباهي ودخلت غرفة النوم لتغيير ملابسي كعادة الروتين اليومي، حينها وجدت الدولاب مفتوحًا، فعلمت أن حكيم في الغرفة المتواجدة في القبو، وربما يكون بداخل المطبخ.

لا أعلم حينها أي شعور تملك مني، هل الشعور بالسعادة والرغبة

في الانتقام، أم الشعور بالندامة والحسرة، لا أعلم ما الذي دار في قلبي، هل ارتاح قلبي لأن أخيرًا ما أردته سيحدث، أم ذُعر من حدوث ما أردته، لأن طالما حكيم بالأسفل إذا الضحية الرابعة في الأسفل أيضًا والتي أعلم تمامًا أنها نادية أمكِ.

نزلت للغرفة المتواجدة في القبو مسرعًا، لأجد أن الغرفة فارغة وباب المطبخ مُغلق، قبل أن استمع لصوت أمك بالداخل وهي تطلب من حكيم بخوف أن يتركها تذهب، ومن ثم سألته "لما قتلت الكلب؟! هل أنت القاتل الذي يقتل النساء ويضع بدلًا من عيونهم عيون كلاب هاسكي؟! أليس كذلك؟! لقد قرأت عنك في الجريدة وسمعت عنك في القنوات الإخبارية، اتركني أعود إلى منزلي أرجوك، ابنتي في حالة سيئة وعلي أن أذهب لها بالدجاج المقلي الذي تحبه حتى تعود ضحكتها بداخل المنزل، أنا عجوزة ولا نفع مني، ونظري ضعيف فما ستفعل بعيني؟!".

تلامست كلماتها مع شغاف قلبي رغمًا عني، لأن هذا الصوت هو الصوت ذاته الذي كان يرن في أذني ويروي لي القصص قبل نومي في طفولتي ولكنه قد أصابه الضعف قليلًا، ركضت تجاه المطبخ وطرقت على الباب بقوة صارمة، ليفتح حكيم الباب، لأمسكه من كتفيه بقوة مضاعفة لقوتي، ثم نظرت في عينه بملامح غريبة لا أعلم كيف أميزها أو كيف أوصفها، فلقد قلت له "هل هي بالداخل؟!". أومأ لي برأسه متعجبًا تصرفي.

تنفست ببطء، ثم مسحت عرقي المنسكب على جبيني بقميصي، فقمت بقطع قطعة من قماش قميصي وأعطيتها له قائلًا بلهفة "ضع

تلك القماشة على عينيها وأخرجها من المطبخ ".

أطاع حكيم أمري ودخل ليأتي بها، ولم تتعدَ الدقائق حتى خرج من المطبخ وهو رابط عينيها بقطعة القماش لكي لا أراهم، وقد ظهر عليها القليل من المقاومة بواسطة تحريك جسدها بعنف، أو بواسطة الكلمات التي تلقيها على حكيم بترجي لكي يتركها.

قاطعت مقاومتها بينما حكيم يمسك بها من الخلف، وقلت لها بصوتي الهادئ المعتاد بينما عيني تسيل بالدموع "هل تعلمين من أنا؟!".

صمتت أمك عندما علمت أن هنالك شخصًا آخر في الغرفة، فابتلعت لعابها وقالت بلهجة خائفة "لا، ولكني أترجاك، أريد العودة إلى المنزل، لدي ابنة لا تمتلك غيري في الحياة؟!". علمت حينها أنها لم ترَ صورة الكلب روي في الصالة، وأن حكيم فور دخولها المنزل أجبرها للنزول إلى الغرفة السرية في القبو.

ضحكت، ثم أخبرتها بسخرية كئيبة "ستتركينها، مثلما تركتِ طفلًا لم يكن يمتلك غيرك في الحياة، هل تتذكرينه؟! ولكن هذه المرة مختلفة، لأنكِ ستتركينها وتذهبي إلى الجحيم".

صمتت لعدة دقائق، ثم قالت بصدمة وصوت به نبرة الاشتياق "يوسف، أنت يوسف ابني الذي لم تنجبه بطني، أنت الماضي البشع الذي علمت أنه سيطاردني مدى الحياة، وها هو أمامي الآن".

بغضب عارم به نبرة عتاب سألتها:

- لماذا فعلتِ هذا بي؟! لقد كنتِ كل شيء بالنسبة لي!!

- تملك الخوف قلبي يا بني، وجب علي الاختيار إما أن أخسرك، أو أخسرك وأخسر ميرنا على حد سواء، كان يجب أن تموت ويموت ما رأيته معك، ولكن روي لم يحتمل صوت صراخك فعاد لينقذك، علمت أنك ما زلت على قيد الحياة، وكنت أعلم أن هذا اليوم الذي نحن فيه الآن سيأتي لا محالة، وأنني سأدفع ثمن ما ارتكبت في حقك يا صغيري!!

- كيف علمتِ أن هذا اليوم سيأتي؟!

- شعرت به، وشعرت بك، فأنا أمك التي كبرت على يدها لثماني سنوات، فكيف لا أشعر بك وبأنفاسك حولي، شعرت أنك قريب مني ولكن أين أنت؟! لم أعلم !!، أريد أن أراك يا يوسف!!، هل يمكنك أن تجعله يزيل تلك القماشة من عيني؟! أريد أن أرى وجهك وألمسه، أتتوق شوقًا لرؤية ما أنت عليه الآن يا بني، اشتقت لك.

انقبض صدري بقبضة كفيلة لقتلي حين سمعت أنها تريد أن تنتزع القماشة من عينيها، فأجهشت بالبكاء وقلت لحكيم " قم بما عليك فعله".

لتخبرني أمك بلهجة بها قلة حيلة "هل ستقتل أمك يا يوسف؟!".

جملتها قطعت نياط قلبي، لكني تظاهرت بالجمود قائلًا لها الجملة التي قالتها لي حين تركتني لأموت حرقًا، حيث أخبرتها بنبرة خشنة وغليظة "آسف يا أمي، يجب أن تموتي".

وكأنها كانت مستعدة لتتلقى الصدمة، حيث صمتت وتحركت أينما وجهها حكيم، لتدخل المطبخ، وبعدها بدقائق بدأت أن أستمع لصوت أنينها وصراخها ألمًا، ارتجف بدني، لم أستطع أن أستمع لصوت آلمها، بدأت أبكي كالأطفال، وكلما ارتفع صوت صراخها ارتفع صوت بكائي وصراخي، جسدي لم يعد يقوى على أن يحملني، فسقطت راكعًا على ركبتي متحسرًا، واضعًا يد على الأرض لأستند بها، واليد الأخرى ملتفة حول رأسي لكي أمنع تلك الصراخات أن تصل لعقلي، تساقطت دموعي على الأرض كالأمطار، وراح جسدي ينتفض بشدة، ثم فقدت الشعور بأنمالي، ورغم أنني لم أبذل أي مجهود إلا أن طاقتي قد استنزفت بالكامل، وقد ظللت على هذا الحال حتى توقف الصراخ.

حينها فتح حكيم باب المطبخ، فرأيته وهو يمسك بها من شعرها ليخرجها ويعطيني المكافأة، وتلك المكافأة هي أنني رأيت أملكِ ونظرت في عينيها مباشرة، ولكن هذه العيون ليست عيناها، بل عيني كلب هاسكي.

حاولت النهوض من مكاني بصعوبة بالغة حتى وافقت أقدامي أن تحملني، حاولت تمثيل دور القوي أمام المشهد حتى وافقت عيناي أن تتوقف قليلًا عن البكاء، حاولت أن أعيد نبرتي الهادئة الواثقة فوافقت حنجرتي على ذلك، اقتربت منها، ونظرت إلى عينيها مباشرة وهمست في أذنها وقلت لها بينما أمسكها من رأسها " أنتِ الآن بعيون كلب هاسكي تشبه عيون روي، هذه العيون لا تخون يا أمي، هل تعلمين لما حدث لكِ هذا؟! لأنني تمنيت لو كنتِ أنتِ من أتى

لينقذني وأنا بين النيران وليس روي!!".

بعدما قلت جملتي قالت هي بأنين "ميرنا".

لم ينتظر حكيم حتى تكمل جملتها، فقام بذبحها وهو ماسكًا بها من الخلف، لتسقط على الأرض ميتة، ويسقط قلبي معها.

حينها عدت إلى الحالة اليائسة التي كنت بها وهي بداخل المطبخ، حيث أن أقدامي رفضوا حملي مجددًا فسقطت على الأرض راكعًا بجوارها، وراحت عيناي تمطر بالماء على عباءتها السوداء، أمسكت يدها، فبدأوا كتفاي يهتزون بشدة نتيجة التشنج الذي يأتي مرافقًا للبكاء، نظرت لأعلى وصرخت بصرخة لا أعلم هل هي صرخة انتصار أم صرخة ناتجة عن أوتار قلبي التي تتقطع حزنًا، ولا أعلم أيضًا لماذا شعرت أنني أريد أن أنام بين ذراعيها في حضنها مثلما اعتدت أن أفعل في طفولتي البائسة، فارتميت برأسي على صدرها، وأمسكت بيديها الاثنين ثم وضعتهم على رأسي، لأنام نومًا عميقًا كنت مشتاقًا له، نومًا لم ينقصه سوى أن تروي أمك لي القصص مثلما فعلت في الماضي، ولكن هذا لم يحدث، لأن الصدر الذي أنام عليه لا يتنفس «.

***

نظرات مُبهمة من ميرنا عندما تم اختراق أذنيها بالقصص، مشاعرها متضاربة، ففي بداية الأمر بعد قتل والدتها كانت تعتقد أن أمها هي الضحية الوحيدة، أما الآن فمن هو الضحية؟! هل أمها الضحية أو يوسف هو المجني عليه، أو حكيم الذي استغله يوسف لتحقيق رغبته في قتل أمها، ومن ثم تركها لتقتله وكأنه أوفى بوعده

لحكيم عندما أخبره أنه سيدفع ثمن ما ارتكبه حين قتل الطفلة المريضة، ومن المذنب في تلك القصة؟! هل أمها أم يوسف؟! أم الخطأ قد بدأ من أبيها الذي خان أمها لتبدأ بعدها تلك القصة من الأساس؟! أم الخطأ من الكلب روي لأنه أنقذ يوسف؟!

عيونها تلتف حولها وتتحرك يمينًا ويسارًا، كما لو أن عينيها يوصفان تشتتها وحيرتها، أما عن يوسف فبدا مظهره أمامها كالطفل الذي تربى على أن البكاء للنساء، فقد كان أمام ميرنا بعين تريد البكاء ووجه يرفض ذلك بكبرياء.

تحرك يوسف تجاه ميرنا ليفك قيدها ويزيل اللاصقة عن فمها، وعندما فعل هذا عاد إلى كرسيه ليجلس أمامها، ثم سألها " هل هناك شيء آخر تريدين معرفته؟!".

لترد ميرنا عليه بصوت خافت "فهمت كل شيء".

ظهرت التعاسة على وجهها بعدما قالت جملتها، ثم سألته بعين كادت أن تبكي "لمَ لم تجعل حكيم يقتلني أنا أيضًا بعدما رأيتني؟!".

ابتسم يوسف ابتسامة بها خيبة أمل وقال "لأكون صريحًا، كان من المفترض أنكِ الضحية الخامسة بعد أمك، ولذلك قمت بإلقاء الجثث قريبًا من الحانة، لأن تملكني ذلك الشعور بأنكِ ستأتين لتبحثي عن القاتل حين تيأسي من وصول الشرطة له، واعتقدت أن اليوم الذي سأراكِ فيه سأخشى النظر في عينيكِ ولكن حين رأيتكِ لم أرَ أي شيطان يسكن بداخل عينيكِ، لم أرَ سوى الطفلة التي عشقتها كما عشقت أمها، وكما تعلمين!! الشياطين لا تسكن بداخل عيون الأطفال،

فحين رأيتكِ عاد عشقي لكِ مجددًا، عشق غير ملوث وبريء حتى وإن كنتِ ترين العاشق بأبشع صورة ممكنة، ولهذا السبب أنتِ ما زلتِ على قيد الحياة، بل وسلمتك حكيم الذي كان سيموت في جميع الأحوال سواء بواسطة يدي ومنشاري أو بعذاب ألم السرطان، سلمتك حكيم ليهدأ قلبك وتشعري ولو لوقت قليل بالانتصار قبل معرفة الحقيقة التي كنت على يقين أنكِ ستعلمينها مهما طال الوقت، لقد أردت فقط قضاء بعض الوقت معكِ ".

صمت لا مبرر له من ميرنا طال لدقائق، قبل أن تضحك بهيستيرية، ثم أخذت تصفق كما لو أنها تحييه على شيء ما، لتبدأ في أن تقول بسخرية من نفسها بينما الدموع قد بدأت في أن تتساقط من عينيها "الآن فهمت كل شيء، حتى تلك القصص اللعينة التي دائمًا ما كنت ترويها لي فهمتها، لقد كنت تبرر لنفسك قتلك لأمي، رويت لي قصة خاطف الأطفال لتخبرني جملة واحدة فقط، وهي أن طفولته ما جعلته هذا الشخص البشع الذي هو عليه، تمامًا مثلك!!، ورويت لي قصة العاهرة مريم ومثلث العشق لتخبرني أن هنالك عشق يجعل منك قاتل أو راغب في ذلك، وعشق آخر يجعلك المقتول، هل تعلم؟! لقد فهمت جملتك التي لم أفهمها حين قلتها، فهمت ماذا قصدت عندما قلت لي أنك عشقت عيونًا زرقاء تعلم أنها ستقتلك يومًا ما ".

أجابها يوسف بيأس قائلًا " ولما لم تتحدثي عن نوع العشق الثالث، وهو العشق الذي يجعل من الإنسان أفضل، يمكننا البدء من جديد سويًا يا ميرنا، يمكننا أن ننسى كل شيء ونبدأ حياة خالية من الدماء، أليس هذا ما اتفقنا عليه؟!".

نهض يوسف من مكانه، واقترب منها وعلى وجهه علامات الترجي وهو ينظر إلى المنشار المتواجد على الطاولة أمامها، ليمد لها يده للمصافحة قائلًا "لا عليكِ سوى الاختيار بين أن نبدأ حياة جديدة، أو أن تقتليني الآن، لا عليكِ سوى الاختيار بين يدي أو المنشار".

لم تعطِ ميرنا ليده أي اهتمام، بل حركت رأسها تجاه المنشار وتأملته بعين رغم قساوتها إلا أنها حزينة، ليعلم يوسف ما اختارت الفتاة، فأدار بوجهه إلى المطبخ متحركًا تجاه بابه المُغلق، قبل أن يصل إليه ويستند بيده عليه، ثم راح يتحدث دون الالتفات لميرنا قائلًا بنبرته الهادئة المعتادة لكنها مختلطة بالحزن الشديد "هل هذا يعتبر انتحار؟!، أن لا أقاوم، أن أدخل بقدمي للمكان الذي سيتم فيه قتلي، أخبريني!! هل هذا انتحار ؟!".

لم تجبه ميرنا، بل ظلت تنظر لظهره الذي أمامها بنفس النظرة القاسية الحزينة، قبل أن يكمل يوسف حديثه قائلًا " لا يهم!! فما الانتحار سوى تبديل الموت بموت، ولقد أخذت ما يكفي من الموت، وها قد حان وقت الموت ".

صمت، ثم أخذ نفسًا عميقًا، قبل أن يلتفت لميرنا ويخبرها بينما يتأملها للمرة الأخيرة قائلًا " أجعلي موتي تطهيرًا يا ميرنا".

قالها، ثم فتح باب المطبخ ودخل بقدمه لمكان موته.

الفصل الأخير

القاتل والمقتول، المُعذِبْ والمُعذَبْ

بعد مرور أسبوعين:

في تمام الساعة الثانية بعد منتصف الليل:

هنالك صوت خارج من حمام منزل ميرنا لرجل يلتقط أنفاسه الأخيرة، يرافقه صوت آخر لخطوات متتالية بطيئة ومتزنة، كانت هذه الخطوات لميرنا التي خرجت من الحمام وهي ترتدي ملابس مثل الملابس التي يرتدونها الجزارين أثناء ذبح الأضحية، وزيادة على تلك الملابس فكانت ترتدي في يديها قفازين لونهما أسود، بينما تمسك بيدها اليمنى ساطورًا ملطخًا بالكثير من الدماء، وفي يدها اليسرى تمسك بسيجارة مشتعلة. أما المريب في هذا المشهد فهي النظارة الشمسية السوداء الموضوعة على عينيها.

أطفأت السيجارة، ثم خلعت ملابس الجزارين والقفازين، لتلقي بهم على الأرض وتصبح بملابسها العادية، قبل أن تخرج من جيبها رابطة الشعر التي أهداها بها يوسف لتربط بها شعرها الناعم القصير البني، ثم بدأت في أن تستمع إلى الأغنية الموعودة التي عادة ما تكون صادرة من غرفة أمها، لتصير البهجة واضحة على وجهها، قبل أن تذهب مسرعة إليها، لتجد والدتها جالسة على السرير بطريقتها المعتادة، حيث كانت مربعة الأقدم وتدندن وتهز رأسها يمينًا ويسارًا على أنغام أغنية (أمورتي الحلوة).

كان هناك بعض التغيرات الطفيفة في الغرفة، مثل أن صورة ميرنا وأمها المعلقة على الحائط أعلى السرير أصبح لها رفقاء من الصور، فبجانبها ثلاثة صور أخرى، حيث أن الصورة الأولى من الصور الجديدة هي الصورة التي رسمها يوسف للكلب روي والتي كانت معلقة في صالة منزله أعلى التلفاز، والصورة الثانية هي صورة ميرنا ويوسف في طفولتهم وهم ينظران في عيون بعضهم البعض بينما يحملها يوسف بيده، أما الصورة الأخيرة فهي صورة رأس يوسف المقطوعة المذعورة التي لا يوجد بها عينان.

جلست ميرنا على الكرسي المتواجد أمام الطاولة التي يوجد بها اللوحة المغطاة بقطعة من القماش، ولكن هذه المرة لم يكن على الطاولة اللوحة فقط، بل وُجد زجاجة من الخمر، ورأس يوسف المزينة بالقليل من الثلج، والتي على ما يبدو أنها خارجة من الثلاجة مع زجاجة الخمر في نفس الوقت.

أزالت ميرنا قطعة القماش البيضاء، وأمسكت بالفرشاة، ثم راحت تحرك الفرشاة قليلًا على رسمة أمها التي أخيرًا قد اكتملت، حيث أن وعدها لأمها قد حدث ورسمت ميرنا العينين بدلًا من الفراغ الأسود الذي كان متواجدًا مكان عينيها.

سقطت دمعة من خلف نظارة ميرنا الشمسية، قبل أن تقول لأمها "أنظري لي".

رفعت الأم رأسها، ولقد كانت جميلة للغاية بعينيها الطبيعتين اللتين يشبهان السماء الصافية والبحر الهادئ الذي لم يرسل غضبه

على هيئة أمواج، فهذه المرة لم تظهر بعيني كلب هاسكي كما اعتادت ميرنا أن تراها بعدما ماتت، بل ظهرت الأم نادية بمظهرها الحقيقي وعيونها البشرية الساحرة الطبيعية.

قالت ميرنا وهي تتأمل جمال أمها " لقد انتهيت!!". ثم أخذت اللوحة وذهبت تجاه السرير لتهديها لنادية، ليطير قلب الأم فرحًا عندما رأت رسمة ابنتها لها، ثم سقطت دمعتان من عينيها، قبل أن تقول لها ميرنا "أحبك يا أمي".

ضحكت الأم ووضعت يدها على خد ابنتها، قبل أن تطلب من ميرنا أن تعلق الرسمة على الحائط بجانب الصور، وهذا ما فعلته ميرنا تمامًا، قبل أن تعود لتجلس على الكرسي الذي كانت تجلس عليه، لتنهض بعدها الأم نادية من السرير حتى تتأمل الرسمة أكثر وهي معلقة على الحائط.

أما عن ميرنا، فلقد فتحت زجاجة الخمر وبدأت في أن تشرب منها بشراهة، وكأن تلك الزجاجة هي نجدتها بعد مرور الكثير من الوقت في الصحراء، ثم أخذت تشاهد أمها بوجه مبتهج وقلب راضي بهذه النهاية.

لم تتعدَ اللحظات، حتى استمعت ميرنا لصوت يوسف، لقد كان الصوت صادرًا من الرأس الموضوعة على الطاولة، فالتفتت ميرنا إلى رأس يوسف المفتوحة جفنيها على آخرهم، ولم يكن هناك أي عيون خلف تلك الجفون، فتأملت الرأس بابتسامة واسعة، وذلك لأن الرأس تكلمت وقالت " أراكِ تشربين الخمر يا ميرنا، كأس الخمر هو

مأوى القاتل والمقتول، مأوى المُعذِبْ والمُعذَبْ، هل تتذكرين تلك الجملة، لقد أخبرتك بها في أول ليلة رأيتكِ فيها بالحانة، هل يمكنك أن تخبريني أيهما أنتِ؟! هل أنتِ القاتل أم المقتول أم المُعذِبْ أم والمُعذَبْ؟!".

غيرت ميرنا وضعية جلوسها، حيث قامت بوضع قدم تعلو الأخرى، ثم شبكت أصابعها ببعضهم البعض وقالت بسخرية حزينة "أنا جميعهم".

تكلمت الرأس مجددًا وقالت " هل تطعمين أبنائي الثلاثي داون؟! ". لترد ميرنا على رأس يوسف بنفس الاسلوب "لا تقلق يا عزيزي، أزورهم كل يوم بالطعام الذي يحبونه".

قالتها، بعدها تركت الغرفة وذهبت إلى الحمام، ووقفت أمام حوض غسيل الوجه لتنظر إلى المرآة التي تعلو الحوض بشبرين وهي مرتدية نظارتها الشمسية، قبل أن تأتي أمها من خلفها وتقوم بتقبيل كتفها، في ذلك الحين اتسعت ابتسامة ميرنا، لتقوم بعدها بخلع النظارة الشمسية، لترى نفسها في المرآة بدون عينيها.

لم تهتم، بل تحدثت لانعكاس أمها في المرآة بنبرة بها رضا وحب قائلة: "شوهت وجهي.. لكي أراكِ دائمًا جميلة يا أمي".

قاطع حديث ميرنا صوت يوسف الذي بالتأكيد صادرًا من رأسه بداخل غرفة نادية، لقد كانت الرأس تتحدث بنبرة مرتفعة رغم هدوئها وتقول " هل تعلمين يا ميرنا، لقد كنت على وشك كتابة رواية قبل أن تقتليني، لم يعطلني شيء للبدء في كتابتها سوى عنوانها،

فلقد احترت في اختيار العنوان المناسب لها، كنت أود أن أسميها (اللعنة على العيون الزرقاء) ولكن هكذا سأخسر القراء ممن يمتلكون تلك العيون، أخبريني!! إذا كنتِ أنتِ مَن سيكتب هذه الرواية!!، فما هو العنوان المناسب لها؟!".

لم تجب ميرنا، بل التفتت لحوض الاستحمام المتواجد بجوارها، لتتأمل جثة الرجل المبتورة أطرافه بداخل الحوض، قبل أن تستمع لأصوات نباح وعواء للعديد من الكلاب آتية من كل شرفة في المنزل، فقالت قبل أن تضحك بهيستيرية...

"هاسكي "

النهاية